Dwellers Of Atlas



"حُلم الجَوف"

حسام الصافي

Dwellers Of Atlas

رواية

سُكَّان أطلَس

الجزء الثاني

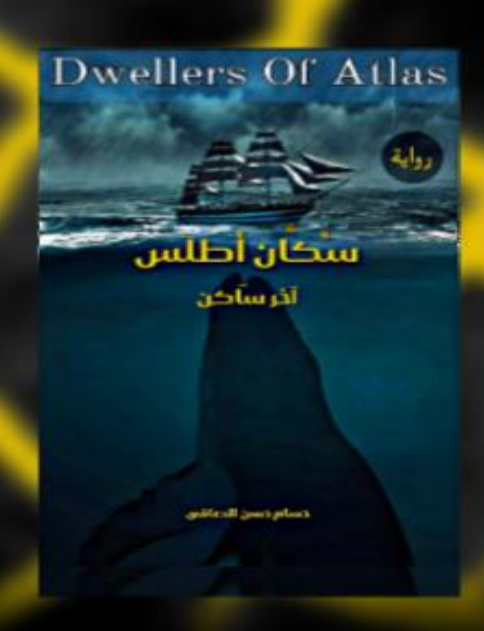
"حلم الجوف"

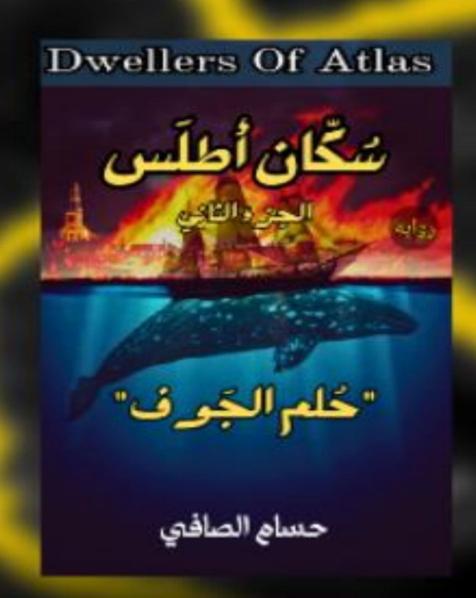
حسام الصافي

"تقول المصادر الموثوقة التي لا شك في صحتها؛ أنه في زمنٍ بعيد كان هناك نبي قد مكث بداخل بطن حوت لأيام، لكن لا يوجد شيء يقول أن ذلك النبي كان آخر من سكن جوف حوت، أو أن ذلك الحوت كان آخر من سكن جوفه البشر... فإذا تجرأت وارتكبت المعصية على البر، فلا تتجرأ وتركب البحر، لا تظن بذلك أنك ستنجو وتهرب من القصاص، ربما إن هربت عبر أرض أخرى ستفلت، لكن في البحر ينتظركَ السجّان، هو السجّان والسجن معًا. إنه كما ترى.. لم يكف الآثمين عن اللجوء إلى البحر، كما لم تكف الحيتان عن حبسهم في أجوافها."

هذا ما أخبرني به رجل يدّعي أنه اختبر العيش في بطن حوت في القرن التاسع عشر، كما يدّعي أن عمره مئتان عام ولا يزال يبدو في عقده الرابع.

ربما سأكذبه بشأن مكوثه في بطن حوت وكل ذلك الهراء، لكن فيما يتعلق بعمره فأعتقد أنه لا يوجد عندي سبب لتكذيبه، إذ إنني نفسي في عامي الثلاثين بعد المائة ولا زلت أبدو في العشرين من عمري.





رواية: سكان أطلس "حلم الجوف"

المؤلف: حسام حسن الصافي

رقم الإيداع: 2023/16409

الترقيم الدولي: 978-977-94-6821-1

ملحوظة:

هذا الكتاب هو الجزء الثاني من رواية "سكان أطلس" وهو تكملة لأحداث الجزء الأول بعنوان "آخر ساكن" الذي إن لم تقرأه بعد فأنصحك ألا تكمل هذا الكتاب وتعود إلى الجزء الأول والذي ستجده في الرابط التالي:

https://www.ktobati.com//book/رواية-سكان-أطلس

لم يكن ذلك هو المكان الصحيح، أينما أذهب ينتابني شعور لا أطيقه بأني في المكان الخاطئ، كأن العالم بأكمله مكان خاطئ ليس من المفترض أن أكون فيه، صرتُ في حالة دائمة من التيه، كأني ضيعت شيئًا ما لا أعرف ما هو، ولا أبحث عنه.

بدأ كل ذلك منذ أربعة أيام، عندما رحلت عن أغرب منزل مكثت فيه، وتركت أغرب رجال عشت معهم، كانوا إثنين "دكرور" و"سامبار"، ولم أمكث معهما أكثر من أسبوع، لكنه كان الأسبوع الأهم في حياتي ذات المائة وسبعين عامًا، أسبوعًا كان كفيل بأن يتغير اسمي ونَسَبي وعمري وتغيرت فيه عائلتي.

طوال تلك الأربعة أيام وأنا أحاول العودة إلى ذلك الأسبوع وكل ما فيه، حتى أني وصلت إلى المطار وكدت أن أرحل عن المكسيك إلى أي مكان، لكن لم أفعل، أريد بشدة أن أعود لكني كنت أمتنع ربما لأن آخر لقائي بدكرور لم يكن جيدًا، فقد تشاجرنا قبل أن أرحل حول مصداقيته في إخباري بحقيقتي وحقيقة أمي، التي كنت شاردًا أفكر فيها وأنا أحاول بصعوبة أن أتذكر وصفها الذي قرأته منذ بضعة أيام.

قرأته في رواية سُكان أطلس التي لا أذكر منها شيئًا سوى أن دكرور كاتب الرواية؛ قد حمل طفلًا رضيعًا بين يديه ليدخله إلى بطن حوت، يسيطر ذلك المشهد على عقلي، مع فكرة أني هو ذاك الرضيع، وأن ذلك حدث منذ قرابة القرنين، وأن ذلك قد حدث فعلًا.

كانت جيرترود هي أكثر من يشغلني من شخصيات الرواية، لا أتذكرها مهما حاولت، ورحت أفكر في مصيرها بعد أن تركوها في بيتها مع رضيعها، وتساءلت فيما إن كان موريس قد نفذ وعده بقتلها ورضيعها إذا وشَت بهم، هل قتلها وأبقى على رضيعها؟ لابد أنه فعلها قبل أن يعود إلى الجوف، لكنني ما زلت لا أعلم كيف عادوا، أو إن كانوا قد عادوا أصلًا، فأخذني التفكير تلقائيًا إلى آخر ما قرأت، وهو اكتشافهم أن صديقهم الهارب ما يزال على قيد الحياة، ماذا كان اسمه؟.

أيقظني من شرودي وقطع تفكيري صوت صاحبة ذلك النزُل الرديء وهي تفرقع بإصبعيها وتقول:

- مرحبًا!! هل أنت نائم؟

مسحت عيني وأنا أخبرها:

- أه! لا أنا فقط... أريد غرفة
- ما اسمك؟
- أه!!

ازدردتُ ريقي بصعوبة وأنا أفكر في ذلك السؤال الصعب، ما اسمي؟، هل هو إدوارد براون؟، أم إنه إدموند وينسلو؟، بدأت أتصبب عرقًا بينما كنت أفكر فيما يجب علي أن أخبرها، وهي تحدق في ببلاهة وتلوك علكتها بصوت مستفز، ثم قالت:

- ما بك يا عزيزي! هل نسيتَ اسمك؟
- لا، إنه... وينسلو!.. إدموند وينسلو!

دوّنَت الاسم وقالت:

- هل لي أن أسأل كم عمرك؟ لا بأس إن كنت نسيته أيضًا، لكنك تبدو لي في الثانية عشر!

كان ذلك بالنسبة لي سؤالًا صعبًا آخر يحتاج لبعض الحسابات، كنت دائمًا ما أجيب على ذلك السؤال بواحد وعشرين سنة، لكن هذه المرة أجريت حسبة بسيطة في عقلي وقلت بثقة:

- عمري مائة وسبع وسبعون سنة!

جلجلت ضحكتها وقالت:

- هذا منطقي لأنه ربما أنت مصاب بالزهايمر!

ثم قالت بينما تكتب:

- مائة.. وسبع.. وسبعون!، هاك مفتاحك!

قدمت المفتاح إلي، ثم قالت وهي تشير إلى وجهي:

- إن حاجبك يسقط!

رفعت يدي تلقائيًا لأثبّت حاجبي المستعار، ثم شكرتها وذهبت إلى الغرفة.

خلعت قبعتي وألقيتها بعصبية، ونزعت حاجبيّ اللذين لم أكن أضع غيرهما على وجهي، نظرت إلى ذلك الذي في المرآة بحنق وضيق، وظللت أحدق فيه كأنني أنظر إلى شخص آخر، شخص لم أكن أعرفه إلا منذ أربعة أيام فقط، شخص أعرف اسمه واسم والديه وأين وُلِد ومتى، كان شخصًا مختلفًا تمامًا عني، لكنه أنا.

استحممت واستغرقت حتى بدا أني لن أنتهي أبدًا، ومن ثم تفقدت هاتفي لأجد مكالمة فائتة من سام، تردّدت كثيرًا في معاودة الاتصال لأجدني بعدها أتصل فعلًا كأني فعلت ذلك دون إرادتي، لم أنتظر طويلًا حتى رَد سام:

- إدي يا صديقي! لقد اشتقتُ إليك.. من أين تتكلم؟ هل وصلت المدينة؟
- نعم يا سام.. أنا في نُزُل في المدينة
- أه هذا جيد! أعرف أين أنت.. سآتي إليك غدًا وسنعود معًا، اتفقنا؟!
- لا أدري يا سام! أشعر بالسوء الشديد عمّا فعلت وما قلت لدكرور
- تبًا لك! هل سنعود إلى ذلك الحديث مرة أخرى؟ قلت لك أنه لا بأس، إنه أيضًا مستاء من الأمر بشدة، وحزين على رحيلك، وأنا أيضًا، كما أننا حقًا نريدك أن تكمل الرواية
- اه تلك الرواية اللعينة! ألا ترى أن الأمر بدأ يصبح سخيفًا؟ ثم إنه لمَ عليّ أن أكملها وقد عرفت منها ما أريد.. إن كان هناك ما تريدون إخباري فلتفعل الآن وننتهي من هذه الرواية اللعينة
- كم مرة علينا أن نخبرك أننا لا نستطيع إخبارك بالأمر مباشرةً؟! أنت ربما قد عرفتَ منها ما يخصك، لكنك ما زلتَ لا تعلم ما يخصنا

- أتعتقد أن قولي بأنه كاتب سيء هو ما جعله يستاء حينها؟

ضحك سام وقال:

- لا، بل نعتُك إياه بالكذاب، فهو لا يكذب، بإمكانه أن يخفي الحقيقة لكنه لا يكذب
- ما أمره حقًا يا سام؟ أعني... حسنًا سأقول أني أصدق كل ما قرأت من أنكم سُكان الحوت أطلس وما إلى ذلك؛ لكن لمَ هو هكذا؟ رغم أنه آخر من عاش حقًا في جوف أطلس، هل صار القائد بعد ذلك أم ماذا؟

اختفى صوت سام لبرهة، ثم قال بنبرة خفيضة كأنه يدفع البكاء:

- يمكنك القول بأنه أكثر من تأثر بالأمور.. وداعًا يا إدي! سأمُرّ عليك غدًا لنعود إلى المنزل
- حسنًا يا سام.. أراك غدًا!

نمت وأنا أفكر أنه بإمكاني أن أكون على متن طائرة إلى الوطن الآن، لكنني لا أفعل، يوجد شيء ينهاني عن الذهاب، ويريدني أن أعود إلى دكرور وسام، لا أدري هل أريد أن أعود لأعتذر من دكرور، أو لأعرف منهم أكثر عن أمي الحقيقة، أو لأكمل الرواية.

واستيقظت في اليوم التالي على طَرق الباب، فتحت لأجده سام يقول:

- هل أخبرتهم أن اسمك وينسلو؟

عانقته وقلت:

- نعم، وأخبرتهم أن عمري مائة وسبعة وسبعون

دخل سام ليساعدني في حزم حقيبتي التي لم أفتحها أصلًا، فساعدني في وضع الحواجب والرموش على وجهي الخالي من أي شعر، ثم وضع القبعة على رأسي، وخرجنا لنقابل صاحبة النُزُل التي قالت لي وهي تثبت بصرها على سام بإعجاب:

- وكم عمر صديقك هنا؟!

- أه! سام؟.. لا أدري، ربما إنه في عمر الثلاثمائة أو شيء كهذا!

ضحك سام وقال:

- تخمين جيد يا إدي! لكنني في الثلاثمائة وستة عشر

استقللنا حافلة عائدة، ورحنا نتحدث وسألته عن جيرترود وكيف كانت، فوصفها لي وأخبرني أنها كانت تشبهني بعض الشيء، لكن لم يخبرني بما حدث لها مهما سألته، ثم سألته:

- كيف حال دكرور؟
- إنه بخير.. ربما مستاء كما أخبرتك
- هل يعلم أني قادم؟
- نعم إنه ينتظرك، هو متأكد أنك لن تمانع أن ترجع معي

ثم وصلنا إلى المنزل الخشبي المبني على الشاطئ في المياه الضحلة، لكن هذه المرة رأيت أساساته في الرمال، بعد الجَزْر وانحسار الماء، دخلنا المنزل ثم إلى الشرفة التي تطل على البحر، وأيضًا بسبب الجَزْر كان المركب المسمى أطلس بعيدًا عن مرفئه بعض الشيء، ومن حوله رأيت بعض الحيتان الرمادية وهي تسبح وتزفر.

وجدت سام يلوّح إلى المركب البعيد، ثم رأيت دكرور عليه وقد قام يشخص ببصره إلينا، بعد أن وضع يده على عينيه يحجب عنها الشمس ويتبيننا أكثر، ثم بدا أنه علم أنه أنا فغاب مرة أخرى، لأجده بعدها يقفز من المركب ويغيب تحت الماء، توقعت أن أجده يسبح ناحيتنا، لكنه غاص ولم يصعد مرة أخرى.

فزعت وتراجعت قليلًا عندما وجدته يصعد من تحتنا مباشرةً وهو يتشبث بظهر أحد الحيتان، شغلتني دهشتي بما حدث عن ملاحظة دكرور وابتسامته، وجدته يعانقني دون سابق إنذار، وقال:

- لا ترحل هكذا مرة أخرى

قلت بتعجب وأنا أربت على ظهره:

- لن أفعل يا دكرور، ألستُ أحد سُكان أطلس أم ماذا؟!
- أنت كذلك يا بُني! أنت كذلك!

أبعدته عني وقلت بحماس وأنا أشير إلى الماء:

- مهلًا!! هل ذلك الحوت هو أطلس؟!!

كان الحوت قد غاب بالفعل، فضحك سام ودكرور، وقال الأخير:

- لا، ليس هو، والآن إلى الداخل
- وكيف كنت... كيف فعلتَ ذلك الآن؟!!
- فعلتُ ماذا؟... أه! ألم تقُل أني أروّضهم!

سرتُ على طول المرفأ بين سام ودكرور، وفي طريقنا قال سام:

- إدي! أتعلم.. يجب أن تنتقل للعيش معنا
- أه! لا أدري يا سام، أعني أنني أريد ذلك لكن... أتدري سأبقى حتى أنهي روايتك، وإن أعجبتني سأبقى معكم

قال دكرور بسخرية:

- أه اللعنة! إذًا ستهرب فور أن تنهيها ولن تعود

ضحكت وقلت:

- لا، إنها تعجبني بالفعل! وبالمناسبة.. أنتَ لستَ كاتبًا سيّئًا

ابتسم دكرور بتواضع، وقال:

- أين توقفتَ في القراءة؟
- أعتقد أنه عند نهاية الفصل التاسع
- هممم! أرجو ألا يخيب ظنكَ بعد ذلك

قلت بسأم شديد:

- اللعنة على ذلك! لا أدري لمَ لا تحكي لي ماذا حدث وننتهي من الأمر!

أجابني دكرور عندما دخلنا بأن أخذ الكتاب من على الرف وقدمه لي وقال:

- هاك! لن نعطّلك!

أخذ سام حقيبتي، ثم تركاني وذهبا إلى سبيلهما.

أمسكت الكتاب وقلّبته بين يدي في سعادة، وأنا أفكر أنه الكتاب الذي يتحدث عن قصة حياتي، جلست في الشرفة وتصفحت الكتاب حتى وصلت إلى الفصل العاشر، وشرعت في القراءة.

لكن بعد أن تبددت آخر قطرة شك كانت في داخلي بشأن صدق تلك القصة ونزاهة كاتبها؛ فتلك المرة لم أعد أقرأها بعين القارئ، ولكن بعين شخصية من الشخصيات، وحتى عنوان الرواية قرأته بشعور آخَر بعد أن علمت أني أحد سكان أطلس، ربما كنت شخصية فرعية بالكاد ذُكِرت، لكن بطريقة ما صرتُ أشعر أني أقرأ قصة حياتي أنا...

الفصل العاشر
"حكاية الأيام الخوالي"

(1)

زاد سكان جوف أطلس ساكن آخر، فصاروا اثني عشر رجلًا، لم يكن بينه وبين "بيدرو" الوافد السابق سوى أقل من سنة، أقل فترة بين إثنين من قبل كانت ثلاث سنوات، فكان مجيء ذلك الرجل حدثًا خاصًا.

دخل الجوف وهو يطلق صرخات متقطعة مذعورة، يتحسس جسده كأنه يتأكد من أنه لم يتقطع إلى مائة قطعة بعد أن أكله حوت، تحلّق حوله الرجال وتبعهم النائمون بعد أن استيقظوا على صراخه، فلم يلحظهم ذلك الرجل لمدة، فقد كان مشغولًا بتفقد جسده والمكان من حوله، وبدا كما لو أنه لا يراهم.

ثم كفّ عن الصراخ، عندما وقع بصره على أحد عشر رجلًا واقفين أمامه، استلّ خنجره بسرعة وواجههم به متأهبًا، فتراجع الرجال رافعين أيديهم باستسلام وبخوف مبتذل، حتى تقدمهم بيدرو بهدوء، فنقل الرجل تصويب خنجره إليه، فقال موريس لبيدرو محذرًا:

- ابتعد عنه أيها الأحمق!

فتوقف بيدرو وقال بابتسامة حذرة:

- لا تقلق يا صديقي! أنت بخير.. لن يؤذيك أحد هنا

شدّد الرجل قبضته على خنجره وقربه من بيدرو أكثر عندما اقترب منه أكثر، وقال وهو يصرّ على أسنانه:

- تراجع أيها اللعين! تراجعوا كلكم!!!

أصدر الرجال أصواتًا مندهشة ساخرة، وبعضهم صفق بيديه، وصاح أوين بحماس شديد:

- يا رفاق! أعتقد أن لدينا أمريكي آخَر!

ضربه دييجو على رأسه وقال:

- يكفينا واحد بالفعل!
- صدقني! أنا أعرف هؤلاء الأوغاد حين أرى أحدهم

واقترب مع بيدرو من الرجل، وقال له بحماس غير مكترث بالخنجر المصوب نحوه:

- أخبرني.. ألستَ أمريكيًا؟ هه! ما اسمك؟

ألصق الرجل ظهره بجدار الجوف القائم، وقد بدأ الخوف يبدو عليه، ويغمض عينه بشدة ويفتحها بعصبية، كما لو كان في حلم يريد أن يستيقظ منه، فرَدّ على أوين وهو على هذا الحال:

- من أنتم؟ وأين أنا؟.. اللعنة!! أين أنا بحق السماء!

تقدم بوهاردي هو الآخر، وهو يقول بتهكم:

- أيها السيد المحترم! يسعدني أن أرحب بكَ معنا في...

استوقفه بيدرو بحِدّة قائلًا:

- مهلًا!! انتظر!.. اترك لي هذا الأمر

فتراجع بوهاردي وراح يضحك مع البقية، ثم تقدم بيدرو وعلى وجهه ابتسامة طيبة، حتى أمسك بذراع الرجل وأخفضه، وأراد أن يأخذ منه خنجره، لكن زجره الرجل بعصبية وعاد يصوب قائلًا:

- لا! سيبقى هذا معي..

قال بيدرو بتفهم:

- حسنًا لا بأس! لا أريدك سوى أن تخبرني باسمك ومن أين أنتَ، وبعدها سأخبرك باسمنا وأين نحن الآن، وكل ما تريد أن تعرف

بدا الرجل أنه يفكر في العرض، ثم قال بتجهّم وثبات:

- بوتش.. هنري بوتش!
- ومن أين أنت يا هنري؟

- نيويورك، الولايات المتحدة، أنا الضابط الأول على الحوّاتة...

قاطعه بيدرو:

- حسنًا جدًا! لا أريد أن أعرف أكثر من هذا...

بينما التفت أوين إلى البقية قائلًا بحماس وسرور:

- أخبرتكم! أخبرتكَ أنت وأنت وأنت!!

ثم تكلم بوهاردي بصوت عالٍ متوجهًا إلى هنري مما أسكت الجميع:

- لحظة! هل قلتَ حوّاتة؟ هل أنت حوّات؟

لم يتلقّ ردًا من هنري، فقال موريس باهتمام:

- أكمل يا سيّد.. أنت الضابط الأول على الحوّاتة...

ربما أراد هنري أن يجيب على ذلك، لكنه قال بعد مدة وقد ازداد جهامة:

- لن تسمعوا مني كلمة أخرى!

قالها وباغت بيدرو بأن وضع الخنجر على رقبته، فأصدر أطلس أغنية عصبية شديدة، واضطرب الرجال وذهب بوهاردي ليجلب حربته وتبعه زيمان ورالف وسامبار، وقد جلبوا البنادق وصوبوها على هنري، فاستوقفهم أوين وموريس ويليام، وأخذوا يتصايحون في وجوه بعضهم، وقد وقفوا بينهم وبين هنري الذي كان يضع الخنجر على رقبة بيدرو، فقال بيدرو بهدوء وحذر وهو يرمق هنري بطرف عينه:

- هل حقًا ستفعل ذلك؟! أنا أريد مساعدتك

همس هنري بحيث لا يسمعه أحد آخر:

- لن أؤذيك.. فقط أخبرني أين أنا
- ربما لن تؤذيني، لكنك ستفعل إذا أخبرتك أين أنت
- لا، أنا أعدكَ!

أومأ بيدرو وقال:

- حسنًا الأمور المهمة أولًا.. لقد كنت تغرق صحيح؟!

أومأ هنري بترقب، فأردف بيدرو:

- ألا تذكر شيئًا بعد ذلك؟

بدا هنري حائرًا ومتردّدًا بل وخائفًا، فأردف بيدرو:

- إذًا ألم ترَ حوتًا وهو يبتلعك؟

ضحك بيدرو ثم رفع صوته ليسكت الرجال قائلًا:

- حسنًا يا رفاق! استعدوا لأن تقتلوا ذلك الوغد إذا حزّ عنقي الآن

ثم أكمل عندما سكت الجميع ونظروا إليه في ترقب:

- سيد هنري! أنت الآن في بطن حوت رمادي ندعوه أطلس، ونحن سُكانه

استمر الصمت لمدة، وترقب الرجال بعصبية، وبيدرو ينظر إلى هنري كأنه ينتظره بفارغ الصبر أن يقتله، وهنري يبادله النظر بوجه ممتقع جامد يخلو من الملامح، ثم انفجر في الضحك.

أخذ هنري يتلوى من شدة الضحك، والرجال يشاهدونه في تعجب شديد، حتى أتبعه بيدرو يضحك معه، ثم أتبعهما أوساي بضحكاته المميزة، وسرعان ما تفشى الضحك في بقية الرجال، وأطلس يغني بهدوء كما هو معتاد.

بالكاد التقط هنري أنفاسه ليقول لبيدرو:

- ومن أنت؟.. يونس!!

وعادت ضحكات الرجال أشد، ثم قال رالف:

- هل كنتَ ثملًا قبل أن تغرق أم ماذا؟

رَدّ هنري بعد أن التقط أنفاسه:

- لا، إنه فقط... لعشرين عام كنتُ أقتل الحيتان، والآن أنا في بطن أحدها، اللعنة! لا أعلم لمَ أصدق الأمر

قال بوهاردي:

- حسنًا أنتَ وغد مجنون! يجب أن تنسى أنك كنتَ حواتًا، المكان هنا آمن ما دمتَ لا تؤذي أحدنا، أنت الآن أحدنا، ونحن نرحب بكَ معنا...

ثم أضاف وهو يمد يده ليسلم عليه:

- أنا بوهاردي!

صافحه هنري، ثم تناوب الرجال على مصافحته وعرفوه بأنفسهم، ثم جلسوا جميعًا في حلقة يعرفونه على الجوف وعن عجائب العيش فيه، وقال كل واحد كم عمره وكم عاش في الجوف، وعن كيفية غرقهم، وهنري يسمعهم في صمت دون أن يبدو عليه الاهتمام، فبدا مع كل كلمة كأنه يعود إليه غمّا كان قد نسيَه، ثم عندما أراد بوهاردي أن يخبر أنهم يخرجون لقتل الحوّاتين وإغراق سفنهم؛ نبهه موريس وهز رأسه، فلم يضِف بوهاردي، ثم انتقل رالف إلى الكلام عن سبب غرقهم وأنهم هنا للعقاب، انتبه هنري حينها وقال:

- أنا هنا لأعاقب؟ هل هذا لأني كنت أقتل الحيتان؟ هل هذا لأني حاولت قتله؟

بُهِت الجميع وصمتوا يحدقون فيه، إلى أن قال رالف:

- هل حاولت قتل أطلس؟!!
- نعم، كانت الحربة في يدي على وشك أن تطير لتضرب حوت عنبر آخَر، حتى ظهر هو من تحته ودفعه بعيدًا عن القارب، فرميته هو بالحربة لكنني أخطأته، بعدها لم أشعر بنفسي إلا وأنا في الماء

استمروا في صمتهم وتحديقهم، إلى أن قال بيدرو:

- حسنًا لا يهم ذلك.. صحيح؟ أنت في جوف أطلس الآن وهو يسامحكَ

قال هنري بسأم:

- أنا لا امانع فكرة أني في بطن حوت، لكن لا أدري كيف تعاملونه كما لو كان حيوان أليف؟

قال مافي:

- أطلس ليس حيوان يا سيد!

وأضاف بوهاردي بتهكم:

- ألم نخبركَ بعد؟!! إنه يعقل مثلنا! انتظر حتى تنام وستعلم...

قاطعه هنري بانفعال شديد:

- أنا أنتظر حتى أصحو من ذلك الحلم السخيف
- إذًا ستظل نائمًا إلى الأبد



تفرق الرجال إلى سبيلهم تاركين هنري يريد أن ينام، لكنه كان فعلًا يريد أن يستيقظ، وانتظر حتى هدأ الجوف وبدأ الرجال يرقدون للنوم، وسلم هنري نفسه للنوم هو الآخر، لكن قطع ذلك بيدرو بأن وكزه، فنهض يعتدل جالسًا، وقال بيدرو:

- أردتك فقط أن تعلم أن الحياة في جوف أطلس ليست سيئة كما تتخيل، صدقني أنا هنا منذ خمسة أشهر وأشعر أني في بيتي بالفعل...
- لماذا؟ ألأنك لا تشيخ؟ أم لأنك لا تجوع؟ ماذا أيضًا لا تفعل؟
- ليس أي من ذلك.. إنهم هؤلاء البائسين، أتدري حقًا لماذا أنت هنا؟

وأضاف بعد أن انتبه هنري أكثر:

- لأنك فعلت شيئًا على اليابسة ثم هربت منه إلى البحر، أليس كذلك؟

هز هنري رأسه في أسف وهو يصر على أسنانه ويغمض عينيه بقوة، وعاد بيدرو يقول:

- أترى! كل واحد هنا لم تكن حياته أفضل من الحياة في جوف حوت، رضينا بالحياة في الجوف لأنه ليس لدينا حياة أخرى خارجه، ألديكَ أنتَ؟
- كنت فقط...
- لا، لا يريد أحد أن يعرف ماذا كنتَ أو ماذا فعلتَ، لا تخبر أحدًا بذلك

ثم أضاف بيدرو بمرح بعد مدة من الصمت:

- هل فعلًا لا تصدق الأمر؟ يبدو أنك تنسجم جيدًا في الجوف

قال هنري في حيرة:

- حسنًا لطالما كنت أدّعي أني رجل متديّن.. إلا أني لم أفكر من قبل في يونس على أنه فعلًا قد عاش في بطن حوت، لكن لم لا
- أتدري! سمعت أنه يمكنك أن تخرج من هنا حُرًا عندما تتوب ممّا فعلتَ

زفر هنري ضحكة ولم يعقّب، فأردف بيدرو:

- أعني إن هذا لم يحدث من قبل في جوف أطلس، لكن لِمَ لا تسأله بنفسكَ عندما تنام، مؤكد أنه في انتظارك، إنه يكلمنا دائمًا في أحلامنا، ربما يكلم النائمين الآن، أتسمع صوته؟ ربما يبدو لك الآن كأغنية غير مفهومة، لكن في الأحلام تصير هذه الأغنية ذات معنى

وحين نام هنري ليلته هذه وجد نفسه على سفينة لم يرَها من قبل، ووجد بحارتها هم أنفسهم الرجال في الجوف، فعلم أثناء ذلك أنه الحلم الذي كلّمه عنه بيدرو، ومن ثمّ كان ينتظر أن يسمع كلامًا من أحد بعينه، لكنه لا يتذكر مَن.

- مرحبًا بك في عالمي!

قال ذلك أطلس، فعرفه هنري على الفور، فكر في كل الردود لهذا الكلام، لكنه لم يرُد، ثم عاد أطلس يقول:

- أنا لا أهتم أنك أردتَ قتلي من قبل

ولم يرُد هنري، فعاد أطلس يقول:

- ولا بأس أيضًا في أنك قتلت حيتانًا كثيرة

ولم يرُد هنري، فعاد أطلس يقول:

- أخبرني هل تعلم شيئًا عن الحيتان الرماديّة؟

وظل هنري صامتًا، لم يكن يتظاهر بأنه لا يسمع، بل كان ينتبه للكلام وينصت له، إلا أنه بدا وكأنه لا يصدق، ثم قال سامبار:

- ماذا أصابك؟ هل صرتَ أصَمًّا؟

لكن أطلس هو من أجاب:

- دعه يا سامبار، أنت أيضًا لم تتكلم في أول أيامك

ضحك سامبار، وظل الرجال يتسامرون مع أطلس، وهنري معهم لكن لا يتكلم، فلم يكلمه أحد، ولا في أي حلم بعدها.



لم يعبأ أطلس بأن الرجل الجديد يأبى أن يكلمه في الأحلام، وراعى كونه جديد في جوفه، وأنه كان يصطاد الحيتان، فلم يخرجهم لفترة، وحتى عندما فعل ارتأى الرجال ألا يخرج هنري معهم هذه المرة، فهُم قد أخبروه تقريبًا بكل ما يجب أن يعرف، إلا أنهم لم يخبروه عن أهم ما يجب أن يعرف، وهو أنهم يخرجون، وبالطبع لم يخبروه عمّا يفعلون عندما يخرجون.

استدعاهم أطلس بينما كان البعض نائمًا مثل هنري، فأيقظوا النائمين إلا هو، استيقظ هنري مذهولًا عندما وجد الجوف خاليًا إلا من سامبار وبيدرو

الذي تطوع ليمكث معهم هذه المرة، فأخبره سامبار كاذبًا أنهم خرجوا ليأخذهم أطلس على ظهره في نزهة، وأنهم لم يريدوا أن يزعجوه، فجلسوا معًا وحكى له سامبار أنه لا يخرج حتى لا يعديهم بمرضه، وحكى له عن بعض تفاصيل رحلته على سفينة العبودية، وأخبره بيدرو عن فقدانه لبصره بعد أن يخرج لمدة طويلة، وهم يلعبون الشطرنج حتى عاد الرجال الواحد تلو الآخر.

لم يفُت هنري ملابسهم الملطخة بالدماء، بالإضافة إلى حِرابهم وأسلحتهم النارية في أيديهم، فقال متعجبًا:

- أي نزهة هذه؟! من أين جئتم بتلك الحراب؟ وماذا كنتم تفعلون؟ كيف تخرجون أصلًا؟

بدا على بوهاردي الإجهاد وهو يقول بسأم:

- حسنًا يا هنري.. إن كنت أحدنا فلا بد أن تعلم ماذا نفعل حقًا.. نحن نخرج كل فترة لإغراق سفن التحويت وقتل الحوّاتين.. لا ضغينة!

عاد هنري يجلس أمام رقعة الشطرنج، يبدو عليه الاهتمام، ثم قال:

- لِمَ تفعلون ذلك؟
- انظر أين أنتَ...

قاطع بيدرو بوهاردي قائلًا:

- يمكنك القول أننا نوازن الأمور بالخارج
- وهل يتحتم عليّ الخروج؟

لم يجِبه أحد، فقال بتفهّم:

- متى ستخرجون ثانيًا؟
- لا نعرف، ربما غدًا وربما بعد شهور
- حسنًا.. اتركوني أقرر لحينها

في الأيام التالية كان هنري يختلي بنفسه كثيرًا، وينأى عن الرجال فكان جافيًا معهم إلا بيدرو، الذي كان أكثر من يفهم حاله، لكونهما أحدث ساكني الجوف، فسأله هنري في مرة عن كيفية حدوث الأمر عندما يخرجون إلى سفن التحويت، فأخبره بيدرو عن التفاصيل من أول تسلقهم جانب السفينة، حتى خرقهم لها وتركها تغرق، وعندما سأله هنري عن سببه هو في فعل ذلك، أجاب بيدرو بمزاح:

- ربما يصيب أحد البحارة في مرة ويقضي عليّ، كما أنني لا أمانع مساعدة الرجال في...

- مهلًا! ماذا قلتَ؟ هل تريد أن تموت؟

رفع بيدرو أكتافه بلا مبالاة ولم يُجِب.

مرت أيام دون أن تتحسن علاقة هنري ببقية الرجال، إلى أن أتى اليوم الذي كان في انتظاره، عندما أطلق أطلس أغنية الاستدعاء ذات الصافرات الثلاث، والتي لم يكن هنري يعلم معناها بعد، فلم يخبره عنها أحد.

وجدهم يضطربون ويتصايحون بحماس، فعلم بعد برهة ماذا يجري، بقيَ يشاهدهم في سكون حتى أتاه بيدرو ومعه حربة فسلّمها له، فتسلمها منه ونظر إليها كأنه مغلوب على أمره، ثم وجد بوهاردي يربّت على كتفه، ويقول بابتسامة طيبة:

- لا بأس يا هنري.. سنكون معكَ

وأضاف ويليام:

- تذكر يا هنري أنك لم تعد حوّاتًا، أنت أحدنا ولستَ أحدهم

أومأ هنري في ثقة، فهتفوا جميعًا من أجله، وخرجوا تاركين سامبار فقط.

كان هنري مع بوهاردي وموريس وأوساي ويليام وبيدرو، في فريق على جانب الحوّاتة، وفي الفريق الآخر كان رالف وأوين ومافي وزيمان

وديبجو؛ في فريق آخر على الجانب الآخر، فكانت تشكيلة غريبة لم يفعلوها من قبل.

ارتقى بوهاردي يتفقد المتن، ثم رمى الحجر إلى الجانب الآخر، ثم أشار لفريقه أن يتبعوه وصعد هو بسرعة، صعد موريس وويليام في نفس الوقت، ومن الجانب الآخر ظهر البقية، وأوساي في طريقه إلى أعلى الصاري الرئيس، ثم سرعان ما بدأ قتالًا صامتًا إلا من حشرجة الموتى وشهيق المصروعين.

كان الأمر سلسًا وهادئًا فلم يشارك هنري حينها، ووقف يشاهد فحسب، حتى أخبره موريس أن يستعد، ثم أشار إلى زيمان بأن أومأ له، فبادله زيمان الإماءة، وبدأ يضرب الجرس وهو يصيح بأعلى صوت:

- ها هي تزفر!! الجميع!.. الجميع إلى المتن!

ورد الرجال عليه ذلك النداء، الذي يعرفه هنري جيدًا، وهم يدبّون بأرجلهم لإحداث الجلبة، ثم اختبأوا وسرعان ما خرج بقية البحارة من الكوثلة متحمسين وفي أيديهم حرابهم، وحين خرجوا جميعًا بدأ قتال آخر.

لم يبدُ على هنري الخوف أو الرهبة من المعركة الدائرة أمامه والتي يجب أن يشارك فيها، ربما بعض التردّد، غير ذلك فكان رابط الجأش على نحو مثير للإعجاب، ربما لأن موريس وبيدرو كانا يقفان متأهبَين إلى جانبه، كأنهما يحرسانه، حتى أثبت له موريس عكس ذلك عندما دفعه نحو أحد البحارة ظهر أمامهم فجأة.

كان يحمل حربة حديدية هوى بها على هنري، فصدّها بحربته ثم دفعها عنه بقوة، ليتراجع البحار فيطعنه بيدرو بحربته ليقضي عليه، ثم التفت هنري إلى جهة أخرى ليجد دييجو يتقاتل مع إثنين، وبدا أنه يخسر، صرع دييجو أحدهما، فكاد الآخر أن يقضي عليه، إلا أن هنري رماه بحربته باحترافية ليصيبه في مقتل، وحين أراد أن يستعيدها وجد أن القتال كاد أن ينتهي بالفعل.

أصيب زيمان وبوهاردي فقط، أنزلوا الجثث إلى المخزن، ثم بدأت السفينة تميل بسرعة بعد أن خرقها مافي، ثم حيّوا هنري قبل أن يعودوا إلى الجوف، وجاءه بيدرو يسأله عن حاله، فأخبره هنري:

- لم يكن الأمر سيئًا كما ظننت

لم ينظر هنري إلى أطلس في المياه، كأنه لا يريد أن يرى ما لا يريد أن يصدق، وعاد بصحبة بيدرو وهو يقوده إلى داخل الجوف مغمضًا العينين.



توالت أيام، ومعها توالى خروجهم، يكاد يكون على فترات منتظمة، سواء لصيد سفن التحويت أو للمرح، ومع كل يوم يمر كان هنري يعتاد أكثر على الجوف وسُكانه، بدأ الأمر بالقتال سويًا والدفاع عن بعضهم، والتدريب على القتال في داخل الجوف، ولعبهم الشطرنج كما اتضح أنه لاعب بارع في لعبة الصاري والمرساة، فقد أقصى هو وبيدرو كل من واجههما، وحتى أنه أقصى بيدرو وزيمان عندما لعب مع سامبار.

وأيضًا خوضهم في مجادلات تصل أحيانًا إلى مشاحنات، والتي فيها يجادل هنري الجميع وبوهاردي بالأخص؛ بشأن التحويت وصيد الحيتان، ويتعصب لرأيه في أن الأمر طبيعي من أجل استمرار حياة الناس على البر، لكن لم يتعدّ الكلام أكثر من ذلك، ورغم ذلك كانت تلك المشاحنات مما يزيده قربًا منهم، وبطريقة ما كانت السبب في إصلاح الأمور بينه وبين بوهاردي.

عرف هنري الكثير عن أطلس وسُكانه، وعرفوا عنه الكثير في أيامه الأولى، عرفوا أنه قائد صارم، حاد الطباع في بعض الأحيان، شديد الذكاء، يُعتمَد عليه في الشدائد، وُيسمَع له حين يلقي بالأوامر، ويعملون برأيه، وقد أعجب موريس بذلك كثيرًا.

رغم كل ذلك لا يزال هنري لا يعتاد أطلس نفسه، ولم يكن يريحه النظر إليه حين يخرج، أو حين كان يتشبث بظهره، وربما لا يتقبل فكرة وجوده أصلًا، لاحظ الرجال ذلك وأنه كان يسكت عندما يتكلمون عن أطلس؛ فسألوه عن السبب، فأجابهم:

- لا أدري.. ربما لأنه من المفترض أن يكون قد انقرض...

سأله أوساي:

- ماذا تقصد أيها المعتوه؟
- أقصد أن الحيتان الرمادية من المفترض أنها انقرضت، أعلم فقط أن الحوّاتين قد صادوها حتى أبادوها، أعتقد.. ربما منذ مائتين عام أو أكثر
- لكنه حي على كل حال
- وهذا هو الغريب في الأمر، ناهيكَ بالطبع عن حجمه وشكله، وأني في جوفه، وادّعائكم أنه يعقل

ضحك بعضهم، وقال أوين:

- إنه يعقل أكثر منك أيها المتخلف!

وقال ويليام:

- مَن تظن أنه يكلمك في الأحلام؟ هه!

أجاب هنري بسأم:

- لا زلتُ غير متأكد من هذا، أنا فقط أحلم وأكلم نفسي بما أعرف بالفعل، حتى أنه صوتي أنا من أسمعه يتكلم

قال مافي:

- إن أطلس يكلم كلٌ بصوته، لكن ماذا عنّا؟ هه! هل أنت أيضًا من تتكلم حين نكلمك نحن في الحلم؟
- لا أدري، هذا الجوف غريب، ربما يجعلنا نتشارك الأحلام سويًّا

- إن كان يجعلنا نحن نتشارك الأحلام مع بعضنا، فالأولى أن نشارك الأحلام مع صاحب ذلك الجوف

ضحك هنري مع البقية، فقال بوهاردي:

- أتدري؟! سوف تخبره بنفسك عن الحيتان الرمادية، لأنه سألك من قبل
- بل أنا سألت نفسي!
- حسنًا.. انتظر وسترى

وظلوا يحاولون إقناعه بالأمر، بإخباره عن أشياء قالها أطلس لا يجب أن يعلمها أحد إلا هو، وهو لا يقتنع ويأبى إلا الثبات على رأيه.

ناموا في ليلتهم هذه، وكانوا على متن السفينة، التي كانت تبحر في بحر مضطرب، لكن الأجواء كانت طبيعية بالنسبة لهم، حتى قال أطلس:

- لا تتظاهر بأنك لا تسمعني يا هنري! أنت تعلم من يتكلم

قال بوهاردي ضاحكًا:

- ذلك الأحمق يعتقد أنه هو من يكلم نفسه، لمَ لا تثبت له؟
- حسنًا يا هنري، سَل ما شئت وسأجيبك، أعرف أشياء من ذاكرتك لا يجب أن يعرفها أحد
- لا لن يجدي ذلك، سيظن أنه هو من يخبر نفسه أيضًا

زفر هنري ضحكة، ربما كانت أول رَد له على أي شيء في الأحلام، رأى بوهاردي ذلك فقال:

- إنه يريد إثباتًا في الواقع يا أطلس وليس في الأحلام

قال أطلس بصوت فيه سخرية أكثر من التحدي:

- حسنًا يا هنري.. حين تخرج في المرة القادمة، لن أدَعك تعود إلى جوفي حتى تقر أني أعقل مثلكم

ضحك هنري بشدة مع الرجال، وظلوا في عالم الأحلام، تبحر بهم السفينة، حتى وجدوا سفينة أخرى تسبح في السماء أعلاهم، ثم استيقظوا على صافرات الاستدعاء الثلاث.

استيقظوا جميعًا في نفس الوقت، وهم يبحثون عن هنري، فوجدوه ينظر إليهم في ترقب، فقال له بيدرو بابتسامة متوعّدة:

- يبدو أن أطلس يتحرق لكي يثبت خطأك!

نهض هنري أولًا وهو يرفع يديه باستسلام، وقال بنبرة تحذيرية لا تخفي ابتسامة:

- حسنًا أيها الرفاق!.. أريدكم أن تهدأوا...

ركض بيدرو نحوه بسرعة، فهرب منه هنري، وركضوا جميعًا وراءه في أرجاء الجوف للإمساك به، وهو بالكاد يفلت منهم، حتى عرقله موريس الذي كان يقف ويشاهد بمرح، فانقضّوا عليه وقيدوه ثم حملوه ورفعوه رغمًا عنه، وهو يتلوّى ويركل وراح يصيح فيهم بجدّية مبتذلة، ثم دفعوا به خارج الجوف.

تعمّدوا إنهاء القتال سريعًا، فأصيب كثير منهم، لكن كان ذلك نتيجة تهوّرهم، وكان من النادر أن يصاب مافي، فقد نزل ليخرق والسفينة قبل الانتهاء بالكامل، ثم بدأوا يعودون إلى الجوف ما أن انتهوا، وأخبرهم بوهاردي وهو ينظر إلى هنري بابتسامة شامتة:

- لا تدعوه يتشبث بكم كما يتعلق الطفل بأمه
- لا تقلق يا هاردي.. أعرف الطريق وحدي

قالها هنري ببرود وبقيَ على السفينة، يشاهدهم وهم يلوّحون له من الماء، وقال بيدرو أخيرًا:

- سأكون في انتظارك.. لا تفعل شيء أحمق!

قالها فدفعه هنري من السفينة لينقلب بطريقة خرقاء، ثم غاب في المياه.

راح هنري يذرع السفينة جيئةً وذهابًا، يمشي بتثاقل وهو ينظر إلى القوارب الطويلة وربما أراد أن ينزلها ويبقى عليها إن كانت السفينة ستغرق، ثم نزل إلى قمرة القبطان، وتفقد السجلّات بلا مبالاة ليجد أنه قد مر على غرقه وعيشه في الجوف ثلاثة أعوام، ابتسم لذلك كأنها ثلاثة أيام، ووجد أيضًا بوصلة واسطرلابًا وبعض الخرائط وأدوات الملاحة، مما سيمكنه من تحديد موقعه بدقة في أي مكان في المحيط، لكنه تركها كما هي، ونزل إلى مخزن البراميل، وزفر ضحكة ساخرة عندما وجده ممتلئًا تمامًا، وتأكد أن هذه السفينة كانت في طريق عودتها إلى وطنها، ثم وجد أن المياه لا زالت لم تغمره بالكامل، وعرف أن بإمكانه سد الخرق، وتشغيل المضخات التي تفرغ مياه البحر إذا أصاب السفينة الخرق، لكنه أيضًا لم يفعل شيئًا وعاد إلى المتن.

لم يعلم أطلس فيما كان هنري يفكر حينها، فقد مكث على السفينة لمدة حتى كادت الشمس أن تغرب، حتى بعد أن غاصت السفينة تمامًا، ثم وجده يتشبث بأحد البراميل الطافية، فظل يسبح حوله ببطء، فقال هنري ربما بدافع الملل:

- كيف لا تزال على قيد الحياة أيها الوغد البائس؟ كم عمرك حتى؟ اللعنة! أراهن أنك أفلتّ من الصيد مئات المرات

وأضاف:

- أخبرني أين أقاربك؟ ألم يكونوا يعيشون في هذا المحيط من مائتين سنة؟ هل تهتَ عنهم؟

وبقيَ أطلس يسبح ويسكُن ويغوص ويصعد، ويتعمد ضرب البرميل بذيله، حتى ضايق هنري ذلك، وضايقته برودة الجو، وظلمة الليل، وندرة النجوم من السماء، فقال بعصبية:

- حسنًا!! ماذا تريدني أن أقول؟! هه! هل أناديك السيد أطلس بعد ذلك؟ أم تريدني...

لم يكمل هنري، فقد وجد أن أطلس كان قد غاص وعاد من الماء يفتح فمه أمامه، فدخله دون تردّد، وأطبق عليه.

عاد إلى الجوف ليجد معظم الرجال نائمين، فجاءه بيدرو يطمئن عليه:

- كل شيء على ما يرام؟

أومأ هنري ومكثا يتسامران ويغنيان معًا، حتى غلبهما النعاس، وفي عالم الأحلام، بينما كان الجميع صامتين يرتاحون، نظر هنري أعلاه وقال أول كلمة له في حلم:

- أنا لم أقل ما أردتني أن أقول، لماذا عدتُ إذًا؟
- فقط كلامك كأني أحد الرجال كان كافيًا ليثبت إما أنك مجنون وإما أني أعقل بالفعل، وأنا لا أظنك مجنونًا
- ولم لا يكون كلاهما؟

وهكذا مرت الأيام حتى أصبحت سنوات، وهكذا عاش هنري في جوف أطلس كأحد سُكانه، وقد ترك إلى حد كبير كونه حوّاتًا.



(2)

مرت عشر سنوات سريعًا منذ أن سكن هنري الجوف، كانت روتين من النوم والمرح وصيد سفن التحويت، لم يكن هناك ما يكسر ذلك الروتين سوى أطلس، عندما يأخذهم في جولات على ظهره ليريهم بعضًا من عجائب البحر، وغرائب أخرى.

وفي يوم رأى النائمون سفينة أخرى غريبة، كانت تسبح مع سفينتهم وليست في السماء كما اعتادوا السفن الأخرى في الأحلام، بل وكان عليها بحارتها، فعلموا أن تلك السفينة هي حوت آخر ذو جوف، وهؤلاء هم سُكّانه، ثم علموا من كلام أطلس أن ذلك الحوت صديقه، لم يكلمهم السُكان

الآخرين أو يكلموهم، ثم فاجأهم أطلس بالخروج، ليوقظهم على صوت أغنية الخروج.

أخبر النائمون المستيقظين بما رأوا، وقال موريس:

- خذوا أسلحتكم تحسبًا

وقال بيدرو:

- ألم تقابلوا سُكان حوت آخر من قبل؟

رد بوهاردي:

- لا لم نفعل، ولا أظن أنه يجب أن نفعل ذلك

ثم خرج متسلحًا بالكامل، وتبعه البقية، ووقفوا في صف على ظهر أطلس.

قال هنري بانفعال ودهشة شديدة أول ما رأى الحوت الآخر:

- أوه!!! فلتحل بي اللعنة!!! لقد رأيت آلاف من حيتان العنبر.. لكن ليس بهذا الحجم من قبل.. اللعنة!!!

زجره بوهاردي أن يصمت، وهو يثبت بصره على الرجال الآخرين فوق ظهر حوت العنبر، كانوا بعيدين بعض الشيء فلم يسمعوه، ثم اقتربوا أكثر ليجدوهم مسلحين لكن بالسيوف وليس الحراب مثلهم، وكانوا أيضًا يخفضون أسلحتهم، وظل الفريقان يرمقان بعض، والحوتان يسبحان في دائرة حول بعض، حتى قال رالف وهو يشير إلى الحوت بحربته:

- ما اسمه؟

أجاب رجل منهم:

- نون! ماذا عنه؟
- إنه أطلس!

كانوا عشرين رجلًا يسكنون جوف نون، كانوا مزيجًا من العرب والإنجليز والهنود والفارسيين والآسيويين، قائدهم كان فارسيًا، ولغتهم كانت العربية، فقط بعض الهنود كانوا يعرفون الإنجليزية، فتولوا الكلام وعملية الترجمة فيما بينهم، وفي حين أن بوهاردي أول سُكان أطلس قد أتم السبعة وثمانين سنة في جوفه؛ فقد كان أول ساكن لجوف نون منذ مائتين وثلاثين سنة، وهو عربي لا يخرج من جوفه منذ أن دخله.

علموا منهم أنهم يعرفونهم وأرادوا مقابلتهم من قبل، لأنهم أيضًا يخرجون لإغراق سفن التحويت، بعد أن أخبرهم نون أن سُكان حوت آخر يفعلون ذلك، وهم الذين بدأوه.

وأخبروهم عن كثير مما فعلوا قبل أن يغرقوا، فمنهم من فعل أشياء تقشعر منها الأبدان، ومنهم من لا يعرف ماذا فعل حتى يلتقمه حوت، كما أخبروهم أن هناك عددًا منهم قد تاب فيخرجهم نون من جوفه ولم يعودوا.

استمع سُكان أطلس بإنصات، ولم يخبروا الكثير عن أنفسهم فهم كتومين في بعض الأشياء حتى فيما بينهم، كما أنهم توجسوا من سُكان نون ولم يشعروا بالألفة تجاههم، فكانوا ينظرون إلى أوساي ويخفون ضحكاتهم، وكان قائدهم متجهمًا يكلمهم بازدراء فقط، وكان تعاملهم مع بعضهم غريبًا فيه بعض الاحتقار.

طالت الحكايات والقصص حتى انفتحت جروح زيمان وبوهاردي، وفقد دييجو ساقيه، وفقد بيدرو بصره، وحتى بعض سُكان نون بدا عليهم الإعياء، فأخبر موريس أنهم يجب أن يعودوا، فلوّحوا إلى بعض بالسلامات، وعاد كلٌ إلى جوفه.

ظلوا يتشاورون حول سكان نون ولم يكفّوا عن الحديث عنهم، أو عن سؤال أطلس عنهم، وعن من يعرف من ذوي الأجواف الآخرين، حتى سئم منهم.

ظل ذلك اليوم يشغلهم طوال سنتين، حتى انشغلوا عنه بالوافد الجديد.

★★★

كان بينه وبين هنري أربع عشرة سنة، ومثل هنري وكثيرون آخرون؛ دخل الجوف يصرخ وينتحب، ثم رأى الرجال فهرع يركض حول الجوف كثيرًا، لا يعلم أنه يدور في دائرة كبيرة، وأنه في الحقيقة لم يذهب إلى أي مكان، نظر إلى المكان من حوله، وإلى الرجال الواقفين يشاهدونه يقهقهون وبعضهم يستلقي من شدة الضحك؛ ثم دار مرة أخرى حول الجوف بهدوء، وقبل أن يكمل دورة كاملة كان قد أغشيَ عليه.

كلمه أطلس في منامه لكن بالألغاز، فلم يخبره شيئًا مباشرةً حتى لا يصاب بالجنون، تبيّنوه أثناء نومه أن عمره لا يتخطى الخامسة والعشرين وراحوا يتراهنون على عمره، ثم استيقظ بعد يومين كاملين أهدأ وأقل توتّرًا، كلموه بكل اللغات التي يعرفونها، فلم يستجب إلا لدييجو عندما كلمه بالإسبانية، فعرف منه أنه مغربي وأن اسمه عمار، وأنه في الثامنة عشر فقط، وبذلك قد أخذ مكان سامبار ذو التسعة عشر عامًا؛ في أنه أصغر سُكان جوف أطلس، حين غرق بالطبع.

وتحت إشراف موريس كلمه دييجو وبيدرو في بعض الأشياء المهمة مما يجب أن يعرف، إذ بدا أنه لا يتقبل الأمر بسهولة، فلم يكن يفكر في شيء سوى طريق الخروج من هنا، فلم يخبروه بالأمور مرة واحدة، وبعد أول يوم له باغتهم أطلس بالخروج، قبل أن يخبروه عمّا يفعلون عندما يخرجون، فقط أخبره بيدرو عن الأمر في عجالة وهم في الماء، قبل أن يصعدوا مباشرةً.

كان دييجو وبيدرو إلى جانب عمار عندما صعدوا إلى المتن، بدا مذعورًا وهو يشاهد القتال أمامه، ثم انخرط بيدرو ودييجو في القتال، وانشغلا عن عمار فالتقط حربة واندفع بها في ظهر دييجو فكاد أن يغرسها، لكن انتبه إليه بيدرو وطرحه أرضًا وقيد ذراعيه وراء ظهره، وأبقاه حتى انتهى القتال.

كان عمار يبكي حين فك موريس قيده، وراح يهدئه ويطمئنه بإسبانية ركيكة، ثم انتأى به عنهم، وأعطاه خبزًا وفاكهة، وسرعان ما جعله يضحك وهو يربّت عليه، ثم عاد عمار واعتذر لدييجو، واعتذر له بيدرو، ثم صحِبوه عائدين إلى الجوف.

اعتاد عمار الجوف سريعًا جدًا، وتجاوب مع أطلس في الأحلام بشكل مذهل، وتعلم الإنجليزية بسرعة أيضًا على يد كلًا من بيدرو ودييجو، وهما يمثلان كأنهما مدرسين، وارتاح الرجال له حتى من قبل أن يتجاوب معهم بلغتهم، عرفوا عنه في سنواته الأولى أنه طيب ومرح وليس جبانًا كما كانوا يعتقدون في أول أيامه، كما عرفوا أنه مثل كل سُكان أطلس كان شقيًا في حياته السابقة، بالطبع دون أن يخبر بذلك.



وفي يوم بعد مجيء عمار ببضعة أشهر جمع موريس الرجال وأخبرهم أنه يريد الذهاب لتفقد اليابسة، قال بوهاردي متعجبًا:

- هكذا؟ من نفسك!
- نعم، أريد الذهاب وحدي إلى فرنسا، هذا إن لم يرِد أحد مرافقتي

ومرر بصره بين الرجال، فقال أوين:

- سأذهب معك، لطالما أردت رؤية النساء الفرنسيات

قالها بحماس فضحكوا منه، وقال موريس:

- سيخيب ظنك.. ماذا عنك يا ويل!

أجاب ويليام بعد تفكير:

- ألم تخبر أطلس؟
- لا، ليس بعد
- حسنًا إن وافق أطلس فسأذهب معك

- هل من أحد آخر

قال عمار في تردّد:

- وأنا أيضًا يا موريس! هل يمكنني الذهاب؟

نظر موريس إلى بوهاردي، فرفع الأخير أكتافه بتعجب، فقال موريس:

- لا بأس يا عمار، هل من أحد آخر؟ أرجو أن يكون لا

كاد هنري أن يقبل دعوة موريس ويذهب معهم، لكنه انتهى عندما أنهى موريس الحوار وذهب لينام، وقد تعجب من أن ثلاثة فقط أرادوا الخروج، وفكر أنه ليس عليه سوى أن يقرر رحلة إلى اليابسة لكي يهرب، إلا أنه لم يفكر في الهرب منذ سنوات، ولم يعد هناك داعي لأن يفعل الآن بعد خمس عشرة سنة.

وافق أطلس على رحلة موريس، وأخبر موريس أنه لم يكن ليوافق على ذهاب البقية إلا لأنه معهم، فأخبره موريس لأين يذهب ففهم أطلس، وقد تعجب هنري من معرفة أطلس للأماكن والاتجاهات، فقط لم يكن يعلم أسماءها.

ثم لم يلبثوا أن استدعاهم أطلس للخروج فودّعوا سامبار، ثم خرجوا ليلقوا قتالًا صعبًا، أصيب رالف بطلقة نارية في بطنه، وأصيب بيدرو بجروح بالغة، مما كان يدل على أنه قتال شرس أن مافي نفسه قد أصيب.

بدأ موريس يجمع بعض الطعام وحاجيات أخرى، وحينها أخبره عمار أنه قد غيّر رأيه، ابتسم له موريس وربّت على كتفه بطيبة قائلًا:

- لا بأس! هذا أفضل

لكنه لم يرحب بفكرة أن ويليام أيضًا أراد التراجع هو الآخر فقال:

- هذا يعني أنه أنا وأنت فقط يا أوين

ومرة أخرى كاد هنري أن يخبر موريس أن يذهب معه، ومرة أخرى انتهى عندما وجد بيدرو غارقًا في دمائه، ففضّل البقاء معه.

ووسط العناقات والدموع ودّع موريس وأوين الرجال في عجالة، وعاد رالف وبيدرو ومافي بسرعة وتبعهم البعض، ومكث معهم البعض الآخر لمساعدتهم في تجهيز القارب ونقل الموتى إلى الكوثل وخرق السفينة، ثم عادوا هم أيضًا إلى الجوف، وفور أن عاد هنري تذكر أنه لم يرَ اليابسة، التي من المفترض أنها كانت قريبة.

لم يخرجهم أطلس طوال فترة غياب موريس وأوين، فلم يعلموا كم يومًا مر حين عادوا، لكن بدا أنهم عادوا سريعًا، وأخبراهم أنه قد مر خمسة أيام، سألوا أوين عن نساء فرنسا فأجاب برضى:

- لا بأس بهن، لكن كان الأمر أقل بكثير من المتوقع

وسألوا موريس عمّا وجد في فرنسا من أخبار، فلم يخبر سوى أن بريطانيا في حرب مع أمريكا وفرنسا، وقد أحبطوا حين لم يضِف أكثر من ذلك.

ومن بعد ذلك مرت ستة أعوام أخرى سريعة، بنفس الروتين المعتاد، إلى أن جاء الوافد الجديد.



دخل الجوف مغشيًا عليه، ولعب الرجال مرة أخرى لعبة تخمين عمره ومن أين هو، ورجحوا أن عمره يتراوح بين الثلاثين والأربعين، وأكثر قولهم أنه إنجليزي.

لم يفزع ذلك الرجل حين استيقظ، فقط كان يحدق في الرجال بترقب ودهشة، لم يعلموا ماذا أخبره أطلس في منامه حتى تكون هذه ردة فعله، كلموه بكل اللغات التي يعرفونها، فلم يتجاوب إلا مع زيمان، فعرف منه أنه نرويجي، وأن عمره واحد وأربعون سنة، وأن اسمه سيجورد.

رحّبوا به وصافحوه وهو يجاريهم في حيرة شديدة، ثم ابتعدوا وتركوه مع زيمان ليخبره أكبر حقيقة سيتلقاها في حياته، ثم ما هي إلا دقائق حتى سمعوا جلجلة ضحكاته، والتفت زيمان إليهم يضحك باستغراب، عادوا ينضموا إليهما وزيمان يكلمه ويترجم لهم ما يقول، فكان سيجورد يتكلم ويضحك وقال شيئًا أضحك زيمان بشدة، فترجم لهم وهو بالكاد يلتقط أنفاسه:

- يقول إنه كان على سفينة تحويت.. انتظروا! وكانت أول مرة يشارك في الصيد، قلَب الحوت قاربه فأغرقه فاقدًا الوعي

قال بوهاردي ينظر إلى هنري:

- لدنينا حوات آخر! لكن ما الذي يضحكه في ذلك؟
- لا أعلم، إنه فقط وغد مجنون..

مكث معه زيمان كثيرًا يعلمه عن أطلس والجوف وسُكانه ولغتهم، ولم يخرجوا للصيد إلا بعد شهر، كان كافيًا لسيجورد أن يكون مستعدًا إذا خرج، وبالفعل قاتل سيجورد إلى جانب زيمان وكأنه معتاد ذلك منذ سنوات، بعدها ظلوا على السفينة لبعض الوقت، يأكلون ويحتسون الخمر، ويرقصون ويغنّون ومعهم سيجورد يرقص مثلهم ويغني بلغته، وفي المرّات التالية كان يقلب السفينة بحثًا عن كمنجة حتى وجدها، وعزف لهم بها ببراعة وهو في غاية السعادة، وجلبها معه إلى الجوف.

لم يحتَج سيجورد لوقت لكي يعتاد على الجوف، فكان طبيعيًا من أول يوم له، كأنه كان يعلم الأمر من قبلها، وذلك مما جعل الرجال لا يعتادونه بسهولة ويعُدّونه غريب الأطوار، عرفوا أنه مرِحًا ساخرًا لحد السذاجة في بعض الأحيان، كما عرفوا أنه يخفي ذكاءً أكثر مما يبدي، ويبدي لا مبالاة أكثر مما يخفي، وبمرور الوقت قد اعتادوا عليه واعتبروه أحدهم على كل حال.

إما كان سيجورد بطيء التعلم، وإما أن زيمان كان معلمًا سيئًا، أيًا كان فقد أخذ سيجورد قرابة السنتين حتى أمكنه الحديث معهم بإنجليزيتهم، وقد أقر له زيمان تمكّنه من اللغة بعد أن سئم تعليمه.

واستمر صيد سفن التحويت وكثُر وصار أسهل، ربما لأن سُكان أطلس صاروا أربعة عشر ساكنًا بمجيء سيجورد، فكان ذلك أقصى عدد منذ أن سكن البشر جوف أطلس، وربما كان ذلك مما جعلهم يغترّون بأنفسهم ويستهترون بالقتالات، وقد كلّفهم ذلك الكثير.

خرجوا في مرة للصيد كانت بعد مرات عديدة متتالية؛ متكاسلين كأن الأمر صار معتادًا أو مضمونًا، واستهتروا في الأمر لدرجة أن مافي نسيَ بلطته، ولم يجلب بيدرو معه سوى خنجره، وحين صعدوا على المتن لم يتسلق أوساي الصاري الرئيس للقضاء على المراقب الذي عليه، كل ذلك وكان لا يزال في انتظارهم أكثر من أربعين حوّاتًا.

وبغض النظر عن عددهم، والذي كان أكثر من المعتاد؛ فقد كانوا مسلحين ومُعدّين جيدًا للقتال، جعل كل هذا من ذاك القتال شيئًا دمويًا، بدأ هينًا وأخذ يشتد، فكلما كانوا يقضون على دفعة خرجت لهم أخرى، وقد طال إلى أن انفتحت جروح بوهاردي القديمة بعد أن أضيف إليها أخرى جديدة، وإلى أن عَمِيَ بيدرو وراح هنري يحميه ويذود عنه القتال، وإلى أن صار دييجو يقاتل جالسًا، وإلى أن أصيب رالف بطعنة دخلت بطنه وخرجت من ظهره.

أمرهم موريس بالعودة وهو يدفعهم من سور السفينة فيلتقمهم أطلس، فعاد كل المصابين وصاحبهم أوساي، فلم يبقَ منهم إلا ثمانية، ومن البحارة مثلهم أو يزيدون، وبعد مدة طويلة من الكر والفر وتبادل الحراب بعد نفاد الطلقات؛ انتهى ذلك القتال العصيب، ومن ثمّ أرادوا إنهاء الأمر والعودة بسرعة، فخرق مافي السفينة، وساعدوا جميعًا في نقل الجثث إلى الكوثلة، كان سيجورد يجذب إحدى الجثث من الذراع وكاد أن يلقي بها، لكنه أدرك أنها جثة زيمان.

تركوا كل شيء وعادوا بجثمان زيمان إلى الجوف، فعمّ الحزن والبكاء بين سُكانه، ثم أشار عليهم رالف:

- لم لا ننقل روحه إلى جسد آخر؟

وافقه بوهاردي في تأكد، وقال باهتمام:

- نعم! ما علينا سوى أن نخرج مرة أخرى ونأتي بأحد البحارة...

قاطعه مافي:

- ولكن كيف ستفعل ذلك؟
- يجب أن نسأل أطلس، هو من أخبرنا عن الأمر

لم يكن يعلم آخر أربعة وافدين وهم بيدرو وهنري وعمار وسيجورد؛ بأمر نقل الروح من جسد لآخر سوى الآن، ومن كان يعلم لم يكن يعلم كيف، ومن كان يعلم كيف كان لا يعبأ بالأمر حتى نسيَه، وهؤلاء الأربعة أيضًا لم يشهدوا موت أحد إخوانهم من قبل.

أخبرهم أطلس بعدها أن الأمر لن يجدي لأن زيمان قد مات بالفعل ولا سبيل لتغيير ذلك، فانتهوا عن التفكير في الأمر، وأخرجوا جثمان زيمان ليلقوه في المحيط، مثلما فعلوا مع لويس ودوراي من قبل اللذين ماتا من قبل، وبذلك نقص سُكان أطلس ساكن واحد.



استغرقهم التعافي من موت زيمان سنوات، خاصةً سيجورد الذي صار أقل مزاحًا وضحكًا، مرت بعدها سبع سنوات، كان خروجهم من الجوف نادرًا لدرجة أنه بدا لهم أنهم لم يخرجوا سوى سبع مرات، فبعد سبع سنوات من موت زيمان وتسع من مجيء سيجورد؛ أتى وافد آخر.

دخل عاريًا إلا من كيس قماشي يغطي رأسه، فخرجت صرخاته مكتومة، كان رجلًا زنجيًا عجوزًا هزيلًا جدًا، واضح أنه كان عبدًا، فقد كان مقيدًا

من يديه بحبل خلف ظهره، وقدميه أيضًا من عند كاحليه، واقتربوا أكثر لتتضح لهم آثار جَلدٍ حديثة على ظهره، فكّ دييجو قيده بحذر فتكوّر الرجل على نفسه، ثم رفعوا القماشة من على رأسه فرفع يده يحتمي بها منهم كأنهم سيضربونه بالسياط، لكنهم أرادوا أن يربّتوا عليه.

تقدم سامبار ومافي وانضم لهما بوهاردي، لكي يستبينوا لغته ويطمئنوه، فقال بوهاردي لسامبار بعد أن أبعد حبال القيود جانبًا:

- ألا يذكرك ذلك بأحد؟!

رمقه سامبار بنظرة باردة ولم يرُد عليه، وراحوا يكلمونه بلغاتهم الإفريقية لكنه لم يستجِب لأي منها ولا لأي لغة أخرى، فجلبوا له القليل من الملابس والأقمشة لستر عورته، واكتفوا بأن عرفوه بأنفسهم، فلم يرد عليهم سوى باسمه، تاندي.

تركوه لينام ليتولى أطلس الحديث معه، وأدركوا أن تواصلهم معه سيكون في الأحلام فقط، ففي عالم الأحلام لا يوجد بينهم لغات، كما أنه لا يوجد شيء منطقي هناك، ولا حتى الكلام، فكانوا يتكلمون في أغرب الأشياء كأنها أمور طبيعية، وكان تاندي يتلقاها كأنها حكايات شيقة، وذلك مما صعّب عليهم معرفته حقًا، أو استبيان طبيعته في الواقع.

ولم يمر طويلًا حتى صارحهم تاندي عن كيفية غرقه، أخبرهم أنه كان على سفينة عبودية، وأنه عندما اقتربت سفينة أخرى بدا أنها تنوي محاربتهم؛ أخرجوهم واختاروا نصفهم للتخلص منهم، وأبقوا على النصف الآخر، وكان هو من النصف الذي تخلصوا منه، فطعنوه وألقوا به مقيدًا من السفينة.

لم يعرفوا عنه سوى أنه منطويًا وهادئًا، كثير الشرود، يختلي كثيرًا بنفسه، وكان طيّعًا يفعل ما يؤمر، فحين خرج معهم لأول مرة للصيد لم يجبروه على المشاركة، وبقيَ يشاهد الأمر بدهشة وذعر وهو يقف إلى جانب مافي، وتكرر ذلك أكثر من مرة حتى وجدوه من نفسه يقاتل معهم

جنبًا إلى جنب، فاحتفوا به وهنئوه لذلك، ولأول مرة رأوا الابتسامة على وجهه.

بالطبع لم يكن يألف سوى سامبار ومافي وبوهاردي، وكان يحب عمار وأوساي ويضحك عندما يتواجدا، إلا أنه لسنوات كان يتجنب البقية مثل دييجو وأوين ورالف وبيدرو، وكان يخشى ويليام وسيجورد، وأكثر من كان يخشى كانا هنري وموريس، وموريس بالأخص مهما أبدى له الودّ والطيبة، في حين كان هنري يتعمد إخافته وكان يضحك بعدها.

وعادت السنوات تمضي مرة أخرى طبيعية وروتينية متشابهة، لم يحدث ما يهم بعد مجيء تاندي، سوى أن عمار حاول تفجير إحدى السفن بأن أشعل النار في مخزن براميل الزيت، انفجرت السفينة من تحت أقدامهم، لكن ليس فجأة، فكان هناك فرصة للهرب، لم يُصَب منهم أحد إلا عمار وأطلس، غضب منه أطلس والجميع وموريس بالأخص، الذي كان يحب عمار ويعامله كابن له، صالحهم عمار بعدها، بعد أن اشترطوا عليه ألا يشعل عود ثقاب حتى، وقد علموا أنه مهووس بالنار ورؤية الأشياء تحترق.

ومع مرور السنوات اعتاد تاندي الجوف وجميع سُكانه، فلم يعد يخشى منهم أحدًا أو يتجنب أحدًا، بل وبدأ يقول كثير من الكلمات والعبارات ويتواصل معهم، وهكذا عاد عددهم لأربعة عشر مرة أخرى.

لكنهم لم يعودوا يغترّون بذلك، حتى لا يتكرر قتال مثل يوم موت زيمان، يعلمون أنه لا مفر من مواجهة قتال شرس من حين لآخر، إلا أنهم لا يريدون أن يخبروا حتى أنفسهم أنه لا مفر من موت أحدهم في مرة من المرات، لا مفر من ذلك سوى بأن يتوقفوا عن قتال الحوّاتين، أو عن الخروج من الجوف أصلًا، وذلك ما لن يفعله سُكان أطلس أبدًا.



(3)

ورغم خروجهم مستعدين على أكمل وجه؛ إلا أنهم قد واجهوا قتالًا يمكن وصفه بأنه يشبه يوم زيمان، الذي لم يشهدوا مثيله منذ سبعة عشر عامًا، فكان البحارة رغم قلة عددهم كأنهم مستعدين لقتال البشر أكثر من الحيتان.

ورغم حذرهم الشديد واتخاذهم الحيطة، إلا أن بيدرو كان مستهترًا جدًا بشأن القتال، بدا للرجال أن ذلك شجاعة وأعجبوا به خاصةً بوهاردي، في حين أن موريس كان ينهاه أن يتهاون في القتال، لكنه لم ينتهِ.

في ذلك اليوم قاتل بيدرو بشجاعة وصلت إلى حد الغباء، فكان يأبى قتال البحارة على حِدة، فكان يختار المجموعات، وغالبًا ما يجد أحد الرجال بجانبه يساعده دون أن يطلب منه، وغالبًا ما يكون هنري، لكن كلهم كانوا مشغولين بما هم فيه، حتى وجد بوهاردي إلى جانبه يقاتل خمسة بحّارة دفعة واحدة.

وفي ذروة القتال وأثناء كرّهما وفرّهما، وجد بيدرو شيء ما يدفعه حتى كاد يسقطه، لم يعبأ لذلك وانشغل بقتال آخر، ثم حين التفت إلى بوهاردي وجده يجثو ويقاتل بحربته بيساره، وبيمينه يمسك حربة أخرى كانت مغروسة بعمق في ضلوعه، فأدرك أنه تلقى تلك بدلًا منه.

كفّ بحّاران عن قتال بوهاردي وأخذا يشدّان الحربة يريدان نزعها لينزعا معها جزءًا من رئته، قضى بوهاردي على واحد، ونجح الآخر في نزع الحربة قبل أن يقضي عليه بيدرو، وفي اللحظة التالية كان بيدرو يحمل بوهاردي ويقفز به إلى الماء، وفي اللحظة التالية كانا في الجوف.

لم تشغل عودتهم سامبار، راقبهم أولًا بلا مبالاة لكنه نهض عندما وجد أن بوهاردي نائمًا وعلم أنه مصاب، جثا مع بيدرو إلى جانب بوهاردي ليتفحصه، وجد جروحه القديمة تنزف كالعادة، فسأل بيدرو باستغراب:

- ما الأمر؟ ماذا حدث؟!!
- لقد تلقى حربة بدلًا مني

- تلقى حربة!! وماذا في ذلك؟!
- إنها حربة ذات كُلّاب انتُزعت من صدره، ونزَعت معها رئته

وأشار إلى موضع الطعنة الذي يظهر عظام ضلوعه ويخرج منه لحم فاتح اللون كان أجزاء من الرئة، رأى سامبار ذلك فقال بتأكد لكن بقلق:

- حسنًا.. لا بأس! سيكون بخير.. إنه دائمًا ما يعود بجروح فاقدًا لوعيه، سنتركه ليشفيه الجوف كما يفعل، فقط لا تقلق!

ثم سرعان ما عادوا جميعًا، وكان رالف وموريس وأوساي مصابين بشدة، وخاصةً رالف الذي كان يهذي كالمغشي عليه، ثم انشغلوا لفترة بإخراج الرصاصات من جسده، ثم نام وموريس من شدة الإعياء، وانضم لهما سامبار وأوساي، ليلاقوا بوهاردي هناك في عالم الأحلام ليخبرهم:

- يا رفاق! أعتقد أني أحتضر.. أنا مصاب لدرجة لن يشفيها الجوف
- ما الذي تهذي به؟!! لا تتكلم هكذا أيها المعتوه!

قال ذلك رالف، فرد عليه أطلس:

- إنه يحتضر بالفعل.. وذلك يحدث بسرعة

سأل موريس أطلس:

- ألا يمكنك أن توقظه فحسب؟!

لم يتلقّ ردًا، وقال أوساي:

- لا ليس بوهاردي! ليس أنت!! كيف حدث ذلك؟

قال بوهاردي:

- لا يهم الآن.. تكفيني هذه الحياة، أنا أحبكم.. أخبروا البقية أن يناموا لكي أودعهم، إن لم يفعلوا أخبروهم فقط أني أحبهم، أخبروهم أن يكونوا أقوياء أشداء

قال رالف بعصبية:

- اللعنة عليك! لن ترحل الآن! لا يزال بإمكاننا إيجاد جسد سليم، أليس كذلك يا أطلس؟!
- إياكَ أن تفكر في الأمر!

وقال أطلس:

- قلت أن الأمر يحدث بسرعة! حتى وإن وجدت سفينة وجلبت أحدًا في الوقت المناسب فهل ستفعلها حقًّا؟

رد رالف:

- سأفعلها أنا إذًا!

قال موريس:

- لن ينفعه جسدك المعطوب في شيء
- لا يهم طالما أنه جسد حي، أنا أعرف الطريقة، لن يمنعني أحد

قالها واختفى من عالم الأحلام، فاستيقظ ليجد نفسه لا يزال ينزف وغير قادر حتى على الوقوف، وسمع بيدرو ينتحب ويقول:

- أنا السبب! أنا من كان يجب أن يتلقى تلك الحربة

والآخرون يتشاورون حول التضحية بجسد أحدهم، وبيدرو يصرخ بأنه من سيفعلها، بينما هنري يقيّده ويعنفه بل ويضربه لكي ينتهي عمّا يقول، ثم استيقظ موريس وأخبرهم:

- اهدئوا! أطلس يبحث عن سفينة وسنخرج إليها ونأتي بأحد البحارة

قال هنري:

- وإن نجح الأمر.. أخبرني كيف ستعيشون مع ذلك بعدها؟ ماذا إن كان يجب أن يموت الآن ببساطة؟ لمَ لا...

صاح فيه رالف:

- اصمت!!! لا تقل كلمة أخرى!

أكمل هنري كأن لم يسمعه:

- لم لا يموت كما الرجال؟ لمَ لا يموت مثل زيمان ومَن قبله

لم يكن رالف في حال يسمح له بأن يتشاجر أو يجادله، فذهب إليه بيدرو واحتضنه وبدا أنه يهمس له بشيء، فالتفت هنري عنهما وقال مخاطبًا الجميع:

- حسنًا أيها الرفاق! لقد عاش بوهاردي مائة وعشرين سنة في جوف أطلس، أعتقد أنه لا بأس في أن يرحل الآن

قال رالف وهو بالكاد قادرًا على الوقوف:

- انتظر يا هنري! لا ضير من أن نجرب الأمر مع أحد البحارة، وإن لم يفلح... حسنًا لا بأس
- اعذرني يا رالف.. لكني لا أصدق أن الأمر ممكن حتى، وحتى إن كان ممكنًا فأنا لا أتخيل كيف ستعيشون مع أحد...

قاطعه بيدرو بأن همس بشيء في أذنه ثم تركه، وانشغل هنري عنه بسامبار الذي كان يقول:

- إذًا سيفعلها أحدنا.. سأفعلها أنا!

رد هنري بسخرية:

- إذًا ستقتل نفسك معه...

شهق بعض الرجال وتراجعوا في ذعر وهم ينظرون إلى بيدرو، التفت إليه الجميع ليجدوا أن عينه قد تحوّلت إلى الأصفر البراق اللامع مثل النور السائل، ظلوا يرمقونه بثبات وترقب وهو يسير إلى جسد بوهاردي ويرقد بجانبه، ثم مدّ إليه ذراعه وأقحم خنجره في قلبه وأسبل جفونه كأنه سينام.

صاح فيه الرجال واضطربوا ولكن دون أن يتدخلوا، إلا هنري الذي حين أراد أن يهرع إليهما استوقفه رالف وقيّده، فما كان منه إلا أن جثا يبكي وينتحب، ثم كفّ على الفور وقام منتبهًا عندما وجد بيدرو قد استيقظ مجددًا،

لكنه عاد يبكي عندما أدرك أن الأمر قد نجح بالفعل، وأن بوهاردي هو من استيقظ في جسد بيدرو، بينما ذهب بيدرو نفسه إلى الأبد.



عمّ السكوت بين سُكان أطلس لأيام بعد حادثة بيدرو، كانوا يسمعون بوهاردي يبكي في أول أيامه في جسد بيدرو، لكن في تلك الأيام لم يحاول أحد الاقتراب من الآخر، وحتى أطلس امتنع عن الغناء وعن الحضور في عالم الأحلام، فقد كان مهمومًا وساخطًا بقدرهم، ارتأى أن يحبسهم في جوفه ولا يخرجهم بعدها، لكن ذلك لن يجدي إلا زيادة الأمور سوءًا.

كان هنري يبكي أيضًا، لكن دون أن يسمعه أحد، ربما لم يكن يمانع موت بيدرو أو أي ممّا حدث، إلا أنه أراد أن يحزن عليه أو ينعيه، أراد جسدًا لكي يبكي عليه، لكنه لم يجد سوى جثمان بوهاردي الذي لم يمت حقًا، حيّره ذلك وزاد حزنه وكآبته ووحدته، فانطوى على نفسه وابتعد عن الرجال وامتنع عن الكلام وعن النوم، ولم يخرج معهم عندما أخرجوا جثة بوهاردي، ومكث مع سامبار يبكي بين يديه، ولم يملك أحد أن يخفف عنه أو يعوّضه، فقد حاولوا ذلك جميعًا إلا رالف، وحتى بوهاردي حاول أن يكلمه ويهوّن عليه، لكنه كان يعرض عنهم قبل حتى أن يقتربوا.

ومن بعدها قد تغيرت الأجواء في الجوف، وقد تغير شيء ما في سُكانه ولم يعودوا إلى ما كانوا، حتى بعد أن عادت الأمور إلى نصابها ببطء بعد سنة، وعادوا يخرجون للصيد بعد إلحاح شديد من بوهاردي على أطلس، لكن لم يفعلوا بنفس القدر كالسابق.

وفي المرات القليلة التي خرجوا فيها لم يشارك هنري في القتل، فعل ذلك دون أن يلحظه أحد، كان يقف بجانب المحتضرين بالفعل، يتظاهر أنه يقاتلهم، وفي مرة أمسك أحد البحارة المحتضرين بطرف بنطاله وقال له بحشرجة:

- ساعدني! أرجوك! لدي أطفال.. لا أريد الموت...

تركه هنري يموت ببطء.

لم يعلم لماذا لم يفكر سوى الآن أن القتل شيء سيئ وأنه يجب أن يتوقف بعد أن مات بيدرو، وتساءل عن الفرق بين الآن والأربعين سنة الماضية، لم يجد فرقًا فشعر بأنه منافق، أيًا كان ما فكر فقد كان يعلم أنه اكتفى، لكن دون أن يعلم ماذا يفعل حيال ذلك.

وفي يوم كان هنري يجلس وحده شاردًا كعادته، ليجد الرجال يجلسون في حلقة بالقرب منه، فانتبه إليهم ولما يقولون حين قال موريس:

- ليس هناك من يريد الذهاب الآن يا ويليام.. ليس هذا وقتًا مناسبًا لرحلة إلى اليابسة

قال ويليام:

- رحلة إلى بريطانيا لن تكلفنا شيء

سأل سامبار:

- لكن لماذا بريطانيا بالذات؟

أجاب أوين:

- لاحظت أن أشد القتالات كانت على حوّاتات إنجليزية...

أضاف ويليام:

- أتدري متى أيضًا؟ القتال يوم بيدرو ومن قبله زيمان.. كلاهما كانا على حوّاتات إنجليزية، صدقني هناك ما يجري في الخارج، ويجب أن نعلمه

وقال بوهاردي:

- القرار لأطلس إن كنتَ ستذهب، لكن من سيذهب معك؟

- أوين سيأتي معي.. أليس كذلك يا عزيزي! ألا تريد أن ترى النساء الإنجليزيات أيضًا؟

قال أوين:

- تبًا لك!.. حسنًا لا بأس
- أي أحد آخر؟.. ماذا عنك يا مافي؟

انتبه مافي وقال:

- لا شكرًا!

قال هنري:

- أنا سأذهب معك...

ران صمتًا مفاجئًا والتفتوا جميعًا إلى هنري خارج الحلقة، فهو لم يتكلم في مثل تلك الاجتماعات منذ قرابة السنة ونصف، ثم أردف:

- إن كنتم ستذهبون لجلب أخبار التحويت فستحتاجون معكم إلى حوّات

قال ويليام في تردد:

- ليس لديّ مانع يا هنري.. حسنًا يجب الآن أن نرى رأي أطلس



تفرقوا بعدها، منهم من ذهب للنوم مثل ويليام، ومنهم من ذهب يتدرّب على القتال، ومنهم من يلعب الشطرنج، ومنهم من يستلقي لا يفعل شيء مثل أوين، ذهب هنري إلى أوين فوجده على وشك النوم، فأيقظه ليجلسا معًا، ورحب أوين كثيرًا بذلك، إذ لم يكن هذا من عادة هنري في الآونة الأخيرة، جلسا في صمت أولًا، ثم قال هنري:

- كم مرة خرجت إلى اليابسة؟!
- أمم! ستكون هذه ثالث مرة

- ما الخطة إذًا؟ ماذا سنفعل حين نصل هناك؟
- أولًا، وقبل أي شيء.. سنبحث عن ماخور

ضحك هنري بشدة، وقال:

- كنت متحمسًا كي أرى اليابسة بعد أربعين سنة، والآن صرت متحمسًا أكثر، هل سيكون الأمر ممتعًا كما أظن؟
- ليس لديك فكرة!

عادا يضحكان، ثم عادا إلى الصمت، حتى قال هنري:

- أوين! ألم تفكر في الهرب من قبل؟

اعتدل أوين وعقد حاجبيه باستغراب، وقال بتردد:

- بالطبع فكرت! لكن كان ذلك ربما في أول سنة فقط، منذ خمس وستين سنة، اللعنة! ما الذي جعلك تفكر في الأمر الآن؟
- لا أدري.. فكرت فقط ما الذي سيحدث إذا عدنا إلى حياتنا، كبشر عاديين
- هل قلت حياتنا العادية؟.. لا أعلم بشأنك لكن حياتي أنا كانت أسوأ من العادية، وبالطبع أسوأ كثيرًا من هذه الحياة
- حسنًا لن أجادلك في ذلك، لكن تلك الحياة لا تزال أسوأ من أن أعيش فيها إلى الأبد
- من قال أنك ستعيش إلى الأبد؟! لويس ودوراي وزيمان وبيدرو لم يعيشوا إلى الأبد، لماذا بظنك نقاتل الحوّاتين ونحن متأكدون من أننا سنموت في مرة؟
- أه! قتل الحوّاتين! هذا شيء آخَر يؤرقني
- يؤرقكَ؟!! بعد أربعين سنة! ما بك يا هنري؟! هل عُدتَ حوّاتًا أم ماذا؟

رمقه هنري بنظرة معاتبة، فقال أوين:

- اللعنة! آسف يا هنري.. لم أقصد...

نهض هنري بسرعة وذهب عنه ليجلس وحده كعادته، حاول أن ينام لكنه راح يفكر فيما قال أوين، ويزداد همًّا كلما فكر في الأمور أكثر، لكن كان يريحه التفكير في أنه سيخرج، وحينها سيتمكن من أن يقرر مصيره بنفسه.

كاد فعلًا أن ينام، لكنه نهض يجلس وانتبه عندما استيقظ ويليام وقال:

- حسنًا إن أطلس كان بالفعل يريدنا أن نذهب قبل ذلك، إذًا سنخرج في أقرب وقت، و... حسنًا هذا كل شيء

كان ويليام ينظر إلى هنري أثناء ما كان يتكلم، وشعر هنري بشيء غريب في طريقة كلامه، لم يعبأ بذلك كثيرًا وعاد يحاول النوم، لكن أيقظه موريس ووجد أن معه ويليام وأوين، وبوهاردي كان يجلس على مقربة، حدجهم هنري بتعجب حتى قال موريس:

- هنري! أطلس لا يريدك أن تخرج هذه المرة، سيخرج ويليام وأوين فقط

تحوّلت نظرة التعجب إلى لا شيء كأنه ينظر إلى الهواء، ولم يقل سوى:

- لماذا؟

رفع ويليام أكتافه في أسف كأنه مغلوب على أمره، ولم يرُد أحد، فقال هنري بابتسامة حائرة:

- لا، بل سأذهب.. ما هي إلا ثلاثة أيام على الأكثر وسنعود.. صحيح؟!

تحوّل بسرعة إلى الغضب، وقال بانفعال بعد أن نهض:

- ماذا في الأمر؟ ها!!! لماذا أنا؟!! ألستُ أهلًا للثقة؟

رفع صوته ورفع رأسه ينظر أعلاه، وقال بحدّة أكبر ليرن صوته في الجوف كله:

- ألا تثق بي؟! هل تخشى أن أهرب؟! لماذا تعبأ بي أصلًا؟! أخبرني أيتها السمكة الغبية!!!

حدّق الجميع فيه بدهشة، ولم يفعل أحد شيئًا إلا بوهاردي، فقد وكز هنري في صدره وقال:

- يا هذا! احفظ لسانك! لا يستحق الأمر كل ذلك...

انتبه له هنري كأنه يراه لأول مرة، ونظر إليه لثانية قبل أن يكوّر قبضته ويرميها بقوة في وجهه جعله يتراجع خطوة، فهرع الرجال إليهما، وأصدر أطلس صوتًا عنيفًا وشعروا بالجوف يرتج، وفي نفس اللحظة رَد بوهاردي على هنري بلكمة أخرى، وأمسكا في خناق بعضهما.

حدث كل هذا قبل أن يصل إليهما أحد، فلم يتمكنوا من التفريق بينهما بسهولة، إلا بعد أن صارت أغنية أطلس حادّة تصم الآذان، ويصير الجو خانقًا، وراح يظلم بسرعة أكبر من المعتاد، ولم يتفرقوا إلا بعد أن أظلم تمامًا، فسكت كل شيء.

ناموا بعد ذلك، وصاروا جميعًا على متن السفينة، كأنهم وصلوا في نفس الوقت، لم يشعروا أنهم في عالم الأحلام بقدر ما شعروا أنهم في الجحيم وهذا هو الحساب، كانت السفينة مضطربة والبحر هائج والسماء كئيبة غاضبة، رأوا كل ذلك من قبل، لكنهم لم يختبروا كابوسًا كهذا من قبل.

ولم يكن هناك أثر على وجود أطلس حتى سمعوه يقول:

- لن يحدث هذا مرة أخرى، سيذهب أوين وويليام فور أن يستيقظا

ولمّا لم يعقِّب أحد، لم يعقِّب.

صحا بعضهم قبل البعض الآخر، وصحا هنري متأخرًا ليجد أوين وويليام قد رحلا بالفعل.



قدّروا أنه مرّ عشرة أيام على رحيل أوين وويليام، وهي مدة طويلة جدًا بالفعل، إلا أنها ما زالت لا تدعو للقلق، لكنها تدعو لقلق هنري، فقد كان

يتساءل من أول يوم أن أوين ربما يكون قد استمع لكلامه وهرب، كان ذلك شيء مستبعد إلا أنه جعله يشعر بالحنق الشديد، ومع مرور كل يوم كان هنري يتأكد من أنه إذا خرج من الجوف فلن يعود مرة أخرى.

وكان الرجال كأنهم لا يدرون أنه قد مرت عشرة أيام، فكانوا يمارسون روتين حياة الجوف بشكل طبيعي، حتى أن أطلس عاد يكلمهم وصالحهم، مما جعل الأمور تعود بسرعة إلى طبيعتها بل أفضل، وعادوا يتمرنون ويلعبون، وهنري معهم يضحك ويلعب ويتظاهر أن الأمور على ما يرام.

اختار هنري بحذر من يكلمه عمّا يعتمل في صدره، ووقع اختياره على سيجورد، وبينما كانا يلعبان الشطرنج أخبره هنري:

- ألا تلاحظ أنه قد مر أكثر من عشرة أيام على رحيل أوين وويليام؟
- نعم، الجميع يلاحظ.. بوهاردي يعتقد أنهما قد هربا

تعجب هنري ولم يبدِ ذلك، ثم قال:

- إذًا ألا تريد الخروج إلى اليابسة يا سيجورد؟ وعَدَني موريس أنني سأكون على متن الرحلة التالية، لكنها ممكن أن تكون بعد عشرين سنة
- تبًا يا هنري! ألا زلت تفكر في الأمر؟! لمَ يهمك هذا الأمر هكذا؟
- ولمَ لا يهمك الأمر؟ متى فكرت في الهرب آخر مرة؟
- لا أذكر أني فعلتُ أصلًا
- لكن ألن تخرج إذا سنحت لك الفرصة؟
- لا أدري، لكنني أعلم أنه سيكون من الغباء أن أترك الجوف لأعود إلى حياتي الأخرى، حتى وإن تُبتُ، مهلًا! هل تُبتَ أنت؟!!
- لا، لا أظن.. لا أظن أن ذلك سيحدث أبدًا
- إذًا لماذا تتحدث عن العودة إلى اليابسة؟
- لم أتحدث عن العودة إلى اليابسة، بل عن عدم العودة إلى الجوف

ضحك سيجورد وقال بسخرية:

- هل ستعيش على سفينة أم ماذا؟!

لم يرُد هنري، وأكمل لعبه في صمت.

مرت بعدها أيام ليظهر تأثير غياب أوين وويليام على الأجواء في الجوف، دون أن يبدي أحد اهتمامه بالأمر حتى أطلس الذي كان يكلمهم في عالم الأحلام كأن لم يكن في الأمر شيء.

وفي أحد الأحلام لم يكف الجميع عن الإلحاح على أطلس بأن يخرجهم للصيد، ليوافق أطلس أخيرًا، ويعدهم بالخروج في أقرب وقت عندما يقابل أول سفينة، وعلم هنري أن أيامه في الجوف بل في الحياة؛ صارت معدودة.

مكثوا على السفينة لا يتكلمون ولا يفعلون شيء، إلى أن قال أطلس:

- لا تحزن يا هنري إن لم تخرج

تعجب هنري وكاد أن يستيقظ من المفاجأة، وقال بابتسامة:

- لا بأس يا أطلس.. ربما كان ليصيبني شيء، صحيح ألا تعلم شيء عن أوين وويليام؟
- لم أشعر بهم منذ أن خرجوا.. الآن أشعر بشيء آخَر
- إذًا ستشعر بهم فور أن يركبوا السفينة؟
- نعم، فور أن يلمسوا البحر

استيقظ هنري بعدها وهو يشعر بالاضطراب والحيرة من أمره، وراح يتساءل عن مدى سوء العيش في جوف أطلس، وعن مدى سوء العيش على اليابسة، وعن مدى سوء العيش برمّته.

وجد أوساي ومافي يلعبان الصاري والمرساة ضد رالف وعمار، وانتهت المباراة بفوز أوساي ومافي، ارتقى هنري ظهر سيجورد دون تحذير، وقال:

- هل من منافس؟

ليجد أن بوهاردي فوق ظهر دييجو بالفعل على استعداد للقتال، تردد هنري قليلًا لكنه تأهب للمباراة، ووقف أمام بوهاردي ينظر إليه بالمقلوب، وفور أن اشتبكا استوقفتهم أغنية أطلس تستدعيهم للخروج، فهتف الرجال في حماس، وتسلحوا وتجهزوا بحرابهم بسرعة، ثم توقف بوهاردي أمام الباب وقال:

- أعلم أنكم تعتقدون أن أوين وويليام قد هربا، لكنني لا أعتقد ذلك، و... أيًا كان فلن يكفّنا ذلك عن القتال

كان خطابًا لم يغير شيئًا، ثم خرج بوهاردي وتبعه الجميع، وأخيرًا هنري.

وقف هنري عند باب الجوف، ونظر خلفه وهو يشعر بالخوف وبالمغص في بطنه، وجد سامبار وحده ينظر إليه بدوره وقال:

- هل تريد شيئًا يا هنري؟
- لا، فقط... اعتني بنفسك يا سامبار
- تبًا لكَ!

وخرج هنري من الجوف.



كان هناك شبكة كبيرة مسدلة على ذلك الجانب من السفينة، تعلق بها الرجال وسرعان ما بدأوا يتسلقونها عندما أتتهم الإشارة.

أدخل هنري ساقيه في الشبكة وحرر باقي جسده، ثم أغمض عينيه وفرَد ذراعيه وأرخى جسده إلى الوراء فلامست رأسه سطح المياه وتدلى شعره فيها، كان في وضع أصابه بالنعاس والراحة وهو يفكر أنه إن كان ذلك هو آخر يوم له في الحياة فسيعيشه كما يريد، جعله الخاطر يبتسم، ثم أخرج خنجره ووضعه على عنقه، وفي لحظة تردد طبيعية لرجل مقدم على ذبح

نفسه؛ فتح هنري عينيه نصف ليجد نفسه ينظر إلى الأفق لكن بالمقلوب، فجحظ بعينيه عندما رأى ما لم يرَ منذ إثنين وأربعين سنة.

اعتدل بسرعة فأصيب بقليل من الدوار، ثم دقق النظر ليجد أنها هي اليابسة فعلًا، كانت بعيدة عبارة عن خط متعرج شفاف، لكنه يتذكرها هكذا جيدًا.

ضربه قلبه بقوة وتخبطت أفكاره وتشتّت عقله، لم يحسب أن تكون اليابسة قريبة في هذا اليوم بالذات، وفكر عمّا سيفعل حيال ذلك على كل حال، لم يجد إجابة فوضع خنجره وقرر أن يصعد ويترك كل شيء ليحدث في حينه.

انتهى القتال سريعًا، وظلوا بعدها يستمتعون بالرياح التي سبقت العاصفة القريبة، ويحتسون الخمر حتى أفرغوا برميلًا، وأحضر هنري برميلًا آخر وحرص على أن يفرغوه حتى آخره، وحث أوساي على الغناء وراحوا يرقصون معًا، حتى تقيأ رالف وتاندي ما شربا، فكانت الإشارة لهم بالعودة.

ثم انهمكوا جميعًا في تجهيز السفينة للغرق، وبينما هم كذلك حمل هنري رالف وألقى به في الماء ليعيده إلى الجوف، ثم عاد إلى المتن مرة أخرى دون أن يلحظه أحد، ليجد أنهم قد انتهوا من نقل الجثث، فنزل إلى الكوثلة واختار إحدى الجثث كانت لها نفس بِنية جسم رالف، وعليها ملابس مشابهة لما يرتديه رالف، ثم انتظر حتى عاد الجميع، فغطى رأس الجثة وحملها عائدًا إلى المتن، وانتظر مافي حتى انتهى من خرق السفينة وصعد، فتظاهر هنري بأنه يحاول النزول بصعوبة، وأنه لا يقدر على حمل رالف، فهرع إليه مافي وحمله عنه وقال:

- اللعنة! لماذا لم يعِده أحد معه؟ إنه مصاب بشدة
- ليس فيه رصاصات.. فقط اتركه لينام ويرتاح قليلًا

قفز مافي بالجثة إلى الماء مباشرةً دون تردد، وتظاهر هنري بأنه يتبعه، لكنه لم يفعل.

ظل متواريًا عن سور السفينة، يصغي وينتظر أن يسمع صوت نفث أو صوت اضطراب في الماء، لكنه لم يسمع شيئًا ربما لأن العاصفة كانت قد أتت بالفعل، تذكر أن السفينة ستغرق فنزل بسرعة إلى قمرة القبطان ووجدها مائلة وكل شيء فيها ليس في مكانه، بحث عن الخرائط والسجلات ودس بعضها في ردائه دون أن ينظر فيها، وأخذ يبحث عن البوصلة كثيرًا حتى بدأت المياه تغمر المكان، وجد البوصلة أخيرًا وهرع عائدًا إلى المتن.

سار حثيثًا وهو منحني واقترب من سور السفينة واختلس النظر إلى الماء، ولم يجد شيئًا، تفقد الجانب الآخر فاعتدل منتصبًا يلتفت إلى كل الجهات، ولما لم يجد ما كان يبحث عنه؛ بدأ على الفور بإنزال القارب الطويل، كانت عملية صعبة ليقوم بها وحده، لكنه أنزل القارب بعد مجهود وصعد عليه، وتوجّه به نحو اليابسة التي صارت أقل وضوحًا بعد أن بدأ المطر، وكان أمرًا يكاد يكون مستحيلًا أن يجدّف بقارب يحتاج إلى خمسة مجدّفين.

بدأ هنري يجدّف بكل قوته، وهو يلتفت كل ثانية إلى جهة مختلفة بحثًا عن أي نفث أو صوت مألوف، إلى أن بدأ الموج يعلو فنظر تلقاءه وراءه ليجد أنه على وشك الخوض في المياه الضحلة، فسمع صوت النفث فالتفت مرة أخرى أمامه، فكان أطلس بعيدًا يخترق السطح ويسبح صوبه.

كانت المياه الضحلة قريبة من تحته، مع ذلك أدركه أطلس فيها، نزع هنري المجداف وظل يضرب به على رأس أطلس ويبعده عنه، وأطلس يمسّ جانب القارب بوهن كأنه يريد أن يقلبه، لكنه لا يفعل.

حتى عَلِقَ في المياه الضحلة وانكشف نصف ظهره فوق السطح، فلم يقدر على الحركة، أو حتى أن يتراجع إلى البحر، فلم يكن منه سوى أن فتح فمه حتى صار فكه العلوي كله فوق السطح، وظل هكذا أمام القارب ينتظره أن يعود، لكنه راح يبتعد أكثر.

كف هنري عن التجديف فتولّت الأمواج نقله إلى الشاطئ، ظل ينظر إلى الفم الكبير المفتوح أمامه وهو يبتعد عنه، ربما أراد العودة والتجديف

بالاتجاه المعاكس، لكن ذراعاه كأنهما قد شُلّا، ولم يشعر بنفسه إلا عندما ارتفعت الأمواج وكادت أن تقلب القارب، حتى جاءت موجة أخيرة وقلبته بمن عليه، فتهشم القارب على الشاطئ ذو الرمال الذهبية.

وكما كانت تلك هي أول يابسة يراها منذ إثنين وأربعين سنة، كانت أيضًا أول يابسة تطأها قدمه منذ إثنين وأربعين سنة.

ظل هنري على الشاطئ حتى بدأ الجو يظلم، يجثو أمام البحر يبكي وينتحب ويصرخ، ولم يفعل غير ذلك، فلم يتحرك سواء إلى البحر أو اليابسة، إلى أن جنّ الليل واشتدت العاصفة ومطرها ورياحها.

وكفّ هنري عن البكاء فجأة، عندما لاحظ أنه لم يعد يرى أطلس، ثم ارتمى على جانبه كمن أغشيَ عليه، وبالفعل قد غاب عن الوعي، وحين استيقظ في فجر اليوم التالي كانت العاصفة قد ذهبت، ولم يبق منها إلا الرياح، فنهض وأعطى البحر ظهره، وسار في اليابسة ولم يلتفت.

الفصل الحادي عشر

"أول جندي حوّات"

(1)

كانت البوصلة غير مجدية، والخرائط كانت للمحيطات فقط، والسجلات قديمة غير ذات قيمة، سار هنري في دغل جاعلًا البحر في مرمى بصره لا يغيب عنه، ثم لم يلبث أن شعر بالجوع، بعد أن تذكر أنه أحضر كل ما ليس له فائدة، ونسيَ أهم شيء، الطعام.

شعر لذلك بالغباء أكثر من الجوع، استبد به الجوع والعطش بسرعة قبل أن تأتي عليه الظهيرة، فالتقط ما أمكنه من ثمار وأوراق، لكنها لم تكن كافية لسد جوعه، ربما لم يكن جائعًا حقًا، ربما كان ذلك علمه بأنه لم يأكل طعامًا حقيقيًا منذ سنوات، أضيف إلى ذلك صداع مقيت يصاحب شعور بالغثيان، كان من أثر الثمالة في اليوم الماضي، وممّا زاد من إعيائه أن قد انفتحت جروحه وبدأت تنزف وتؤلمه.

الغريب في الأمر أنه لم يشعر بالحزن أو المقت أو الندم على أي من ذلك، بالطبع لم يكن شعورًا مريحًا، إلا أنه كان شعورًا جميلًا، فقد شعر بأنه حي، وأنه قد عاد إنسان مرة أخرى.

أكثر ما كان يخشاه هو أن يكون قد نزل على جزيرة يسكنها آكلو لحوم البشر، لكنه أحس أنها ليست جزيرة، كما أحس أن هناك بشر متحضرين قد مروا من هنا، ثم فكر أنه إن كان أطلس يعيش في المحيط الأطلسي؛ فهذا يعني أنه في إحدى أربع قارات، أو بالقرب منها، استبعد إفريقيا ربما لأن الجو لم يكن بهذه الحرارة، واستبعد أمريكا الشمالية لأنه زار شواطئها الشرقية كلها ولم يرَ مثل الذي هو فيه الآن، ليس هناك ما يستبعد أن يكون في أوروبا أو أمريكا الجنوبية، أراد بشدة أن يستبعد أمريكا الجنوبية لأنه يعلم أن احتمال مصادفة أكلي لحوم البشر عليها كبير.

كان يسير شاردًا يضع كفه على جرح في بطنه، فلم يدرك أن الأرض صارت أكثر استواءً، أو أنه قد خرج من الدغل، وجد تلقاءه قرية كبيرة نسبيًا كانت بجانب البحر، فهرع عائدًا إلى الدغل يتوارى خلف شجرة، وبقيَ مكانه يراقب القرية ويتبين أهلها، ولم يبقَ كثيرًا حتى غابت الشمس.

تسلل إلى القرية ليلًا ودخلها خفية، اطمأن قليلًا لأن البيوت والأكواخ كانت متحضرة، كما رأى بعض الأدوات مثل القدور والأكواب والبراميل وشباك الصيد، وقف في الظلام خلف أحد البيوت وأراد أن يعبر طريقًا ليصل إلى حظيرة ليبيت فيها، لكن استوقفته رؤية ثلاثة رجال يمرّون، كانوا يلبسون مثله بل كانت ملابسهم أنظف، فزالت كل شكوكه حول هذه القرية وأهلها، وقد أصيب بالذهول عندما سمعهم يتكلمون الإسبانية.

ظل هنري مكانه يستوعب ما يسمع، حتى كادوا أن يرحلوا وصوتهم يذهب، فخرج إليهم ثم استوقفهم قائلًا:

- مهلًا أيها السادة! أعني...

قالها بالإنجليزية، فتدارك نفسه وتنحنح واستجمع عقله وقال بالإسبانية:

- اعذروني.. أريد أن أعرف... فقط... أريد مساعدتكم

قالها ورفع يده الدامية فكشف عن جرحه، وأردف:

- أتعرفون مكان لأبيت فيه؟

لم يكن يريد المساعدة أو مكان يبيت فيه، فهو لا يملك أي مال، لكنه أراد فقط أن يتكلم معهم، فرَد أحدهم بلا مبالاة كأنه لم يرَ الدماء:

- نحن ذاهبون إلى الحانة إن أردت ان ترافقنا

رافقهم هنري، وسألوه عن اسمه وتعارفوا، فقال أحدهم:

- إذًا يا بوتش!.. ما هي قصتك؟

ابتسم هنري بسخرية ولم يجِبه، فقال آخر:

- من أين أتيت إذًا يا سيد؟

قال هنري:

- لقد أتيت من البحر!

★★★

مكث هنري مع الرجال الثلاثة في الحانة، وعلموا أنه مفلس دون أن يخبرهم شيء بذلك إلا حالته والدماء على ملابسه، فعرضوا عليه الطعام والشراب، كلمهم بإسبانية لا بأس بها، كان قد تعلمها من بيدرو ودييجو طوال حياته في الجوف، وأخبرهم أنه كان حوّاتًا أمريكيًا فأعجبوا بذلك، وحكى لهم قصة خيالية عن إغراق حوت لسفينته ونجاته على قارب حتى جاء هنا، حكى ذلك بتفاصيل فصدقوه.

وفي المقابل أخبروه أنهم في البرتغال، وأنهم في هذه القرية يعملون في صيد الأسماك، والتجارة مع المدينة والقرى الأخرى، وأخبروه بشكل غير مباشر أنهم في أول العام 1841.

شرد هنري في أفكاره فلم يسمع ما قالوا بعدها، فكر أنه قد مكث في جوف أطلس مدة إثنين وأربعين سنة، وأن عمره الآن يجب أن يكون ثمانية وسبعين عام، ثم فكّر في من عاش معهم في الجوف في تلك الإثنين وأربعين سنة، وتساءل كيف هم الآن، وكيف يتعاملون مع تركه لهم وهروبه من الجوف، اشتاق إليهم فانقبض قلبه وشعر بالوحشة والوحدة بين هؤلاء الأغراب.

دعوه بعدها للمبيت في إحدى حظائر الخيل، كانت قريبة جدًا من البحر، فكان يسمع صوت الأمواج وكانت تثير رعبه، كأن إحداها ستأتي وتسحبه إلى البحر، تضاربت مشاعره بين ذلك وبين رغبته في العودة إلى الجوف، بكى ليلته هذه حتى نام على صوت الموج، وقد كان ذلك اليوم هو أطول يوم يمر عليه في حياته.

كانت الأيام تمر طويلة فبدا لهنري كل يوم كأنه سنة، آواه أهل القرية عندهم، مقابل قيامه ببعض الأعمال من حمل الأشياء الثقيلة حتى تصليح قوارب الصيد، مقابل أجرة بالكاد تكفي ثمن الخمر، كانوا يعتقدون أنه

سيفيدهم في صيد السمك بما أنه كان صيّاد حيتان، لكن مهما كانوا يلحّون عليه أن يعمل معهم في الصيد؛ فلم يكن هنري يلمس البحر أو يقترب منه أبدًا.

كان كل ليلة ينام من البكاء والثمالة، يبكي على ترك إخوانه ممن عاش معهم نصف حياته، لكن لم يبكِ على ترك الجوف نفسه، فقد كان البحر أمامه لكنه لا يمسّه.

وفي يوم بعد أكثر شهر من نزوله اليابسة مرّت سفينة تجارية من على القرية، نزل أصحابها يتزودون بالبضائع، وعرف منهم هنري أنهم ذاهبون بعد ذلك إلى بريطانيا، فعاد إليه التفكير في أوين وويليام، وفكرة البحث عنهم في بريطانيا، والسبب في هروبه أصلًا، وقد كانا أحد الأسباب الرئيسية لذلك، لأنه إلى الآن يعتقد أنهما قد هربا، وأنه لن يبقى وحيدًا إن وجدهم، ثم عرف أن الرحلة إلى بريطانيا ستستغرق أسبوعين، وأنها ستغادر بعد أربعة أيام، فكان لديه أربعة أيام ليقرر أمره.

وفي تلك الأيام بدأ شعره يتساقط عن كامل جسده حتى رموشه، فرأى نفسه قبيحًا مهما لبس قبعات تغطي رأسه الشبه صلعاء، اعتقد أنه بدأ يمرض، لكنه كان يشعر بأفضل صحة، ثم اعتقد أنه بدأ يشيخ مقدار إثنين وأربعين سنة، لكنه كان يشعر بشباب لم يعهده.

انقضت الأربعة أيام وقد قرر هنري الذهاب للبحث عن أوين وويليام، وأراد أن يفعلها بشكل صحيح هذه المرة، فدفع أجرة الرحلة، وأحضر معه بعض المتاع، وودّع بعض أهل القرية، كل ذلك لكي لا يبدو أنه هارب إلى البحر.

ركب آخر القوارب العائدة إلى السفينة وأيضًا دون أن يمس البحر، بل كان يتجنب حتى النظر إليه، تحرك القارب وهنري يغمض عينيه ويحتضن متاعه بين ذراعيه، وصل بعد ربع ساعة لكنها مرت عليه كالأبد، تسلق جانب السفينة ليسافر عليها هذه المرة، لا لكي يغرقها، وهو على استعداد لقتل نفسه إذا ما لمح عاصفة من بعيد.

★★★

وصلت السفينة إلى وجهتها في عشرة أيام فقط، كانت وجهتها الأساسية مدينة لندن، وصلوا بطبيعة الحال إلى موانئ الجنوب أولًا، يمكثون في الصغير منها يومين على الأقل، بينما الموانئ الكبيرة كانوا يقضون فيها أكثر.

ولم يفوّت هنري ميناء ولا مدينة قريبة؛ إلا وبحث فيها عن أوين وويليام، غير أنه يعلم أنهما إن كانا قد هربا فعلًا فلن يبقيا بالقرب من البحر، لكنهما بالتأكيد مرّا على أحد الموانئ، وفي أول مدينة ينزلها هنري صادف ماخور أثناء بحثه، ودفع فيه آخر ما كان معه من مال.

وقد كان مذهولًا لرؤية المدن والناس، فكان كأنه نام واستيقظ بعد إثنين وأربعين سنة، غريبًا على الزمن وغريبًا على العالم والناس، حتى أن إنجليزيته كانت مختلفة، لدرجة أن الناس لم يلحظوا أنه أمريكيًا حتى.

عمل هنري على السفينة التجارية مقابل أجر زهيد، وكل ميناء ينزل فيه يتوجه باحثًا عن الماخور يقضي فيه وطره، ومن هناك يبدأ البحث عن أوين وويليام، كان يسمع من العاهرات والبحارة السكارى حكايات عن اختفاء السفن، وقد تعجب من أن أطلس وسُكانه ما يزالون يمارسون إسقاط السفن، بعد أن هرب.

نزل هنري في كل موانئ جنوب بريطانيا وبحث فيها دون جدوى أو أي أثر ليتبعه، ثم وصل إلى لندن أخيرًا وترك السفينة مفلسًا بعد حوالي الشهرين من العمل عليها، لكنه غالبًا كان يجد عملًا بأجرة يومية تكفيه في اليوم الواحد إما ثمن الخمر، أو ثمن الطعام، وإذا أراد استئجار إحدى عاهرات الشوارع الرخيصات فعليه أن يدخر أجر يومين.

وفي يوم كان هنري مع إحدى العاهرات، انتهى منها وقبل حتى أن ترتدي ملابسها مدّت إليه كفها ليضع فيه أجرتها، فوضع فيه ما كان معه من مال، فنظرت إلى كفّها وظلت تمدّه وهي ترمقه بثبات، فزفر بسأم وقال:

- لم تكوني جيدة لهذه الدرجة!
- تبًا لك!

قالتها وقد أنزلت كفّها، وبدأت ترتدي ملابسها، فقالت أثناء ذلك:

- أتعلم؟! لهجتك تذكرني بأحدهم.. كان يدفع أفضل منك
- عمّ تتحدثين؟
- لا تهتم

قالتها وهمّت بالرحيل، فلم يهتم هنري فعلًا، لكن بعد أن فكّر في الأمر قليلًا، هرع إلى الباب وأغلقه بقوة بعد أن فتحته لكي تخرج، وقال:

- كيف تذكرك لهجتي بأحدهم؟
- ولمَ يجب أن أجيبك على أي شيء؟

قال هنري بعصبية شديدة:

- أرجوكِ! أنا فعلًا لا أملك أي مال لأدفع لكِ
- لا بأس.. اذهب إلى عملك واجنِ بعض المال، وستجدني إذا أردتني

قالتها وهي تربّت على كتفه ببرود، فتركها تخرج وذهب يجلب سكينه، ثم عاد إليها فكانت قد خرجت بالفعل، خرج وراءها وأعادها إلى الداخل من شعرها، ثم أغلق الباب وألصقها به وكتم فمها وصوب السكين إلى عينها، وهي تبكي وتنهار، لم يعبأ بذلك وقال:

- سأرفع يدي الآن، وستخبرينني عن ذلك الذي يتحدث مثلي، متى قابلتيه وأين، وكيف كان

أومأتْ في ذعر، فرفع هنري يده عن فمها ببطء، فقالت بصعوبة وهي تنشج وتلتقط أنفاسها:

- كان منذ... منذ ثلاثة أشهر تقريبًا، عندما كنت في ليفربول...
- ليفربول؟!! هل يوجد ميناء هناك؟
- بالطبع يوجد ميناء هناك
- حسنًا أكملي.. ما اسمه؟ صِفيه لي
- لا أذكر شكله حقًا ولم يخبرني باسمه، لكنه دفع لي بالذهب.. ذلك ما جعله لا يُنسى

ابتسم هنري ملء شدقيه، وعاد يقول بحماس أكبر:

- هل كان معه أحد؟
- أه نعم!! كان معه آخَر، وذلك أيضًا دفع بالذهب، كانا معروفان حينها، سمعت بعدها أنهما قد دخلا السجن، هذا كل ما أعرف.. أقسم لك

ضحك هنري ورفع السكين عنها، ثم أمسكها وقبّلها قبلة طويلة، ثم فتح لها الباب وتركها ترحل.

حزم متاعه وطلب المال من بعض الذين عمل عندهم، ووعدهم بردّه في الأيام المقبلة، ثم توجه في رحلة بريّة عبر البلد.

وصل بعد أسبوعين، ولم يتوجه إلى الماخور كعادته، بل ذهب إلى مخفر الشرطة، وسأل فيه عن اسمي أوين وويليام ووصفهما بدقة، لكن دون أن يستفيد شيئًا، بعدها ذهب إلى الميناء وسأل أصحاب المتاجر والبحارة، ثم ذهب إلى الماخور، وهناك كانوا يذكرون الرجلين اللذين كانا يدفعان للعاهرات بالذهب وأنهما دخلا السجن.

غير ذلك أخبره البعض أنهما عادا من حيث أتيا، وآخرون قالوا أنهما قد أعدما في السجن، وآخرون أخبروه أنهما ذهبا في رحلة تحويت، وأضاف هنري إلى نفسه أنهما عادا إلى الجوف.



ظل يبحث لخمسة أشهر أخرى، لكن فشلت جميع محاولاته في البحث عن صديقيه أو أحدهما، وقد يئس وتعب من ذلك، وأيقن بعدها أنه وحيدًا سواء أكانا في بريطانيا أم عادا في الجوف.

أراد حقًا أن يستقر على حاله، لكنه لم يكن يشعر بالألفة في هذه البلد ولا لأهلها، وقد بدأت حياته تشبه تلك التي كانت قبل الجوف، ذلك مما جعله يندم على ترك الجوف، لكن دون ان يصارح نفسه بذلك.

حتى قرر الرحيل عن بريطانيا إلى أمريكا، مسقط رأسه، بحثًا عن مكان لا يشعر فيه بالوحدة، فانتظر أول سفينة راحلة إلى أمريكا، وجمع حاجياته القليلة، وودع بعض الرجال، ودفع أجرة الرحلة، كانت مخاطر الرحلة أنه سيعبر الأطلسي من شرقه إلى غربه في مدة أقصاها شهرين، لم يعد هنري يهتم بذلك، فركب السفينة وهو لا يزال عند وعده لنفسه بأن ينهي حياته إذا ما لمح العاصفة من بعيد.

طوال الرحلة لم تصادف السفينة أية عاصفة، فقط أمطار خفيفة، وكانت الرياح جيدة في معظم الوقت، فتوقع البحارة أنهم سيصلون وجهتهم أقرب من الوقت المحدد، وبالفعل أخبرهم القبطان أنهم سيصلون بعد أيام قليلة.

في تلك الأيام كان البحارة يتحلقون في عنبرهم يتكلمون ويغنون، وهنري خارج الحلقة لا يختلط معهم أو يشاركهم أحاديثهم، حتى سمعهم في مرة يتحدثون عن الحظ السعيد في تلك الرحلة، وأنهم لم يصادفوا عواصف، وكم أن ذلك شيء غريب لم يحدث من قبل، فانتبه هنري حين قال أحدهم:

- ومن حسن طالعنا أننا لم نصادف سُكان المحيط

ارتفعت غمغمة موافقة من بقية البحارة، فاعتدل واقترب من الحلقة وقال:

- ماذا قلتَ للتو؟

نظر الرجل يتفحصه أولًا، ثم إلى رفاقه متعجبًا، ثم عاد إلى هنري وقال بنبرة غامضة وضوء المصباح على نصف وجهه:

- سُكان المحيط.. ألم تسمع عنهم من قبل؟! إنهم البحارة الغرقى الذين لم يتزوجوا...

قاطعه آخر:

- بل إنهم الحوريات...

وأضاف آخر:

- بل إنها حيتان تتحول إلى بشر...

عاد الأول يقول:

- أيًا كان.. لم يرَهم أحد وعاش ليخبر عنهم.. لكنهم هناك، ربما هم أسفل هذه السفينة الآن، لا يهجمون على سفينة عليها بحار مستيقظ، يتحينون الفرصة لينام جميع البحارة، فلا يتركون على السفينة من حي، لا يهم كم قتلتهم فجروحهم تلتئم ما أن يعودوا إلى البحر، ثم يربطون البحارة بالحبال من أرجلهم بسور السفينة، حتى إذا أغرقوها جذبتهم معها

كان هنري متأكدًا أن هذا الرجل قد ألّف هذه القصة للتو بينما كان يحكيها، وتعجب من صحة بعض الأشياء في هذه الأسطورة، وقال مدعيًا الاهتمام:

- لكنني سمعت أنها سفن التحويت فقط هي ما تختفي
- ليست سفن التحويت فقط، لكنها الأكثر، وخاصةً في الهادي...
- الهادي؟!! هل يحدث ذلك في المحيط الهادي أيضًا؟!!
- نعم، والهندي كذلك
- أعلم بشأن الهندي، لكن لم أسمع من قبل أن ذلك يحدث في الهادي

فكر هنري حينها أن أطلس قد رحل ليعيش في المحيط الهادي، أو إنه نون يقوم بكلي المحيطين الهندي والهادي، شغله الأمر كثيرًا، وأن الناس بدأوا يلاحظون اختفاء السفن، ويضعون نظرياتهم الخاصة حول ذلك، ولم

يعرف كيف سيتقبلون إذا أخبرهم أن بشرًا يعيشون في بطون الحيتان هم من يغرقون سفن التحويت.

وقبل أن يدرك الأمر وجد نفسه في أمريكا، ولسخرية القدر وجد نفسه في جزيرة التحويت، جزيرة نانتوكيت.



كانت نانتوكيت أول محطة، علم هنري أن المحطة التالية هي نيويورك، والتي كانت آخر مكان في العالم يريد الذهاب إليه، ففضّل البقاء في نانتوكيت وربما الاستقرار فيها، وربما مزاولة مهنته القديمة.

علم في أيامه الأولى أن مدينة نانتوكيت وميناءها قد أصبح من أهم موانئ التحويت في العالم كله، كما علم مدى استياء الناس من فقدان أقربائهم وأحبائهم في البحر، ومدى غضب أصحاب السفن من اختفاءات سفنهم في المحيطات الثلاثة، وعلم أن تلك الاختفاءات في الهادي أكثر من غيره، فكان ذلك مما زاد من تعجبه، ومما جعله يتردد عن فكرة مزاولة مهنته القديمة.

فبقيَ بعدها في الميناء يعمل في كل ما يجيد عمله، والذي كان الكثير، فكان يعمل في ترميم السفن، وإصلاح القوارب، وصناعة البراميل والحبال، وخياطة الأشرعة، وحدادة الحراب والأسلحة، وتحميل السفن، كل ذلك ساعده على الاستقرار في المكان، لكن في الصباح فقط، وبالليل كان ينسى نفسه في الحانات مع العاهرات والخمر الذي كان كالماء.

وفي صباح يوم عادي كان هنري في ساحة الميناء يصلح قاربًا، عندما شعر بأحد يقف أمامه، لم يعبأ به حتى قال:

- فلتحل بي اللعنة!...

رفع هنري رأسه عن عمله، فوجده رجلًا عجوزًا في عقده الثامن وربما أكبر، كان يحدق في عينيه مباشرةً بدهشة وذعر، لم يهتم هنري لذلك أيضًا، ثم أردف الرجل العجوز:

- إن لم تكن أنت هو... فأنت تشبهه كثيرًا!...

انتبه هنري لذلك وتوقف عما يفعل وقال:

- هل أعرفك؟
- هنري؟.. هل هذا أنت؟ إنه... إنه أنا.. هُويت!

فقد هنري النطق وظل يحدق فيه، قبل أن يتأكد أن ذلك هو اسمه الحقيقي، وأدرك أن عمر ذلك العجوز أربعة وسبعين عامًا تحديدًا، ثم أردف الرجل:

- لا، أنت لستَ هو.. أخي هنري مات من أربعين سنة

قال ذلك، وابتعد يكلم نفسه.

لم يتوقع أن يصادف أحدًا من ماضيه، انعقد لسانه وشُلّ جسده، أراد أن يوقفه ويخبره أنه لم يمُت، لكن كان عليه أن يبرر ذلك بأنه كان يعيش في جوف حوت لأربعين سنة لا يشيخ، كيف يصدق أحد شيء كهذا؟.

وإذ لم تكن ثلاث وأربعون سنة في جوف حوت كافية لكي ينسى الست وثلاثين التي قبلها؛ فقد لجأ هنري إلى الوسيلة المؤقتة لكنها الأسرع للنسيان.

فذهب في ليلته هذه إلى حانة "الحوت الخاطئ"، وثمل حتى لم يعد يرى أمامه، لكن كان يسمع كل شيء يصدر صوتًا من حوله، كان جالسًا وحده يستمع إلى ثرثرة البحارة ويصغي لهم، وهم يتكلمون عن الشيء الذي يتكلم عنه كل المدينة وقد سمعه كثيرًا، ألا وهو اختفاءات سفن التحويت في المحيطات، وأدلى كلٌّ بدلوه:

- ألا يمكن أن تكون العواصف فحسب؟ تُغرق العواصف السفن منذ أن صنعها الإنسان
- أيها الغبي! وكيف للعواصف أن تميز الحوّاتات عن السفن الأخرى؟!
- إن قال أحد أنهم القراصنة فسأدق عنقه
- ولمَ لا؟ تُعدّ الحوّاتات كنزًا بالنسبة للقراصنة، وربما أصبح القراصنة أكثر بطشًا وتوحشًا
- ما يحدث أكبر بكثير من مقدرة القراصنة، صدقوني إنها الحيتان
- وكيف للحيتان أن تميز الحوّاتات؟
- لا أدري.. ربما لأنها تحاول قتلها أيها النبيه!
- القوارب هي ما تحاول قتلها، لذلك تهاجم الحيتان القوارب وليس السفن
- ألا تذكر الإيسكس وما حدث منذ عشرين سنة؟
- هل تصدق أن ذلك حدث فعلًا؟
- حتى وإن حدث فعلًا، فتلك كانت حادثة واحدة، كما أن هناك ناجين منها نعرفهم، لكن الاختفاءات التي نتحدث عنها ليس منها ناجين.. فقط حطام
- أتعلمون.. أيًا كان ذلك الشيء اللعين الذي يحدث.. فقد اكتفيت بالفعل، لن أذهب في رحلتي القادمة
- نعم! من اليوم أنا لستُ حوّاتًا
- نعم!
- نعم! لم ولن يجعلنا التحويت أغنياء على كل حال
- أفضّل أن أكون فقيرًا بين أهلي على أن أرحل وأتركهم للأبد
- ولِمَ لا تكون الحيتان والعواصف والقراصنة وقلة كفاءة القباطنة ورداءة صناعة السفن، لِمَ يجب أن يكون هناك سبب، كما أن الحوّاتات ما تزال تعود بمخازن ممتلئة، وما تزال أكثر من الحوّاتات التي لا تعود

قال ذلك رجل كان قريبًا من هنري، الذي كان قد ضاق بهم ذرعًا، وقد أفسدوا عليه سلامه مع خمره، ودون أن يلتفت هنري إلى ذلك الرجل؛ وجد نفسه يقول وهو ينظر إلى كأسه في شرود:

- وماذا إن لم يكن أي من ذلك؟!...

والتفت إلى الرجل ليجده ينظر إليه باهتمام فأردف:

- ماذا إن كان هناك رجال يعيشون في الحيتان كما فعل يونس من قبل؟

كان هنري ثملًا حتى النخاع، لكن لم يبدُ ذلك على وجهه أو في صوته، دوّر جسده ليواجه كل من في الحانة، ليجدهم جميعًا صامتين ينظرون إليه باهتمام، فأردف:

- ماذا إن كانوا يَخرُجون من أجواف الحيتان ليقتلوا الحوّاتين ويغرقوا الحوّاتات؟.. تفتح هذه الحيتان أفواهها تحت السفن لتُخرِج سُكان أجوافها ليقوموا بالعمل القذر عنها

قال رجل بسخرية:

- لقد فتحت بطن ألف حوت من قبل.. ولم أجد أحدًا في الداخل

لم يضحك أحد، وترقب الرجل الإجابة من هنري بقلق، فتوجه هنري إليه، وقال بنبرة غامضة جعلته مخيفًا:

- إن حيتان يونس أذكي من أن تدعك تراها، ناهيك عن اصطيادها، إذا نظرت من جانب السفينة ورأيت أحدهم...

شعر هنري بأحد يرفع قبعته التي لم يكن يخلعها عن رأسه؛ ليكشف عن صلعته، فالتفت إليه هنري قبل أن يفعل، وقال له:

- إذا نظرت من جانب السفينة ورأيت أحدهم؛ فاعلم أن سُكانه يصعدون من الجانب الآخر ليقتلوك

ثم التفت عنه إلى البقية، وقال كمن يعظ:

- سُكان الأجواف مسلّحون بنفس الحراب التي تستخدمونها في قتل الحيتان، لكنهم يستخدمونها في قتل الحوّاتين، ومن ثم يعودون إلى جوف حوتهم، سُكان الأجواف عيونهم صفراء تلمع بالنهار كما بالليل، لا يشيخون ولا يجوعون أو يظمؤون، غير ذلك فهم رجال عاديّون مثلنا...

شعر هنري بالغثيان فخرج من الحانة تاركًا الناس مذهولين، وخرج ليفرغ ما في معدته.



(2)

لم يكن هنري يذكر نصف ما قال في ليلته الماضية في حانة الحوت الخاطئ، لكنه علم أنه قال أشياء لا ينبغي أن تُقال، لكن ما قيل لم يكن ليصدقه عاقل فلم يعبأ على كل حال.

لاحظ في يومه أثناء عمله بعض الناس يحدقون به، ويلمزون بعضهم ويشيرون نحوه، رأى إثنين يحملقان فيه ويراقبانه، وبدا أحدهما مألوفًا على نحو غريب، لم يعبأ بذلك ولا بأي شيء، وأنهى عمله كالمعتاد، وتوجه إلى حانة الحوت الخاطئ كالمعتاد.

لم يلاحظ كم أن المكان مكتظ على نحو خانق إلا بعد أن وصل إلى البار، كما لاحظ أن الضوضاء كانت تخفت حتى هدأت وصارت همسًا عندما وقف أمام البار، طلب البيرة الرخيصة كالمعتاد، فقدم له صاحب الحانة نوع من المزر الغالي، وقال:

- على حساب المحل!

تعجب هنري لذلك فصاحِب هذه الحانة لم يكلمه من قبل، فحيّاه بأن رفع كوبه وهو ينظر إليه باستغراب، وأخذ يشرب وهو لا يزال يشعر بعدم

الراحة من ذلك السكوت في المكان رغم ازدحامه، تفقد يمينه ويساره ليجد بجانبه الرجل المألوف وصاحبه اللذين رآهما صباحًا، وأدرك حينها أنه من حاول رفع قبعته في الليلة الماضية، ولاحظ هذه المرة أنه يعتمر قبعة تخفي صلعه وأن ليس في وجهه أي شعر.

- إذًا أيها السيد! لم لا تكمل كلامك عن حيتان يونس

جاء ذلك من خلفه، لم يكن هنري منتبهًا لدرجة أنه لم يسمعه، حتى وكزه الرجل الأصلع، فالتفت إليه فأشار وراءه ليلتفت هنري كله ويجد جميع من في المكان ينظرون إليه، وقال له أحدهم:

- أخبرنا المزيد عن حيتان يونس
- مَن؟!!

ذكّرته تلك الكلمة بكل ما كان قد نسيَ من ليلة البارحة، وقد تعجب من نفسه لا يعلم من أين أتى بها أصلًا، وإذ لم يكن هناك ما يقال أسوأ ممّا قد قيل بالفعل؛ قال هنري للرجل بعد مدة:

- وماذا تريد أن تعرف؟

قال رجل آخر:

- لمَ لا تبدأ بكيفية علمك بكل ذلك؟

أنهى هنري كأسه، وارتأى أن الأمر سيكون ممتعًا، فقال بحيث يسمعه كل من في المكان:

- هذا لأني نجوت من إحدى هجماتهم...

ازداد الصمت صمتًا، وبدا لهنري أن كلماته تلك قد سحرت الناس وأخذت عقولهم وأعطته كامل اهتمامهم، تمكن من كبح ضحكاته بصعوبة، وأردف بالنبرة الغامضة التي تستخدم في حكي الحكايات:

- كنا على وشك إنزال القوارب لمطاردة قطيع من حيتان العنبر، عندما وجدنا بيننا رجالًا ليسوا منّا، بدأوا في تقتيلنا دون سابق إنذار، كانوا

نصف عددنا تقريبًا، كانوا مسلحين ومستعدين لذلك، قاتلناهم بشجاعة لكن المفاجأة والصدمة جعلتنا نخسر، قاتلتهم بضراوة حتى بقيت أخيرًا، وقتلتُ منهم لكن بدا أنهم لا يهتمون بمن مات منهم، قرروا ألا يقتلوني وربطوني في الصاري ثم خرقوا السفينة، وبينما أنا مربوط في الصاري حكى لي أحدهم الآتي...

نظر في عين كل واحد منهم ليجدها تلتمع من الإثارة، وأردف:

- كان يونس أول إنسان يعيش في بطن حوت، لا يهم ما فعل على اليابسة.. لكنه لجأ إلى البحر هربًا من ذلك الذي فعل، أول ما ركب السفينة بحث عنه كل حوت لديه القدرة على الاحتفاظ بالبشر في بطنه، حتى وجده أحدهم، ومعه جاءت العاصفة لتغرقه وتسلمه لذلك الحوت، كان يونس نبي صالح فتاب وخرج بعد أيام، كلنا نعرف هذه القصة، لكن من بعد يونس لم يكف الناس عن الهرب إلى البحر من آثامهم، فلم تكف الحيتان عن حبسهم في أجوافها، كان منهم الصالحون الذين تابوا فأفرجت عنهم الحيتان، كما كان منهم المجرمون الذين لا يزالون في بطون الحيتان ربما من مئات السنين وحتى يومنا هذا.. ومثل البشر فإن من حيتان يونس الصالحين ومنهم المجرمين، وحين يجتمع المجرمون من البشر في جوف حوت مجرم... فستختفي سُفن التحويت بشكل غامض في المحيط

خرج بعض الناس من الحانة، وبعضهم بقيَ يبكي، وآخرون يمسكون برؤوسهم كأنهم سيغشى عليهم، لم يلقِ هنري باله لأي من ذلك، وأكمل كلامه:

- هذا ما أخبرني السُكان من أحد حيتان يونس المجرمين، وتركوني على السفينة لأغرق معها وعادوا إلى الجوف... أعني إلى حوتهم، الذي لم أرَ له مثيل في حياتي، كان أطول وأضخم من السفينة، شاحبًا لدرجة البياض، له زفرة تصل أعلى من الصاري، وجدته يفتح فمه

على اتساعه ورأيت بعيني سُكانه وهم يغيبون داخل فمه ثم أطبقه عليهم وغاص

سار هنري إلى باب الحانة، وأردف بتأثر مبتذل:

- ثم حررت نفسي ونجوت وحدي.. عمتم مساءً!

خرج بسرعة وابتعد كفاية ليُخرِج ما كان يكتم من الضحك، لم يكن يدرك مدى موهبته في اختلاق الحكايات مثلما يفعل البحارة، ولم يكن يدرك أنهم سيتقبلون الأمر بتلك الطريقة، وبالطبع لم يكن يدرك عواقب أي من ذلك.

لم يبتعد هنري كثيرًا حتى دخل زقاق مظلم، والتفت بعصبية عندما سمع صوتًا يقول:

- ربما قد خدعت هؤلاء الأغبياء لكنك لم تخدعنا.. نحن نعلم من أنت

أشهَر سكينه وقال بعد محاولة رؤية المتكلم:

- إن كنتَ تعلم من أنا حقًا فعليك أن تهرب بينما يمكنك
- لا تقلق! لا نريد أذًى، نعلم أنك عشتَ في جوف حوت.. ونحن أيضًا



أخفض هنري ذراعه من الدهشة، واقترب أكثر ليتبين المتكلمَين، فوجدهما الرجلين الصُّلع اللذين كانا يراقبانه وكانا معه في الحانة، أحدهما كان يعتمر قبعة طويلة يبدو في سن هنري، والآخر لا يخفي صلعته ويبدو عجوزًا بعض الشيء، اقترب العجوز وقال:

- نعلم أن كل ما قلته في الحانة كان هراءً، نريد فقط أن تخبرنا الحقيقة.. أخبرنا كيف هربتَ
- لن أخبركم... مهلًا! من قال أني هربت؟
- وهل تُبتَ؟ تلك ليست صلعة تائب

قال الآخَر:

- أم قتلتَ الحوت؟

قال هنري وقد أعاد سكينه إلى جيبه:

- أوه! لا، لقد هربتُ فحسب!

اقترب العجوز ومدّ يده ليصافحه قائلًا:

- جون!
- بوتش!

صافحه الشاب بحماس:

- شادويك.. جورج شادويك! حسنًا يا بوتش.. لمَ لا ترافقنا سندعوك للشراب، ونخبرك بكل شيء عنا.. وستخبرنا بكل شيء عنك

رافقهما هنري ويده قريبة من سكينه تحسبًا، وأثناء سيرهم قال جون:

- باختصار يا سيد بوتش.. أنا وشادويك وخمسة آخرين كنا نعيش في جوف حوت أحدب اسمه جاسكونيوس، ربما كان جاسكونيوس أسوأ حوت يمكنك أن تعيش في جوفه، كان متقلب المزاج لحد يجعله مميتًا، انتحر أحدنا بعد سنتين من غرقه، وربما كان جوفه هو أسوأ مكان في العالم، كان جحيمًا أثناء اليقظة، وكنا نخشى النوم من هول ما نرى في الأحلام، وفي بعض الأحيان عندما تكون الأجواء هادئة كان يكلمنا ويحكي لنا عن الأمور المروعة التي يعرفها، وعن حقيقة الحياة في جوف حوت وكل تلك الأمور، كما كان يخبرنا أنه لن يخرجنا من جوفه حتى وإن تُبنا، لكن في ذلك اليوم منذ تسع سنوات؛ اضطرب الجوف وكان الجو لا يطاق وهو يصم آذاننا بصراخه، لم نعرف ما يحدث حتى نمنا، لنعرف أنه أصيب بحربة، أمَرَنا لنخرج وننزع الحربة من ظهره، لكننا بدلًا من ذلك غرسناها لتقتله، قتل إثنين في أثناء ثورته، ونجا منا أربعة، مات الاثنان الآخران ميتات طبيعية بسبب الشيخوخة، وبقيتُ أنا وشادويك

أنهى الكلام عندما وصلوا إلى حانة أخرى هادئة، فقال هنري بعدما جلسوا:

- اللعنة! أعتقد أني كنت محظوظًا لعيشي في جوف أطلس، لكن أطلس كان أسوأ بطريقة أخرى...

حكى هنري عن حياته في جوف أطلس حتى مجيئه إلى نانتوكيت، محافظًا على العهد الذي قطعه سُكان أطلس على أنفسهم بألا يخبروا عن حياتهم قبل غرقهم، لكنه بدلًا من أن يخبرهما أنها كانت إثنين وأربعين سنة؛ أخبرهم أنها كانت ثلاث فقط، ليدعم قصته التي كان فيها بطلًا يأبى قتل الحوّاتين، غير ذلك فقد أخبرهم الحقيقة عن أشياء كثيرة تخص أطلس وسُكانه وطبيعة الحياة في جوفه.

قال شادويك:

- حسنًا هناك أطلس في الأطلسي ونون في الهندي.. ماذا عن الهادي وما يحدث فيه؟
- لا أدري.. ربما هو أطلس أو نون أو كلاهما، أو هو حوت آخَر

قال جون:

- إذًا سُكان أطلس يحبون أطلس لدرجة تجعلهم يَقتُلون من أجله؟.. بل ويُقتَلون أيضًا!
- نعم، كما أنهم يعتقدون أن هذه هي الطريقة الوحيدة للموت، الذي يتمنونه بشدة
- كم عددهم؟
- كانوا عشرة عندما تركتهم، ويسكن جوف نون أكثر من عشرين رجلًا

نظر جون إلى شادويك كأنه ينتظر منه أن يخبره بشيء، فأومأ شادويك فعاد جون يقول لهنري:

- حسنًا يا بوتش.. نحن نعتقد أن حيتان يونس كما تسميهم؛ هم حيتان عادية، تتنفس وتعيش مثل الحيتان العادية، كما أنها تموت وتُقتل مثل

الحيتان العادية، حاولنا من قبل البحث عنهم للقضاء عليهم وتحرير سجنائهم، لكن لم نكن نعرف كيف نجدهم، لكن يبدو أنك تعرف أين هم وكيف تجد أحدهم، يبدو أنك تعرف كيف تجري الأمور

قال شادويك:

- في الحقيقة نحن نريد مساعدتك في القضاء على حيتان يونس، إن لم يكن ذلك فقتل أطلس ونون

ظل هنري يحدجهم لفترة، ثم ابتلع ريقه وهو يفكر أولًا في كيفية فعل ذلك، وهل يريد ذلك أصلًا؟، كان متردّدًا لكنه قال بجدية:

- لن تجد حيتان يونس ما داموا لا يريدون أن يجدهم أحد، لكن أطلس أو نون فهؤلاء لن تجدهم ما لم يجدوك
- هذا عظيم! ما علينا إلا أن ننتظر على إحدى الحوّاتات حتى يجدنا، أخبرنا كيف يتم اختيار الحوّاتات؟
- أطلس هو من كان يفعل، أظن أن ذلك كان يتم بعشوائية مطلقة، اللعنة! الأمر ليس بهذه البساطة، فحتى إن وجدوك فعليك أن تتعامل مع رجال أشداء مسلحين ومدرّبين، سيفاجئونك مهما توقعتهم وكنت مستعدًا لهم

قال جون:

- اللعنة على ذلك! لن ينفع ثلاث رجال فقط...
- كما لن ينفع ثلاثين
- حسنًا سنتدبر أمرنا فيما بعد، لمَ لا تبيتَ عندنا الليلة يا بوتش؟

وافق هنري على العرض ورافقهما إلى حيث يعيشان، ثم سأل شادويك أثناء سيرهم:

- ما أمر العيون الصفراء التي أخبرت عنها الليلة الماضية؟
- عمّ تتحدث؟

علم هنري عما يتحدث لكنه لم يُرِد الحديث عنه، فغيّر الموضوع وسأله:

- كم عمركما الآن؟ وكم كان حين غرقتما؟ وكم مكثتم في جوف جاسكونيوس؟

أجاب شادويك:

- كنت في السادسة عشر عندما غرقت، وعشتُ في جوف جاسكونيوس لسبعة أعوام، وكان ذلك منذ تسعة أعوام أخرى، إذًا...
- مهلًا! إن كنتَ غرقت في عمر السادسة عشر.. لمَ تبدو في الأربعين إذًا؟
- أه! نعتقد أن هذا لأن جاسكونيوس قد مات، الأمر كأن لعنة الخلود قد رُفِعَت من علينا فصرنا نشيخ أسرع، كبرتُ في تسع سنوات ما يعادل عشرين سنة، كما حدث نفس الشيء مع جون والآخرين
- إذًا يجب أن يموت الحوت الذي عشتَ في جوفه لكي تموت أنتَ؟ إذًا بما أن أطلس لا يزال حيًا فأنا لا زلتُ لن أشيخ؟!!
- نعم، هذا ما نعتقد

★★★

مكث هنري في مسكن شادويك وجون لبضعة أيام، يذهب إلى الميناء في الصباح، لكنه لم يذهب إلى الحانات ليلًا كما اعتاد، لكي لا يضطر لحكي الحكايات للبحارة الخائفين، فكان يكتفي باحتساء الخمر وحده في مسكنه، كان في أثناء عمله يشعر بأن كل الناس تنظر إليه وتشير عليه، منهم البحارة والنساء والأطفال، ومنهم السادة ذوو القبعات الطويلة والملابس الغالية.

وجاءته الأخبار من جون وشادويك أنه صار حديث المدينة كلها، فقد كان الحوّات الذي نجا من إحدى هجمات حيتان يونس، لم يمانع هنري أن يُعجَب بنفسه رغم مقته لذلك، وكان يصادفه يوميًا أثناء عمله رجالًا وكثير من النساء مع أطفالهن، يبكون بين يديه وهم يخبرونه أن إخوانهم أو أبنائهم أو

أزواجهن؛ قد خرجوا في رحلة تحويت منذ خمس سنوات ومنذ عشرة وبعضهم منذ ثلاثين سنة، قرر هنري أن يستمع إليهم ويلعب دور المهتم وهو يخبرهم بأسف أن أحبائهم قد راحوا بسبب حيتان يونس وسُكانهم، وبعضهم كانوا يعطونه المال، وكان يزوره بعض القساوسة يستفسرون منه عن يونس وبعض الأمور الدينية، ويعارضونه ويتهمونه بالهرطقة والجنون.

ازدادت غرابة الأخبار التي يأتي بها جون وشادويك، فقد كانت عن أن شركات التحويت وأصحاب السُفن بدأوا يسمعون عن الرجل الذي يدعي أن البشر يعيشون في أجواف الحيتان، سأل هنري بغرور ولا مبالاة:

- وماذا في ذلك؟! دعهم يتحدثون

قال شادويك:

- هؤلاء لا يتحدثون يا بوتش.. هؤلاء الرجال خطرون إذا تعرض شيء لمصالحهم وأعمالهم، وقولك للناس أن ذويهم الذين في البحر الآن ربما لن يعودوا؛ بمثابة ضربة في صناعة التحويت على هذه الجزيرة، بدأ الحوّاتون يعتزلون ويتراجعون عن عقودهم بالعمل على الحوّاتات، والبعض يغادرون الجزيرة كلها

قال جون الذي كان كثير السكوت والشرود:

- باختصار يا بوتش.. سيقتلك أصحاب السفن إذا تضررت مصالحهم بسببك، بدأوا بنشر القساوسة لتكذيب ما تقول، ويبدوا أنهم لا ينجحون...
- تبًا لهم جميعًا! أريد أن يقترب مني أحدهم لكي أجعله عبرة
- ما أريد ان أخبرك هو أنه يمكننا استغلال ذلك لصالحنا ولصالح قضيتنا
- قضيتنا؟!
- فكر في الأمر! الناس معك وتصدقك، يمكنك أن تحصد كثير من المتعاطفين مع قضيتنا، يمكنك بسهولة أن تجمع هؤلاء الحوّاتين

الخائفين في صفّك، ويمكنهم أن يساعدونا في القضاء على حيتان يونس إذا علموا أن ذلك هو ما تريد

- وكيف تريد أن تجمع هؤلاء الحوّاتين الخائفين؟
- لن أفعل أنا.. بل أنتَ

في اليوم التالي نشر شادويك بين أهل المدينة أن هنري سيكون حاضرًا في حانة الحوت الخاطئ هذه الليلة، تحضّر هنري لذلك ولم يذهب إلى الميناء هذا اليوم، وقد توجه مع جون وشادويك إلى الحانة دون أن يعرف ماذا عليه أن يفعل حقًا.

تقع حانة الحوت الخاطئ في أحد الشوارع الصغيرة المتفرعة من الشارع الرئيسي الكبير في المدينة، ولم يكن لها مرتادين كُثُر لردائتها وبعدها عن الميناء، لكن في ذلك اليوم كان الشارع مزدحم أمام باب الحانة، وقد وضعت بعض الطاولات في الخارج، تقدم شادويك الطريق يفسح بين الناس حتى وصل باب الحانة الذي كان يقف عليه حارس لا يُدخل أحد، لكنه فتح الباب وهو ينحني لشادويك أول ما رآه، فدخل وتبعه هنري ثم جون.

لم يكن هناك كرسي خالي في المكان، لاحظوا بعض النساء، وبعض الرجال من الطبقة العليا، والأطفال يشاهدون من الخارج عبر النوافذ، توجهوا إلى البار أولًا لكن صاحب الحانة أخذهم إلى طاولة بثلاثة كراسي في ركن مضيء من المكان، ثم قدم إليهم زجاجة من الخمر الفاخر، كان هنري يعطي ظهره للمكان لكنه كان يشعر بنظرات الناس تخترقه، ويسمع همهماتهم التي صارت خافتة، أنهى كأسين وأراد البدء في الثالث لكن استوقفه جون وأومأ لشادويك، في إشارة ليشرع فيما أتوا هنا لفعله، فوقف شادويك فاختفت الهمهمات إلا من الهمس، ثم صفق بيديه ليختفي الهمس أيضًا وقال:

- حسنًا أيها القوم! أعلم أنكم قد سمعتم الكثير من الحكايات والإشاعات في الأيام الماضية، حتى لم تعودوا تميزون الحكاية عن الحقيقة، لا

يعرف أحد في هذه المدينة حقيقة الأمور مثل السيد بوتش، وهو معكم الليلة ليخبركم بها كاملة.. والتي لا أشك أنا في صحتها

بدا لهنري أن شادويك يجيد الخطابات أفضل منه، ففكر أنه يجب أن يكون هو من يفعل ذلك، لكنه قام بعد أن تراجع شادويك وبدأ يقول:

- لا بد من أنكم خائفون.. لكم كل الحق في ذلك، فالحقيقة يشيب لها الرأس بالفعل، لكن إن كنتم تخافون من أن يبتلعكم حوت فلا داعي للقلق، فهذا لن يحدث ما دمتم أسوياء شرفاء لا تهربون من أخطائكم، وإن كنتم أيها الحوّاتين خائفين من سُكان الأجواف، فأنتم أغبياء حقًا، ألستم أنتم من تقتلون الحيتان؟ تلك الوحوش الضخمة التي بإمكانها الفتك بكم في ضربة ذيل؟! لديكم الشجاعة لقتل حوت، فكيف إذًا تخافون من بشر عاديين؟! نعم إنهم بشر عاديّون مثلنا ويموتون مثلنا...

قاطعته امرأة كانت جالسة ترتدي الأسود ووجهها مبتل بالدموع:

- أرجوك يا سيد! اخبرنا ماذا نفعل، ما يزال أبناؤنا في البحر، وزوجي لم يرجع منذ عشر سنوات...

بدأت تبكي، وأكمل هنري كأنه لم يسمعها:

- لا يمكننا فعل شيء حيال ما قد حدث، لكن ربما يمكننا أن نتدارك الذين في البحر الآن ونساعدهم، كما يمكننا أن نجعل البحر آمَن من أجل أبناءنا من بعدنا...

نهض رجل بعصبية يبدو عليه الثراء، وقال بانفعال:

- لا أصدق أنكم تصدقون هذا الخرِف! ليس هناك في البحر ما يدعو للقلق إلا الحيتان والعواصف والقراصنة، تلك أشياء تحدث باستمرار.. لِمَ تتعجبون منها الآن؟!! إن لم يكن ذلك ما يجعلكم لا تريدون العودة إلى البحر؛ فلا يجب أن يكون رجال يعيشون في بطن حوت!!!

رَد عليه شادويك:

- سيد إندربي! لِمَ لا تجلس وتصمت؟، وسنتولى عنك مشكلة البحارة التي تواجهك

قال رجل آخر يبدو بحّارًا:

- ألم تفقد إحدى حوّاتاتك بالفعل يا سيد إندربي؟! لا تكذب على نفسك وتقول أنها العاصفة

وقال آخَر:

- لمَ يعنيك الأمر؟ أنت لا تهتم بالبحارة على أي حال، لَمْ تهتم عندما عادت إحدى سفنك ينقصها ثلاثة بحارة قتلهم الحيتان

عاد الرجل يجلس مكانه ووجهه محتقن من الغيظ، وعاد هنري يقول:

- السيد المحترم لديه الحق فيما يقول، إن التحويت في دمائنا، وليس هناك شيء يمكنه تغيير ذلك، ولا يجب أن يكون ترك التحويت والبحر خيارًا لنا نحن الحوّاتين

ارتفعت هتافات من بعض الجالسين وقال أحدهم بحماس:

- نحن معك يا سيد بوتش! فقط أخبرنا ماذا علينا أن نفعل
- يجب أن نعود إلى البحر إذا أردنا ان نحافظ على أبنائنا ولقمة عيشنا، سنعود إلى البحر ونقتل حيتان يونس وساكني أجوافهم

ارتفعت صيحات أعلى، وتحرك هنري وسار بين الجالسين وهم يتتبعونه بأنظارهم كالمسحورين، وهو يقول بحماس أكبر:

- عليك أن تكون حوّاتًا لكي تقتل الحيتان، لكن عليك أن تكون جنديًا لتقتل البشر، إذا أردتم العودة إلى مهنتكم التي ولدتم لفعلها، إذا أردتم أن تنقذوا أنفسكم وأبناءكم الذين في البحر، إذا أردتم أن تنتقموا لمن لم يعُد من أحبائكم؛ فلن ينفعكم أن تكونوا حوّاتين فقط، بل يجب أن تكونوا جنودًا حوّاتين

قال هنري ذلك بحماس شديد لينفجر المكان بالصيحات والهتافات، وأردف بعد أن هدأوا:

- سأكون أنا أول جندي حوّات، إن أردتم الانضمام لي فسأعلّمكم كيف تقتلون البشر كما تقتلون الحيتان

وراح الناس يصفقون ويرفعون أصواتهم بالهتافات والدعوات وبعض البكاء، نظر هنري إلى الطاولة حيث كان يجلس ليجد شادويك يصفق مع الناس، وبجانبه جون يرفع إليه كأسه وهو يبتسم.



في الأيام التالية حدثت أمور كثيرة وبسرعة، فقد وجد هنري نفسه قائدًا لما يسمى بالجند الحوّاتين، كانت أشبه بطائفة أو حزب أو رابطة، أيًا كان ما تسمى فقد كانت تتكون في معظمها من حوّاتين نانتوكيت ممن رفضوا الذهاب في رحلات التحويت، كانوا يأتون هنري وجون وشادويك طلبًا للانضمام إليهم في مسعاهم للقضاء على حيتان يونس، فكانوا يدوّنون أسماءهم وأعمارهم ومهنتهم في سجلات، وبذلك يصير الحوّات جندي حوّات.

واتخذ الأمر منحى آخر عندما بدأ بعض الناس يتبرعون لهم بأموالهم ومنتجاتهم، فلم يمانع هنري أن يترك ما كان يعمل، ويتفرغ مع شادويك وجون لإدارة الجند الحوّاتين.

كان من المنضمين الجدد متعصبين لذلك ويأخذون الأمر بجدّية كبيرة، منهم كان شابًا يدعى تومسون كان أخوه وأبوه مفقودَين منذ أن كان صغيرًا، قبلوه معهم فتحمس جدًا لذلك وجاءهم بعدها وقد حلق شعر رأسه ولحيته وشاربه وحتى حاجبيه، كان فعله ذلك مما جعل بقية الجند الحوّاتين يقلّدونه فصاروا مميزين بذلك، وحتى صار ذلك الأمر شرطًا إذا أردتَ الانضمام،

فجاء منهم حليقًا من قبل أن يُقبَل، مثل رجل أتى هنري فظن أنه يريد الانضمام لهم، لكنه قال بلكنة غريبة وبدون مقدمات:

- أريدك أن تقتص مني.. لقد كنتُ أعيش في جوف حوت يُخرجنا لكي نقتل سفن التحويت

بُهِت هنري وظل يحدق فيه قبل أن يلاحظ أنه ليس لديه رموش، وذلك كان شيء يغفل عنه البقية، فسأله بعد مدة من التفكير عمّا يجب أن يسأل:

- ما اسمك؟
- كالتوكي!
- حسنًا يا كالتوكي.. أخبرني عن كل شيء
- كنت أعيش في جوف كيانج لقرابة المائتين عام، حتى هربت منذ إثنين وعشرين سنة، بعد أن...
- وأين كان يعيش كيانج؟
- أعتقد أنه كان في المحيط الهادي معظم الوقت
- حسنًا أكمل يا سيد
- هربت بعد أن صار يخرجنا إلى سفن التحويت للقضاء عليها، أخبرنا أن هناك سُكان آخرين لحيتان آخرين يفعلون ذلك، أعلم أنكم تبحثون عن تلك الحيتان لقتلها ومن يسكنها، وها أنا أمامك لكي تقتص مني

علم هنري أن ذلك الرجل سيكون إضافة إلى جماعتهم، فقرر أن يضمه إليهم، فأخبره:

- هل سمعت اسم أطلس من قبل؟!

قال كالتوكي بتعجب:

- نعم! أذكر أنه الحوت الذي أخبر كيانج...
- حسنًا لقد كنت أعيش في جوف أطلس، وقد هربت منذ سنتين، لست أنت الذي يجب أن يعاقَب يا سيد كال.. أريدك أن تنضم إلينا لكي نعيد الأمور إلى نصابها

امتنّ كالتوكي لهنري ورحّب بالأمر بشدة، وأخبرهم عن الحياة في جوف كيانج الذي كان يعبده سُكانه، فكان أمر إغراقهم لسفن التحويت أمرًا تعبديًا، ما يجعله أخطر، كما أخبره عن طريقة إسقاطهم للسفن، فكانت تشبه إلى حد كبير طريقة سُكان أطلس.

ومن بعده جاءهم رجل اسمه هالفور وهذا أيضًا كان بدون رموش؛ ليخبرهم أنه كان يعيش وحده في جوف حوت صائب، حتى اصطاده حوّاتون من الإسكيمو وأخرجوه من جوفه، فلم يجدوا مانع أن يضمّوه إليهم.

منذ أن تأسست رابطة الجند الحوّاتين وشادويك يبحث عن مكان ليكون مقرًا لهم، حتى وجد أخيرًا المكان المثالي ، فقد كان قريبًا من الميناء، وكان وراء ورشة القبعات التي على الشارع الرئيسي في المدينة، بدا كأنه مصنع مهجور يحتاج إلى كثير من العمل، لم يتوانوا أو يبخلوا في ترميمه، وأثناء ذلك حاول بعض المناهضين لحركة الجند الحوّاتين أن يحرقوا المكان وهم غافلون، كاد أن يموت البعض، لكنهم تداركوا الأمر وأنقذوا المكان، وأتموا ترميمه على كل حال، ونقلوا إليه كل ما يخصهم من منتجات وأموال وجنود حوّاتين ليس لهم مكان آخر، وبدأوا فيه على الفور بالتدريب على القتال بالأسلحة النارية والسيوف والحراب وحتى بالأيدي، وهكذا صار المكان أقرب إلى ثكنة للجند الحوّاتين.

وفي محاولة من أصحاب السفن وشركات التحويت لإرضاء الناس وطمأنة البحارة؛ بدأوا يستأجرون جنودًا حوّاتين ليكونوا على سفنهم، كما صار الجند الحوّاتون يزوّدون السفن بما يلزم من أسلحة ومعدات تعينهم على القتال الحقيقي، وسرعان ما شاع بين الناس أن الحوّاتة التي عليها جندي حوّات واحد؛ هي حوّاتة آمنة وستعود سالمة ممتلئة بالزيت.

بالطبع كان أصحاب السفن يفعلون ذلك على مضض وهم ساخطون حانقون، ولم تكف محولاتهم لإسقاط الجند الحوّاتين بتكذيبهم أو بنشر إشاعات مضادة عنهم، حتى أنهم كانوا ينصبون لهم كمائن لاغتيالهم كادت

بعضها أن تودي بهم، ولما فشلت جميع محاولاتهم للقضاء عليهم دعوا قادة الجند الحوّاتين، لمقابلتهم من أجل التفاوض في بعض الأمور.

كان جون مريضًا بشدة، وقد صار عجوزًا هرمًا كأن عمره تضاعف خلال سنتين، فلم يذهب مع هنري وشادويك، وذهب معهما تومسون وكالتوكي وهالفور وبعض الجنود للحماية وإظهار القوة، دخلوا قاعة كبيرة فارهة فيها يقف بعض الرجال المسلحين، ويجلس آخرون كبار في السن يعتمرون القبعات الطويلة، بينما دخل الجند الحوّاتون من دون ما يغطي صلعاتهم، تبادلوا المصافحات المقتضبة، وجلسوا أمامهم كأنهم في محاكمة، ومن دون مقدمات بدأ أبغضهم سحنة وأكثرهم جهامة يقول:

- باختصار أيها السادة.. نحن لا نريدكم في هذه المدينة، أو على هذه الجزيرة

رَد شادويك الذي كان يجلس في المنتصف يواجه ذلك الرجل:

- ولمَ ذلك يا سيد ستاربَك؟! لقد أنقذنا صناعتكم وأعدنا البحارة الخائفين إلى البحر، يجب أن تكونوا ممتنين لنا
- ومن الذي أخاف هؤلاء البحارة أصلًا؟ أليس صديقك هنا؟!
- لم يُبدِ هنري أي رد، فأضاف شادويك:
- ولمَ يَجب أن نرحل؟! يعجبنا المكان هنا

قال رجل آخر بعصبية:

- ألستم تبحثون عن يونس؟! لمَ لا تذهبون إلى البحر؟! أعتقد أنه هناك

قال هنري:

- وكيف سنفعل ذلك من دون سفينة

انتبه إليه الجميع فأردف:

- إن أردتم التخلص منّا فهذا هو ثمننا.. سفينة!

مرت لحظة قبل أن ينفجروا غضبًا ويصيحون فيه، وقال أحدهم:

- هل أنت مجنون؟!!

قال آخر:

- فليبلعني حوت إن أعطيناكم قاربًا حتى!

هدأ الصياح قليلًا، فقال رجل هادئ يجلس أمام هنري:

- إن سفينة ثمن غالي يا سيد.. كما أن رحيلكم فقط لن يوفي هذا الثمن، أريد أن تتسلح السفينتين كانتون وألاباما بالكامل، كما أريد عشرين جندي حوّات على كل منهما، وفي المقابل سأعطيكم "العاهرة"

سكت الجميع ينظرون إلى الرجل وإلى هنري، وهما يحدقان ببعضهما، ثم نهض هنري ومدّ إلى الرجل يده ليصافحه قائلًا:

- اتفقنا! يا سيد...

قال شادويك وهو يصافح الرجل بحفاوة:

- ميرسر! نشكرك يا سيد ميرسر!

وصافحوا البقية الذين كانوا مذهولين، وخرجوا.



انتظر هنري في الميناء مع البقية وصول "العاهرة" الآتية من ولاية كونيتيكت، أخبرهم صاحبها ميرسر أنها كانت حوّاتة عظيمة خاضت عدة رحلات ناجحة، وأنها تحتاج إلى القليل من الإصلاحات، وفي الأيام التي انتظروا فيها وصول العاهرة، كان هنري قد جهز السفينتين كانتون وألاباما بثلاثين من الجنود الحوّاتين، وتم تسليح بقية البحارة وقد أبحرتا بالفعل، وقد تعمدوا نشر إشاعة بأنهما تابعتان للجنود الحوّاتين تبحثان عن حيتان يونس، وذلك ما أغاظ ميرسر كثيرًا.

وصلت العاهرة أخيرًا فكانت أسوأ مما توقعوا، بالكاد كانت قادرة على الطفو، تميل قليلًا على جانبها، دخلت الميناء يقطرها أربعة قوارب حتى استقرت إلى أحد الأرصفة، ووسط خيبة شادويك والبقية قال هنري بملامح جامدة:

- ابدأوا في إصلاحها!

استغرقت عملية إصلاح العاهرة عدة أشهر، لم يبخلوا عليها بشيء حتى صارت كالجديدة، واستغرق تجهيزها بالمؤن عدة أشهر أخرى، فجلبوا من كل شيء أضعاف ما كان على الحوّاتات الأخرى، وبدأوا يسلحونها بالمدافع، وأشياء كانوا يدّخرونها لها بالذات، مثل المدافع التي تطلق الحراب، وحرابًا تنفجر فور أن ترشق في الحوت، كلفهم هذا الكثير، فقد كانت مثل تلك الحاجات لا تزال غير مألوفة في صناعة التحويت، وصارت سفينة "عاهرة نانتوكيت" أقوى من السفن الحربية، كانت حوّاتة حربية.

وفي يوم كان هنري جالسًا وحده في حجرته، يعطي ظهره للباب شاردًا مع أفكاره لا يفعل شيء، دخل عليه أحد، علم أنه شادويك، لم يلتفت إليه، جلس شادويك وقال فجأة بعد مدة:

- هل نحن الأخيار يا بوتش؟

تعجب هنري من ذلك الكلام الغريب المفاجئ، وقال بثبات وهو لا يزال يعطيه ظهره:

- ليس هناك أخيار في هذا العالم، هناك فقط من يعلمون ذلك ومن ينكرونه، وأعتقد...
- بوتش!.. لقد مات بوكاجون
- من؟
- إنه جون.. لقد مات
- ماذا؟! جون اسمه الحقيقي بوكاجون؟! ألم يكن أمريكيًا؟! مهلًا! لا تقل أن اسمك ليس شادويك أنت الآخر!

لم يقل شادويك شيئًا، وخرج وهو ينشج، فاستوقفه هنري وقال دون أن ينظر إليه:

- جهز العاهرة للإبحار!



(3)

مرت تسعة أشهر فقط قبل أن يقرر هنري أن يترك المحيط الأطلسي وينتقل إلى الهندي، كانوا فيها يصطادون الحيتان أينما وجدوها، تارة كانوا يصيدونها ويرفعونها من أجل العمل على سلخها وغلي زيتها وتخزينه؛ وتارة أخرى كانوا يصيدونها من أجل قتلها فحسب، وربما من أجل تجربة المعدات والأسلحة الحديثة، والتي أظهرت كفاءة منقطعة النظير في القتل، كانت الحراب المتفجرة تقتل الحوت على الفور، وتوفر عليه وعليهم عناء جرّه للقوارب، أما مدافع الحراب فقد كانت ذات دقة عالية على السفينة عكس القوارب، كان كل ذلك مما جعل كفاءة الصيد بنسبة مائة بالمائة، إذ لم يكن هناك مجال للحيتان للفرار أثناء صيدها.

كان هنري يختلي بنفسه في قمرته معظم الوقت، لا يشارك في الصيد بأي شكل، لدرجة أنه شاع بين البحارة أنه يخشى أن يبتلعه حوت، وعندما كان يخرج إلى المتن كان يصعد قمة الصاري الرئيس ليؤدي مناوبته في المراقبة، وأيضًا كان وحده، رغم أن مناوبات المراقبة على العاهرة كانت تستلزم ثلاثة بحارة على الأقل، تحسبًا لأي شيء، ومعهم صافرة ذات صوت مميز، كانت للتنبيه إن شكّوا في أحد الحيتان.

ومن حين لآخر كانوا يقابلون الحوّاتات الأخرى من شتى البلاد، ولم يترك شادويك حوّاتة إلا وأخبر بحارتها عنهم وعن حيتان يونس وسُكان الأجواف وكل شيء، كأنه يبشر بديانة ما، وقبل أن يخبرهم بأي شيء كان يسأل إن رأوا شيئًا غريبًا مثل حطام سفينة أو ما شابه، ومن ثمّ يتتبعونها،

حتى لفّوا المحيط الأطلسي من شرقه إلى غربه ومن شماله إلى جنوبه، إلى أن أمر هنري بالرحيل إلى المحيط الهندي.

كان الوقت المفضل لهنري لتولي المراقبة هو الوقت من الأصيل حتى الغسق، ومن بينهما كان الغروب، كانوا لا يزالون في الأطلسي ورأس الرجاء الصالح على بعد يومين، هذا عندما رأى هنري من أعلى الصاري قطيعًا من حيتان العنبر، أثاروا انتباهه إذ كانوا يتصرفون بغرابة فقد كانوا منظمين ومتناغمين على نحو يثير الريبة، لاحظهم البحارة على المتن وهتفوا بالنداءات، فأمرهم هنري ألا ينزلوا القوارب ولا يفعلوا أي شيء، حتى رأى في الماء شكلًا باهتًا لحوت، توقف قلبه عندما رأى أنه أطول من السفينة.

من حجمه فقط علم أنه حوت ذو جوف، ومن ثمّ علم أنه ليس أطلس، مال حتى تدلى من سور الصاري ودقق النظر أكثر ليدرك أنه حوت عنبر، أول ما خطر في باله حينها أنه نون، وثاني ما خطر في باله أن القتال قد بدأ، فنفخ في صافرة نداء المعركة.

رأى البحارة يضطربون، فنزل منهم كثير إلى الكوثلة، ومن بقيَ على المتن فقد اختبأ في أماكن محددة، حدث ذلك بهدوء كما تدربوا كثيرًا، ثم رأى رجالًا يصعدون متن السفينة من جانب واحد الواحد تلو الآخر، وكان قد نسيَ أن أحدهم في طريقه ليقتله، حتى رأى رجلاً يتسلق حبلًا يؤدي إلى قمة الصاري حيث هو، فكر في أوساي لكن ذلك الرجل كان رجلًا كاملًا، وانتهى عن التفكير في أي شيء عندما رأى رجلًا آخَر وراءه يتبعه، لم يكن مع هنري حينها سوى سكينه القديم.

استلقى على جانبه بسرعة، وتأهب بسكينه في يده، رأى الرجل يرتفع بنصف رأسه ليتفقده، فتلاقت عيناهما للحظة، قبل أن يجذبه هنري من شعره ويرفع كل رأسه ويحزّ رقبته بسكينه، ثم سحبه كله وأخذ سيفًا كان معه وانتظر الآخَر، الذي صعد دون تردّد ليجد صديقه ميتًا، ويجد هنري يطعنه في صدره حتى كوّمه بجانب صديقه.

عندما انتهى هنري وجد أن القتال قد بدأ بالفعل على المتن، وقد ارتفعت صيحات المعركة وأصوات الطلقات صاخبة، فهرع ينزل ينضم إليهم، واندهش عندما نزل ليجدهم كادوا أن ينتهوا، ولم يكن من سُكان نون على قيد الحياة سوى إثنين فقط، فصاح فيهم أن يبقوا عليهما، فسأله شادويك وهو يقف وراء أحدهما ومسدسه على رأسه:

- لماذا؟! أتريد أن تستجوبهم؟
- لا، إنهم لن يخبروك بشيء.. سأعيدهم إلى حوتهم، لا تقتلوهم حتى يعود، وجهزوا المدافع

ثم أمر الجميع بألا يفعلوا أي شيء، تعجب شادويك لكنه امتثل للأمر، وظلوا جميعًا مترقبين وهم صامتون، حتى جاءت نفثة عظيمة من جانب السفينة، فبدأ الرجلان يصرخان بأعلى صوتهما باللغة العربية، فهم هنري بعض كلماتهم وعلم أنهما يخبران نون أن يهرب، فأمر بتكميم أفواههما وإلقاء أحدهما في الماء ليلتقمه نون.

بقيَ نون تحت السطح بقليل، وعلى السفينة كانت جميع المدافع مصوّبة نحوه في الماء، فربطوا الرجل الآخَر ودلّوه من جانب السفينة حتى لامس المياه بالكاد، فارتفع نون وكشف ظهره فوق السطح، تردّد هنري حينها فتأخر عن إلقاء الأمر لبضع ثوانٍ، ليشير شادويك إلى المدفعية بقذف الحراب المتفجرة ومدافع الحراب العادية، التي كانت موصولة بالسفينة بحبل طويل، مات الرجل من إثر التفجير، واضطرب نون وضرب جانب السفينة بقوة شديدة، ثم غاص بسرعة.

وظل نون يسحب الحبل الطويل إلى الأعماق حتى كاد أن ينتهي، فأوصلوا نهايته بحبل آخر، ولما كاد أن ينتهي هو الآخر توقف السحب وارتخى الحبل، وظلوا مترقبين لقرابة النصف ساعة، إلى أن رأوا نفثة حمراء دموية بعيدة، هتف البحارة لرؤيتها وراحوا يصيحون صيحات الانتصار، ودون أن يأمرهم أحد بدأوا بإنزال سبعة قوارب وتوجه معظمهم

بها إلى نون، بينما بقيَ القليل منهم على المتن، مثل هنري، تركهم ونزل إلى قمرته ليبكي وينتحب وحده.

★★★

ظل متكورًا على نفسه في ركن قمرته يبكي حتى أصيب بالإرهاق، انتبه عندما طرق شادويك الباب وقال من ورائه:

- بوتش! هل كل شيء بخير؟ لقد رفعناه إلى الميمنة..

تنحنح هنري وحاول ألا يبدو البكاء في صوته، وقال:

- حسنًا يا شادويك.. انتظر حتى آتيكم، ولا يقرب أحد جوفه

بالكاد تمالك هنري نفسه، فنهض وعدل هندامه وخرج إلى المتن، فصفّق البحارة وهتفوا له، وهو يسير بينهم بثبات وتجهم، وذهب إلى جهة السفينة المائلة، ورأى نون كبيرًا كأنه يابسة ترسو إليها السفينة.

فأخذ بندقية من أحد البحارة ونزل إليه ودخل فمه الضيق مقارنةً بأطلس، والذي كان مفتوحًا عنوة ومثبت بداخله عمدان تمنعه من أن ينغلق، ومنه دخل إلى جوفه.

وجد النور السائل مسكوب من عروقه، ولاحظ أن جوف نون أوسع من أطلس، ثم لاحظ رجلين غارقَين في النور السائل يستلقيان بجانب بعضهما، أحدهما كان الذي ألقوه، والآخر كان شابًا لم يره من قبل، ثم دخل شادويك وضحك بشماتة وانتصار وهو يقول:

- اللعنة! ماذا حدث هنا؟... لقد نجحنا أيها اللعين!!

قال ذلك بحماس وهو يمسك هنري من كتفيه بقوة يريد أن يمازحه، لكنه دفعه عنه وقال بعصبية:

- أريد أن ينتهي الأمر بسرعة، واسكب ذلك السائل في البحر.. إن رأيت قطرة منه فسأقتلك.. فهمتَ؟!

ثم خرج هنري إلى المياه أولًا لغسل ما عَلِقَ به من النور السائل، ثم ارتقى إلى المتن ووقف بين جميع البحارة وقال يخاطبهم:

- يجب أن أهنئكم أنكم لا زلتم على قيد الحياة جميعكم، فمن المرجح ألا يحدث ذلك مرة أخرى، لقد قمنا بثلث العمل فقط.. الثلث السهل، فلا يزال هناك حوتين في محيطين، وهما أسوأ من هذا وأكبر، وسُكانهما أشرس من هؤلاء وأدهى، ومن المرجح أن نقابلهم خلال رحلة العودة إلى الوطن عبر الأطلسي.. فلا تغتروا بأنفسكم وكونوا مستعدين

هتف البحارة مرة أخرى، ثم تركهم هنري وعاد إلى قمرته وإلى بكائه وحده، وقد انفجر في داخله كل شعور بالكمد والغضب والندم، وأدرك أنه يكره كل شخص على هذه السفينة، ويكره كل يابسة وكل محيط، ويكره كل ساعة عاشها خارج جوف أطلس، وقد ندم أخيرًا على تركه، وأدرك أنه إن لم يكن سيعود إليه، فلابد من تدميره.

نام وهو يبكي، ثم استيقظ مرة أخرى كأن شيئًا لم يكن، وخرج يتفقد العمل على المتن، ليجد الجو ليلًا والرائحة كريهة، وذهب يتفقد نون ليجده مقطوع الرأس والذيل وقد سُلخ نصف جسده، وقد تركوا القروش تنهش جسده، لكن رغم كل ذلك كان لا يزال ضخمًا.

هرع إليه شادويك عندما رآه ليخبره بحماس:

- بوتش!.. لن تصدق! حصدنا خمسين برميلًا من زيت العنبر ولم ننتهِ من ربعه حتى، تخلصنا من الرأس وفصلنا الذيل ورفعناه إلى المتن.. يقول أحد البحارة أن بإمكانه تحنيطه على هذه السفينة في خلال أيام...

بعد خمسة أيام من العمل المتواصل ليلًا نهارًا على نون؛ انتهوا من استخراج كل قطرة زيت منه، وقد حصدوا مائة وأربعين برميلًا من زيت

العنبر، وقد ميّزوا البراميل التي تحتوي على زيته عن براميل الزيت الأخرى، وتم التخلص من النور السائل بالكامل، وتخلصوا من الجسد إلا الذيل، بعدها أمر هنري بالعودة إلى أمريكا.

وفي طريقهم عبر المحيط الأطلسي كانوا يصادفون السفن التجارية والحربية والحوّاتات، ولم يتركوا سفينة إلا وأخبروها أنهم اصطادوا أحد حيتان يونس، ويعرضون لهم ذيل نون الذي تم تحنيطه، وقد علموا من بعض الحوّاتات الأمريكية أن خبر قتلهم لحوت يونس قد سبقهم وشاع بالفعل.

استغرقت رحلة العودة إلى الولايات المتحدة أربعين يومًا فقط، وقد مروا بمعظم موانئ الساحل الشرقي ومدنه الصغيرة والكبيرة، كانوا يتوقفون عند كل ميناء ليبشرون بعقيدة الجند الحوّاتين، ويعرضون ذيل نون الأسطوري الذي كان يصعق أنظار الناس، فكان هنري وأحيانًا شادويك؛ يلقيان الخطابات على الناس، ومن الناس من كانوا يتبرعون بالقليل مما لديهم، ومنهم من كان ينضم إليهم.

واستغرق الوصول إلى نيو إنجلند شمالًا شهرًا آخر، ومروا أولًا بميناء مدينة نيويورك، ليأمر هنري بتفويته، لكنه عدل عن قراره بعد إلحاح من شادويك بأنه ميناء مهم لابد من المرور به، وأمره هنري بأن يكون هو من يلقي الخطاب هذه المرة، وظل مختبأً في قمرته حتى رحلوا عن تلك المدينة وميناؤها، ثم مروا ببضعة موانئ أخرى حتى فوّتوا جزيرة نانتوكيت، ليعودوا إليها مرة أخرى وترسوا العاهرة مرة أخيرة إلى ميناء نانتوكيت.

ورغم أن هنري هو من عليه أن يلقي الخطاب في ميناء نانتوكيت بالذات؛ إلا أنه امتنع هذه المرة أيضًا، وترك شادويك يتولى خطاب الحشد الذي كان يملأ ساحة الميناء، وبقيَ على المتن يشاهد الحشد من أعلى، ليرى بينهم وجهًا مألوفًا، أشاح بوجهه بسرعة وعاد إلى قمرته، ومكث فيها حتى جنّ الليل، ليخرج ويجد أن معظم البحارة قد غادروا، فسأل شادويك عنهم فأجاب بسعادة:

- جميعهم ذهبوا لقضاء حوائجهم...

ثم وكز هنري وغمز وقال:

- تنتظرك هدية في حانة الحوت الخاطئ!

كان هنري ذاهبًا إلى حانة الحوت الخاطئ على أي حال، ووصل هناك ليجدها تكتظ بالجند الحوّاتين الصلع، فهتفوا عندما رأوه، ورحب به صاحب الحانة بحفاوة وقاده إلى غرفته، وفتح له وقال:

- أنا لا أرضى بذلك في حانتي.. لكن هناك بعض الاستثناءات!

دخل هنري ليجد عاهرتين في انتظاره على الفراش.

كان مستلقيًا بين العاهرتين النائمتين لا يقدر على النوم أو إغلاق عينيه، يؤرقه التفكير في كل ما قد حدث، وكل ما قد يحدث، حتى أسبل جفنيه أخيرًا واستسلم للنوم.



واستيقظ مفزوعًا كأنه لم ينم إلا ثانية على صوت طرق عصبي، وأحد ما يناديه من وراء الباب:

- سيدي!!! سيد بوتش!

قام هنري وارتدى سروالًا فقط، وفتح الباب ليجد فتى صغيرًا يخبره وهو يلتقط أنفاسه:

- سيد بوتش! معذرةً يا سيدي!.. السيد شادويك يريدك أن تذهب إلى المقر.. والسيد تومسون هناك، إنه أمر مهم..

عاد وارتدى قميصًا فقط، إذ كان الجو حار خانق هذه الليلة، وذهب مع الفتى إلى مقر الجند الحوّاتين، وتبعه إلى حجرات المخازن.

وجد تومسون يقف مع آخرين، وبعض الرجال معلقين رأسًا على عقب جنبًا إلى جنب مع الخنازير المسلوخة، رأى ذلك وقال:

- ما هذا؟ ماذا تفعلون هنا؟.. أرجو أن يكون شيئًا يستحق أن توقظني من أجله يا سيد تومسون

أجابه أحد الواقفين لم يكن هنري قد رآه من قبل:

- أنا من أحضر هؤلاء يا سيدي، إنهم سكان...
- لم أكن أكلمك... من أنت؟
- كوفن يا سيدي! إدموند كو...

قال هنري بحِدة وغضب كأنه يعنفه:

- لم أسألك عن اسمك!.. أريد أن أعرف مَن أنتَ حتى تكلمني!!

ردّ تومسون عنه:

- إنه من وشى بهؤلاء يا سيدي.. يدّعي أنهم سكان أحد حيتان يونس

تساءل هنري مع نفسه بنبرة مهتمّة:

- أهذا صحيح؟!!

وحمل مصباح الزيت الخافت من على الجدار، وسار ناحية واحد من المعلَّقين كان الأقرب إليه، وجثا أمامه وقرّب المصباح من وجهه، ونظر في وجهه بالمقلوب، قبل أن يدرك أنه لم يرَه من قبل.

وأثناء ذلك قال تومسون:

- أخبرنا السيد شادويك أن نراقبهم، و...

قاطعه الرجل الآخَر قائلًا:

- لا تعبأ بهذا يا سيدي.. إنه أبكم

أراد هنري أن ينتقل إلى الآخر الذي كان بينه وبين الأول خنزير، لكن قال تومسون بعصبية وبسرعة:

- إن العاهرة تحترق يا سيدي**!!**

التفت هنري بجِدة ونهض بسرعة وصاح:

- ماذا؟**!!** بحقكَ يا تومسون لماذا لم تخبرني؟ لماذا لم يخبرني أحد؟
- ارتأيت أنهم...
- ماذا عنهم؟**!**.. أيًا كانوا فتخلص منهم
- أمرك يا سيد بوتش**!**

فور أن قال تومسون آخر كلمة، وكاد هنري أن يخرج؛ سمع صوتًا يقول:

- بوتش؟**!!!**

كان صوتًا مألوفًا له لدرجة جعلت شعره يقف، فتوقف وعاد يقف أمامهم، ومال برأسه على كتفه ليستبينهم، وفعل الرجال المعلقين المثل، فقال أحدهم:

- اللعنة**!** إنه هو...

أدرك على الفور أنه موريس، ووجد عمار بجانبه، وبجانبه مافي الذي قال:

- كنتُ أعرف أن الصوت يبدو مألوفًا

عدل هنري رأسه، وقد تأكد أنهم مافي وعمار وموريس وأوين، فاضطربت مشاعره وكاد قلبه أن يتوقف، فكان على وشك أن يبكي، إلا أنه قد اعتلت وجهه ابتسامة تلقائية، وأصدر ضحكة عفوية وهو يقول:

- فلتحل بي اللعنة**!**.. هل اشتقتم إليّ بالفعل؟**!!**

فقال عمار أخيرًا:

- هنري**!!!!!**

قال تومسون:

- سيد بوتش!!! أنى لك معرفة هؤلاء؟ هل هم...

قاطعه هنري بسرعة كأنه قد تذكر شيئًا:

- أه! أنا لا أعرفهم حقًا، أعني أنه... أنا فقط... أعرف هذا فقط!

وأشار إلى أوين ثم أردف:

- والآن اتركوني معهم

قال تومسون كأنه يعاتبه:

- سيد بوتش! ماذا عن العاهرة؟
- ألم يذهب شادويك بالفعل؟!.. ابحث عن كال وهالفور وأرسل معهم البقية، ولا تذهب أنت.. أحتاجك على باب تلك الغرفة ولا تدع أحدًا يدخل، والآن انصرفوا جميعكم

خرج تومسون ووقف على باب الغرفة يتأمل هنري في حيرة، وتبعه البقية، فأغلق هنري الباب وهرع إلى مافي بسرعة، وفك قيده وأنزله بحرص حتى لا يتأذى، وأول ما اعتدل مافي على قدميه احتضنه هنري بقوة، وبدا على مافي الحيرة والذهول، ثم قال له هنري:

- هيّا ساعدني مع البقية!

وبدأ يفك قيد موريس تاليًا بحماس شديد وقال بسعادة وهو يضحك:

- رؤيتكم هكذا تذكرني بلعبة الصاري والمرساة!

وكان مافي قد فكّ عمار، فاحتضنه هنري مع موريس بحماس، ولما لم يبادله أحد حماسه قال:

- ما بكم يا رفاق! هل رأيتم ميتًا؟! ليست تلك أول مرة ترون ميتًا يعود إلى الحياة أليس كذلك!

قالها بمرح وأخذ يضحك وحده، ثم لم يتمالك نفسه فاحتضن أوين بسعادة وهو معلقًا قبل أن يفك قيده وقال:

- بالفعل ظننت أني رأيت أوين بين الحشد! ماذا حدث لك؟...

وملّس على رأسه الصلعاء وأردف:

- تبدو هنا منذ مدة طويلة..

وعاد يضحك، ثم بدأ في فك الرجل الخامس وهو يقول:

- ماذا عنك أيها القوي! لا تبدو لي كأبكم

ثم توجه إلى الرجال الواقفين يشاهدونه في ذهول وقال:

- هل هو أبكم حقًا؟

ردّ أوين:

- أه! نعم.. إنه دكرور، آخر الوافدين

ثم ساعده على والوقوف، ومدّ إليه يد المصافحة وقال:

- حسنًا يا سيد دكرور، أنا هنري!

صافحه دكرور وأومأ بابتسامة غير واثقة، فربّت هنري على كتفه بطيبة.

توجه هنري إلى باقي الرجال، وفرك يديه معًا بحماس وقال في سعادة وحماس شديدين:

- والآن ماذا بحق الجحيم قد أتى بكم إلى قطعة الجحيم تلك؟!

نظروا إلى بعضهم في حيرة، ولموريس بالأخص لكنه كان أكثرهم حيرةً وذهولًا، ثم قال عمار بسرعة:

- لقد هربنا!

التفت الجميع إليه في دهشة، ثم قال موريس بتردد:

- أه نعم!.. بالفعل لقد هربنا معًا

فقال هنري مازحًا:

- تبًا! لقد تسرعتُ إذًا!.. كان عليّ أن أنتظركم خمس سنوات فقط

وقال أوين باهتمام ووداعة:

- ماذا حدث لك يا هنري؟ كيف... ماذا حدث منذ خمس سنوات؟

تراجع هنري وجلس على أحد البراميل بتؤدة وعلى وجهه ابتسامة راضية، وقال بعد أن سحب نفسًا عميقًا:

- فلتجلسوا أولًا، ليست بالقصة الطويلة...



مكثت طوال اليوم أقرأ في غرفتي، واستغرقت كثيرًا حتى أنهيت فصلين فقط قبل أن أملّ وأرهق، فقد كانت هناك أشياء كثيرة أخرى تشغل بالي وتقطعني عن القراءة، فظللت أعيد قراءة السطور وحتى الصفحات؛ أكثر من مرة، وهذا شيء كنت أكره فعله كثيرًا.

لم يفصل بين قراءتي للفصل العاشر والحادي عشر؛ سوى بضع ساعات من النوم، كان سام يجلس بجانبي بينما كنت أقرأ الفصل الحادي عشر، فقلت له عندما انتهيت:

- ما هذا الهراء؟
- ماذا؟!!
- أين ذلك المغفل دكرور؟
- إنه في البحر!
- أقصد أين هو في روايته اللعينة؟!
- اه! لقد أخبرناك ألا يخيب ظنكَ
- ماذا عن هنري هذا؟! هل صار بطل الرواية أم ماذا؟

- هل تراه بطلًا؟
- لا إنه وغد، لكن... لا أدري، ذاك الفصل لا بأس به على كل حال

أغلقت الكتاب وقلت:

- ألن أظهر في الأحداث مرة أخرى؟
- لا، لا أنتَ ولا أمك
- هممم! تمنيت لو ظهرت أكثر
- أتدري.. ربما كنا سنكتب عنك أكثر إن كنا نعلم أنك على قيد الحياة
- وأتدري ما الذي لا أقتنع به حتى الآن؟! إنه ذلك النور السائل، والعيون الصفراء، وانتقال الأرواح بين الأجساد
- أه! إنه شيء لا يصدق بالفعل، لكنك صدقت كل شيء آخر.. لمَ لا تصدق هذا أيضًا
- أعتقد أن القصة حقيقية إلا ذلك الأمر، أعتقد أنه إضافة خيالية من المؤلف، لزيادة جمال القصة
- إيّاك أن تخبره ذلك.. سيقتلك إن فعلت

جفلت عندما سمعت دكرور يقول:

- أتدري ما هو الخيالي ومن وحي خيال المؤلف؟! إنه أغاني الحيتان، تم تأليف الحوار بين كل الحيتان وبعضها، ونظمه في كلمات؛ لكي يكون قابل لأن يُكتَب في رواية، الحوار قد حدث فعلًا وأخبروا بعضهم بما يريدون، لكن أغاني الحيتان في الحقيقة كانت عبارة عن أصوات غير مفهومة كأنها لغة بدون كلمات
- وماذا عن الأحلام إذًا؟ كيف كنت تفهمه في الأحلام؟

أجاب سام:

- أليس بإمكانك فهم أي شيء في الأحلام؟، حتى أنه يمكنك أن تسمع أي كلام، وإن لم يكن هناك كلام أصلًا؟

أضاف دكرور:

- والآن يجب أن تعمل بنصيحة سامبار وتكف عن التفكير في الخيال والواقع، لكي لا أقتلك حقًا

ثم انشغلت مع دكرور وسام بتصليح بعض الأمور في المنزل وفي المركب، وانشغلنا بصيد الأسماك وطبخها وأكلها، ومن ثمّ أردت أن أكمل القراءة، لكن نمت قبل أن أفعل، فلم أكمل إلا في اليوم التالي...

الفصل الثاني عشر
"قِطعَة مِنَ الجَحِيم"

(1)

من اسمه فقط كان دكرور يتخيله رجلًا بغيضًا وربما عجوزًا، لكنه كان على العكس تمامًا، إذ كان رجلًا في عقده الرابع بل أصغر، فارع الطول، معتدل الجسم، صلب وحاد الملامح، ووسيما رغم صلعه، له ابتسامة ساحرة تجعلك تترجاه كي يصبح صديقك، تعلوها عينان زرقاوان ذابلتان.

في ساعة حكى لهم هنري حكاية مدتها سبعة وأربعين عام، من أول ما التقمه أطلس حتى هذا الصباح، بدأ يحكي عن علاقته بسُكان أطلس وأخبرهم صراحةً أن بيدرو كان أقربهم إليه، ثم عن سبب هربه أساسًا، وهو تضحية بيدرو من أجل بوهاردي قائلًا أنه لم يكن يكره بوهاردي بالذات، لكنه لم يكن يطيق أن ينظر في عيني بيدرو ليجد بوهاردي فيهما، وأنه قرر الهرب بعد أن اعتقد أن أوين وويليام قد هربا، فأخبره أوين أن ويليام قد مات قبل أن يعود، فبدا على هنري التأثر الشديد وقال:

- من أيضًا؟
- وتاندي!

عاد هنري من تأثره بسرعة وسأل أوين باستغراب:

- مهلًا! هل عدتَ إلى الجوف مرة أخرى لكي تهرب منه؟.. بالفعل يا رفاق! إن منكم من ألمحتُ إليه بفكرة الهرب، ولم تلقَ تلك الفكرة أيّة قبول، بل حتى إن منكم من سخر مني، والآن ما الذي تغير حتى يتغير رأيكم؟

قال موريس وقد بدا التردّد في صوته دون أن يبدو على وجهه:

- لا أعلم.. ربما موت تاندي أو ويليام أو موتك أنت حين كنا نظن ذلك
- ماذا! كيف ظننتم... لا تقُل أن أطلس من أخبركم بذلك

بالطبع لم يُرِد موريس أن يخبره أنه كان يظن أن أطلس هو من قتلـه فلـم يجِبه، وأكمل هنري:

- تلك السمكة الغبية! أتعلمون؟! لقد أدركني في المياه الضحلة بالفعل...

ثم أخبر عن طريقة هروبه نفسها، ورحلته للبحث عن أويـن وويليـام فـي بريطانيا، ووصوله إلى نانتوكيت، وعـن تأسيسـه لرابطـة الجنـد الحـوّاتين، وأنه كان ثملًا حينها، وحكى عـن شـادويك وجـون وقصـة الحـوت الأحـدب جاسكونيوس وسُكانه، وحكـى عـن أصـحاب الشـركات والعـاهرة والإبحـار بها، وصيد نون.

سكت هنري وزفر في تأثر وأنهى كلامه في استغراق:

- حصدنا مائة وأربعين برميلًا من زيت العنبر، واستغرقنا العمـل عليـه خمسة أيام كاملة...

قالها هنري في تأثر، ولم يقدر دكرور على منع نفسـه مـن ذرف الـدموع الصامتة، ثم وجد أوين يبكي هو الآخر والبقية يذرفون الدمع، حتـى هنـري الذي ربّت على كتف دكرور الجالس بجانبه وعاد يقول:

- أنا أيضًا كنت أبكي بينما كان البحارة يهتفون بانتصار...

قال أوين بصوت خفيض ومتعب وهو يمسح الدموع عن وجهه:

- تبًا لك! أيها الحوّات اللعين!

انتبه إليه هنري بجِدة وقال:

- ماذا قلتَ؟!!

ولما لم يجِبه أويـن نهـض إليـه فبـدا لـدكرور أنـه سـيفتك بـه، حينهـا قـام دكرور هو الآخـر واسـتوقفه بـأن أمسـكه مـن كتفـه، فزجـره هنـري بعنـف والتفت إليه بعصبية قائلًا:

- ارفع يدك عني يا سيد!

لم يرفع دكرور يده، ورمقه بغضب بدا جادًا أكثر والدموع لا تزال في عينيه، فقام باقي الرجال، وزاد الموقف حدّة وتوتر، فقال موريس في ثبات:

- دكرور! اهدأ.. وأنت أيضًا يا هنري!

قال هنري بعصبية شديدة وهو يشير إلى صدره:

- أنا من يملي الأوامر هنا يا موريس.. لا تنسَ ذلك!

ودون سابق طرق فتح تومسون الباب بعنف ودخل مع شادويك، ومن ورائه إثنين آخرين، وقال بسعادة وهو يلهث:

- يا زعيم! لقد... اه!!! كنت أعلم أنك ستسعد لرؤية هؤلاء القوم

قال هنري:

- اللعنة يا شادويك!.. ماذا حدث للعاهرة؟
- ربما فقدنا ما بها من مؤن، لكنها ستنجو.. إنها عاهرة صلبة!



بعد برهة من تبادل النظرات بين كل من بالغرفة؛ قال هنري:

- إذًا من منكم أيها الحمقى سيخبرني بما جرى؟

ردّ أحد الآخَرين:

- يبدو أن أحد مصابيح الزيت قد انكسر واحترق

استدرك عليه شادويك:

- بل قل أحد براميل الزيت قد احترق

نظر هنري إلى عمار وباقي الرجال بطرف عينه، قبل أن يقول بابتسامة:

- يبدو أنه أحد المتعصبين ضدنا.. والآن دعوني أعرفكم...

وأشار إلى الإثنين قائلًا:

- هذا كالتوكي.. وهالفور، وأظن أنكم تعرفون شادويك.. هؤلاء أصدقائي القدامى من عند أطلس الحوت

قال كالتوكي:

- اللعنة! هل نظمتم هروبًا جماعيًا؟

قال هنري:

- كالتوكي قد هرب من كيانج الحوت الأزرق الذي أخبرتكم عنه، وهالفور كان يعيش وحده في بطن حوت صائب قبل أن يصطاده حوّاتون من الإسكيمو

قال هالفور العجوز بمرح:

- لقد حسبوا أن الحوت قد تحول إلى إنسان حين قتلوه ليعود وينتقم منهم، لكن اتضح أني عدت لأنتقم من الحيتان

ضحك أصدقاءه فقط، ثم قال هنري آمرًا:

- والآن لا شك أن أصدقائي متعبون.. سيد تومسون! خذهم إلى غرفة بها أسِرّة مريحة، وأرجو ألا يعرف أحد بما يجري هنا
- أمرك يا سيد بوتش!

خرج تومسون ينفذ الأمر، فأشار هنري إلى الباب وقال:

- من بعدكم يا رفاق! أنا لم أكمل كلامي معكم

قال عمار بسأم:

- كل هذا ولم تكمل كلامك؟!

فأخذه هنري تحت ذراعه بعنف حتى بدا أنه يخنقه، لكن اتضح أنه يمازحه، وصحبه للخارج وتبعه البقية، ثم قال هنري لعمار وهو يصحبه:

- أعلم أن الأمر سيبدو مزعجًا في بدايته، لكن لحسن حظك أنك بين أصدقاءك، كما أنك لا زلت لن تشيخ

سأل عمار باستغراب:

- حقًا! كنت أحسب أنه... كيف ذلك؟
- لا أعلم.. توكي قد هرب من جوف كيانج منذ ثلاثين سنة ولا يزال يبدو في الأربعين.. أتصدق!

استدرك عليه كالتوكي باقتضاب:

- منذ أربع وعشرين سنة، ولا زلت في الثامنة والثلاثين

قاد هنري الطريق عائدًا إلى القاعة الكبيرة، وتبعه الجميع في صف، وهمس موريس بشيء في أذن أوين، فرفع أوين أكتافه وهز رأسه، فبدا على موريس الغضب والامتعاض ثم قال بنبرة مرحة لا تدل على ذلك:

- أتعلم من أتى معنا أيضًا يا هنري؟!.. إنه سيجورد

قال هنري بسعادة وهو يضحك:

- حقًا!! أين هو ذلك البائس؟

قال أوين:

- أممم!.. سيجورد لم يرجع معنا
- وأين كنتم؟
- في الماخور
- أه بالطبع كنتم في الماخور! أنا أيضًا كان هذا أول مكان أذهب إليه فور أن وصلت.. عملًا بنصيحتك بالطبع!

وغمز إلى أوين، ثم قال لموريس:

- هل كنتَ معهم يا موريس؟
- أه! نعم...

- حسنًا سنبحث عن سيجورد، ربما قد اختبأ حين وجدكم تساقون مقيدين

ثم توقف أمام إحدى الغرف وأشار إليها وقال بطيبة:

- هذه غرفتكم، لا تناموا!.. سنتناول العشاء معًا لنكمل كلامنا

تركهم هنري ورجاله في غرفة بها أسِرة أكثر من اللازم، فجلس دكرور على الأرض بجانب الباب، وأغلق موريس الباب ووضع عليه جبهته وكفّيه وهو يتنفس بعمق، فبدا عليه الإرهاق الشديد وهو يقول:

- من يجرؤ منكم على التفكير في الانضمام لهؤلاء.. فسأقتله بنفسي

فهمس أوين بجِدة وبصوت خفيض دون أن يراعي حالة موريس:

- لا تفكر أنت في ذلك، نحن لسنا مثل هنري، اللعنة يا موريس! لماذا انعقد لسانك أمامه هكذا؟.. كان علينا أن نخبرهم أنك أنت الأبكم بيننا وليس دكرور

ضحك عمار رغمًا عنه وهو ينظر إلى دكرور، وظل موريس على حاله، وقال بصوت خفيض كأنه يهمس إلى الباب:

- أنت تعرف هنري أكثر مني، ذلك الوغد حاد الذكاء أكثر منا مجتمعين.. كلمة واحدة خاطئة ستكون السبب في هلاكنا

همس دكرور يتساءل:

- لكن كيف لم تعلموا أنه حي؟! ألم تروه يموت؟ ألم تقل لي أن أطلس قتله؟

قالها دكرور ووجهها إلى عمار فرَد:

- لم يرَه أحد وهو يموت، بوهاردي هو من كان نائمًا حينها وهو من أخبرنا أنه رأى أطلس في الحلم وهو يقتل هنري
- حسنًا يبدو أن بوهاردي كان يكذب علينا، اللعنة!

وأضاف مافي:

- يا رفاق! أنتم تعلمون كيف تكون الأحلام غير واضحة، من الممكن أن يكون ظَن ذلك فقط

وقال أوين:

- إن كان الأمر كذلك فأطلس هو من كان يكذب

ثم رفع موريس رأسه عن الباب ووقف مواجهًا لرجاله، وبدا على وجهه الإعياء، وأنه يجاهد لكي يقف بثبات، ثم أردف:

- والآن أين سيجورد حقًا؟
- لقد مكث في الماخور ولم يعُد معنا كما قلتُ

ثم أضاف عمار:

- مهلًا! وأين كنتم أنتم حين عدنا؟

استلقى موريس على إحدى الأسرّة كأنه لم يسمعه، فأجابه مافي:

- نحن من أحرقنا السفينة.. أو على الأقل كدنا نفعل!

ذُهل أوين وقال بعصبية وتوتر:

- آآآه!!! كنت أعلم أنكم ستفعلون شيئًا غبيًا، فيمَ كنتم تفكرون؟، ماذا إن كانوا أمسكوا بكم؟، تبًا! والآن ليس هناك سبيل للعودة...

استعر دكرور غضبًا من طريقة كلامه العصبية، ومن كلامه الذي لا يجدي سوى زيادة التوتر وتعقيد الأمور، فقاطعه بأن ضرب بقبضته على الأرض الخشبية بقوة حتى أصاب الخدر يده، وهمس بعصبية أشد منه:

- هلا تكف عن ذلك!!! إن كان لديك شيئًا مفيدًا لتقوله فلتقله وإلا فلتصمت!

فسكت أوين عن الكلام وإن لم يسكت توتره حين جاء طرق على الباب.

وقف كل من كان جالسًا، ونهض موريس بسرعة من على الفراش، وأراد دكرور أن يفتح الباب، لكن استوقفه موريس، وقال بصوت خفيض:

- سنجاريهم في أي ما سيفعلون حتى نجد مهربًا إلى البحر.. حسنًا!

فتح دكرور الباب ليجده تومسون، فأخبرهم:

- يخبركم السيد بوتش أن العشاء جاهز!



قادهم تومسون صعودًا إلى المستوى الأعلى من القاعة، وأثناء سيرهم في صف وكز دكرور عمار ولفت انتباه موريس وأشار إلى المسدس المعلق على خصر تومسون من الخلف، فأومأ له عمار، ودفعه موريس بجانب تومسون الذي قال بجديّة حين رآه:

- يجب أن أعتذر لكم عما حدث اليوم أيها السادة

فقال موريس:

- لا بأس يا سيد...

وفي اللحظة التالية عرقل دكرور، فاستند على تومسون فأسقطه معه، فساعدهم البقية على الوقوف وقال عمار:

- اعذره يا سيد، إنه ليس أبكم فحسب.. بل ومتخلف عقليًا أيضًا

ولم يكمل تومسون المسير أكثر حتى توقف أمام باب حجرة وقبل أن يطرقه فُتح الباب وخرج كوفن فاستوقفته رؤية الرجال، وظل يرمقهم لبرهة قبل أن يقول له عمار:

- هل أنتَ راحل بالفعل؟
- لن أرحل لأي مكان

قالها كوفن بحسرة وغيظ، فرَد موريس:

- اذهب أينما شئتَ يا كوفن.. لكنني لا أزال عند وعدي

ودلفوا إلى غرفة هادئـة، تمتلـئ جـدرانها بصـور واضـحة جـدًا ورؤوس حيوانات وجِـراب وسـيوف ومسدسـات وبنـادق، وكانـت مرتبـة وإضـاءتها قوية، وكان هنري يجلس عند طرف مائدة طويلة، عليها من الطعام ما يكفي لإطعام مدينة، معه وشـادويك وكـالتوكي وهـالفور وانضـم إلـيهم تومسـون، فجلسوا وصبّ لهم الخدم الشراب، وقبل أن يتكلم أحد قال هنري بوقار:

- أيها الرفاق! أعتذر نيابةً عن رجالي عمّا رأيتم منهم اليوم

والتفت إلى تومسون بنصف وجهه دون أن ينظر إليه، فقال:

- لقد اعتذرتُ إليهم بالفعل يا سيد بوتش...
- حسنًا أنا لم أسمعكَ تفعل!!
- أعتذر لكم أيها السادة!.. مرة أخرى

ثم نظر إلى شادويك الجالس عن يساره، فقال:

- لا، لن أن أعتذر لهؤلاء يا بوتش!

قال هنري بهدوء بارد:

- تبًا لما تريد.. ستفعل ما أريد!

بدا شادويك يقاوم بصعوبة ألا ينفجر، وقال كأنه يبذل مجهودًا:

- حسنًا.. أعتذر لكم!

لم يُبدِ الرجال أي رَد، ثم قال هنري بسعادة:

- هذا عظيم! والآن يجب أن تأكلوا! لم تروا أكل كهذا منذ عقود!

وبينما كانوا يأكلون في صمت عاد هنري يقول:

- والآن كيف حال حوتنا الرمادي العظيم؟

قال موريس بسأم كأنه كان يتوقع السؤال دون أن يجهز له إجابة:

- إنه في خير حال!

ضحك هنري وقال:

- بالطبع هو كذلك! أريد أن أعرف أين تركتموه، وكيف فعلتم ذلك

زفر موريس ومرر أصابعه بين شعره وقال في تعب:

- لقد وجدنا فتاة وطفلها على إحدى السفن، فأخرجنا لنعيدها إلى بيتها على تلك الجزيرة اللعينة!

قال هالفور:

- تبًا! إذًا لم تهربوا حقًا.. كم أنتم محظوظون!

قال هنري بهدوء في تعجب شديد:

- مهلًا! إذًا إنه أطلس بنفسه من أحضركم إلى هنا!

ولم ينتظر إجابة كأنه عرفها وحده، فقال:

- إذًا هو لا يعلم أنكم لن تعودوا!

ثم أضاف:

- إذًا هو لا يزال حول الجزيرة ينتظر عودتكم!

ثم سأل:

- متى وصلتم إلى الجزيرة يا موريس؟

ردّ شادويك عنه:

- ربما منذ يومين

قبض هنري على الهواء بيده كأنه أمسك بذبابة تطير أمامه، وقال بغضب وهو يجز على أسنانه:

- متى ستتمكن العاهرة من الإبحار؟
- تحتاج إلى إصلاحات ستأخذ أسابيع، لكن يمكننا فعلها في يومين

- تبًا! ربما ليس لدينا يومين، سنستأجر سفينة إذًا، أو سنشتري واحدة إذا لزم الأمر

تساءل مافي باهتمام:

- مهلًا! ماذا تريد أن تفعل؟
- اسمع! سنحتاج إلى مساعدتكم يا رفاق، سيأتي أطلس إليكم ما أن تضعوا قدمًا في البحر صحيح!.. حسنًا إن هذا ما ستفعلون، ستركبون إحدى سفننا، وعندما يأتي أطلس.. سنضرب ضربتنا!

قالها وضرب المائدة بقبضته ليحاكي ما يقول، فقال مافي وهو يهز رأسه في أسى:

- لقد سئمتُ من هذا يا موريس!

وأضاف عمار:

- لن أجاريهم في هذا.. وليحدث ما يحدث!

وهمس دكرور بحِدّة:

- ماذا كنتم تعتقدون منه؟!!

قال موريس وهو يحدق في عيني هنري في استغراق:

- أتدري؟! أنت غبي رغم كل شيء.. أتعلم لماذا؟ ليس لأنك صدقتَ أننا قد هربنا من الجوف.. بل لأنك صدقتَ أننا سنساعدك في قتل أطلس

قال هنري في ذهول:

- ماذا!! ألم تهربوا؟!!

ردّ أوين:

- لم نهرب مثلك أيها الجبان الخائن!

نهض موريس وفعل كل من كان يجلس على المائدة المثل إلا هنري، الذي كان حائرًا كأنه قد نسى كيف يتكلم، ثم قال موريس بتهكم:

- كنت أود أن أقول أني سعِدت لرؤيتكم أيها السادة، لكنني لم أفعل حقًا، حسنًا يا هنري إن كان لديك مانع أم لا؛ فسنعود إلى الجوف الآن، هيّا يا رفاق!

تتبعهم هنري وهم خارجين بعينين لامعتين وشفتين تهتزان، فبدا أنه يدفع البكاء كأن أمه هي من ستتركه، ورجاله يصيحون فيه:

- سيدي هل ستتركهم يغادرون؟!
- سيدي! الأوامر!
- ألم أخبركَ؟! لا تقل أني لم أخبركَ!
- ماذا دهاك يا بوتش؟!

لم يتلقوا منه أي ردّ وكأنه أصابه الصّمَم والبَكَم، وما أن أمسك مافي بمقبض الباب ليفتحه هرع تومسون إليه وأغلقه ثانيًا وقال بحِدة:

- إلى أين تظن نفسك ذاهبًا؟

وقبل أن يفكر مافي في الفتك به التفت هنري إليهم وقال بنبرة حزينة وشفتين تترددان بين العبوس والابتسام كأنه يستجدي عطفهم:

- بربّكم يا رفاق! هل ستعودون حقًا؟! أعني.. لقد سعِدت بمجيئكم كثيرًا، ظننتُ... ظننتُ أننا سننتهي من الأمر معًا

فقال موريس:

- لا أدري كيف ظننتَ ذلك، كيف تظن أننا سنقتل أطلس؟، تبًا يا هنري! لفديناه بحياتنا إذا تطلب الأمر
- ثم ماذا؟.. هل ستعودون للقتل وإغراق السفن؟ ألم تكتفوا من القتل بالفعل؟ أي شيء لعين يجبركم على ذلك!

ردّ مافي:

- ألسنا ملعونين من الأساس! ليس هناك شيء لعين في هذه الدنيا سوى البشر، نحن فقط أكثر البشر لعنةً
- لا يهم كم نحن ملعونون، لكننا بشر رغم كل شيء.. نحن بشر وذلك حوت، حتى وإن كان حوتًا يعقل أو يشعر.. لكنه ما زال وحش

قال موريس:

- وحش! ذلك الوحش لم يقتلك عندما وَجَبَ عليه ذلك، ليست الحيتان هي الوحوش يا هنري، بل نحن.. إننا نحن الوحوش والقتلة والملاعين

أضاف أوين أخيرًا:

- نحن وحوش ونعلم ذلك جيدًا، بينما بقيتكم وحوش وتظنون أنفسكم ملائكة

تحولت ملامح هنري إلى الجمود، بعد أن استقرت شفتاه على العبوس، وتحولت نظرته إلى نظرة خالية من أي شيء كأنه ينظر إلى هواء، ثم عاد إلى أكله كأن شيئًا لم يكن وقال:

- لا بأس! لكن سأراكم ميتين قبل أن أراكم في الماء.. اقتلوا الأبكم فقط!



(2)

اضطرب كل شيء بسرعة، بعدها سمع دكرور دوي الطلقة، فجفل وارتعد وربما شعر بالألم في كل جسده، قبل أن يفتح عينه في اللحظة التالية ويجد موريس واقفًا أمامه، فعلم على الفور أن الرصاصة التي كانت لتصيب قلبه قد أصابت كتف موريس.

أشهر عمار سلاحه الذي أخذه من تومسون على الفور فأصاب مُطلِق الرصاصة شادويك، فأشهر كلًا من كالتوكي وهالفور أسلحتهما، وأخذ أوين

بندقية معلقة على الجدار وراءه، وانبطح هو وعمار وتبادلا معهم إطلاق النيران، وتطايرت شظايا الأطباق والطعام من أمام هنري، الذي كان يأكل في صمت وهدوء كأنه لا ينتمي إلى هذا العالم.

حاول تومسون أن يسحب مسدسه فلم يجده، فخطا مافي بقدميه على قدمي تومسون ليثبته، وأمسك برأسه بكلتي يديه ورفعها، فما كان من تومسون إلا أن يخرج سكينه ويطعنه عدة طعنات متفرقة، لم يعبأ مافي لذلك، وظل يرفع رأسه حتى سمع صوت انفصالها عن الجسد، حينها فقط ألقى تومسون أمامه جثة هامدة.

وأثناء كل ذلك كان دكرور يحمل جسد موريس بين يديه تحسبًا لأن ينهار، لكنه صمد ولم تتحرك في جسده أنملة، كأن الرصاصة قد أصابت جدارًا، لم يبدُ عليه الألم أو الدهشة أو الغضب، لكنه بدا مستاءً أكثر شيء، فنظر إلى عيني دكرور وربّت على كتفه وقال بهدوء:

- كنت لتفعلها من أجلي!

وكشف عن كتفه المصاب وأردف:

- أترى! إنه لا شيء

ثم عاد مافي يحمل جثة تومسون عن الأرض كأنها دميه، ورماه على كال وهالفور فأسقطهم على الأرض غير قادرين على الوقوف.

أرادوا جميعًا أن يخرجوا، لكن دكرور كان قد أخذ مسدسًا آخرًا من على الجدار، ووقف بجانب هنري وصوبه إلى رأسه مباشرةً، لاحظ الجميع ذلك ووقفوا ينظرون إليه في ذهول وترقب، فدوّر هنري رأسه حتى أصبحت فوهة المسدس على جبهته، ورفع عينه إلى دكرور ينظر إليه شزرًا وقال بغضب شديد:

- ألا تراني آكل؟!

ثم لم يتردّد دكرور أكثر، سحب زناد المسدس ولم يصدر منه إلا تكّة لم يرتدّ لها طرف هنري وظل يرمقه بثبات، وقال وقد قرّب جبهته أكثر:

- افعلها الآن بينما...

قاطعه دكرور بأن ضربه بكعب المسدس على رأسه بقوة فأفقده الوعي، وبينما الجميع يشاهدونه في ترقب؛ كان أوين قد جرّد كال وهالفور من أسلحتهما، وظل يرمقهما لمدة وهو يصوّب عليهما، قبل أن يرديهما في مكانهما، ثم التقط مافي بلطته الكبيرة التي كانت عند قدم هنري كأنه كان يخبّئها عنه، وأرادوا الخروج من تلك الحجرة التي أصبحت فوضى، فلاحظوا أن شادويك قد سبقهم إلى الخارج.

هرعوا وراءه وخرجوا إلى الممر فلم يدركوه إلا وهو يغيب ممسكًا بطنه، قبل أن يتوقفوا عند رؤية كوفن يخرج من حجرة مجاورة، رآهم فعَلَت وجهه علامات الذعر على الفور، وهرع يهرب من أمامهم قبل أن يرديه موريس في ظهره فسقط على وجهه دون حراك.

عادوا إلى القاعة الكبيرة فانهالت عليهم طلقات من أسفل، إذ كانت أرضية القاعة مكتظة بالرجال الذين كانوا نائمين ويبدو أنهم استيقظوا على صوت الطلقات، فاضطروهم إلى ركن من ذلك الممر ليحاصروهم ومنعوا عنهم طريق الخروج، فلم يكن هناك من مخرج من القاعة سوى باب بجانبهم، كان ممسمر إلى الحائط بثلاث خشبات بالعرض وليس له مقبض حتى، حاول أوين ودكرور أن يفتحاه، قبل أن يبعدهم مافي وينتزع الخشبات الثلاث بيده المجردة ثم ضرب الباب بقدمه فأسقطه.

دلفوا بسرعة إلى حجرة صغيرة مظلمة لها باب آخر، وبها مستوقد غريب الشكل، وقبعات بجميع الأشكال والأحجام ملقاة هنا وهناك منها المهترئ ومنها الجديد ومنها غير مكتمل، فبدت ورشة لصنع القبعات من نوع ما، ثم رفع دكرور وأوين الباب وأسنداه مكانه بكرسي، تبع ذلك وابلًا من الطلقات خلّفت وراءها صفوف من الفجوات المنفذة للضوء.

انبطحوا على الأرض ثم توقف إطلاق النيران بعد أن بادلوهم إياها، فأخذ أوين يحاول فتح الباب الآخر بكل قوته، وجلس مافي بجانبه يتألم ويضع يده

علــى جراحــه، فوقـف عمــار ومـوريس ودكـرور بـين البــابين، يصــوبون أسلحتهم نحو الباب الأول الذي سيسقط إذا دفعه أحد، وقال عمار:

- أوين! أظن أنه يجب أن تسرع!

وبينما كان ثلاثتهم يحملون أسلحتهم بتوتر وبعصبية شديدة أمـام أعيـنهم؛ قال موريس:

- عمار! يجب أن نحذر أطلس والرجال، إذا خرجنـا مـن هنـا فيجـب أن تسبقنا إليهم ولا تنتظرنا..

قال عمار بعد أن أخفض مسدسه:

- ماذا! هل جننتَ؟! لن يحدث هذا.. ربما لدي فكرة أفضل...

وعندما يقول عمار أنه لديه فكرة فذلك يعني أن هناك شيئًا على وشـك أن يحترق أو ينفجر، فأحضر ثلاثـة مصـابيح مـن الزيـت مـن علـى الجـدران، ووضع إثنين أمام المستوقد وفوقه، وأبقى الثالث في يده، ثم عاد إلـى مكانـه وعلى وجهه ابتسامة لملء شدقيه، فعلم موريس ماذا أراد أن يفعل فقال:

- حسنًا انتظر حتى يفتح أوين ذلك الباب.. وادعوا أن يكون المخرج

فنهض مافي يقول "اللعنة" بلغته الأصلية، وضرب البـاب بقدمـه ضـربةً واحدة أسقطته أمامه داخل غرفة أخرى، فدخلها وعاد يجلس متألمًا.

- الآن!

قالهـا عمــار بحمــاس، فـأطلقوا علــى المصــابيح فـانفجرت فــي المســتوقد فاشتعل بالكامل، ثم عاد رجال هنري يردّون إطلاق النيران، فانبطح الجميع إلا عمار الذي تسمّر في مكانه ينظر إلى النار في ذهول وإعجاب كعادته.

زحفوا إلى مافي في الغرفـة الأخـرى فكانـت متجـر القبعـات الـذي علـى الشارع الرئيسي، فوجدوه يسند ذراعه إلى برميل زيت صغير، ويضـع يـده الأخرى على بطنه الممتلئة بالطعنات، ينظر في أعينهم بعمـق وفتـور كأنـه يرى أرواحهم بداخل أجسادهم، فقال عمار وهو يحاول يائسًا حمل مافي:

- هيّا بنا يا مافي! سيحترق المكان بأكمله..

سعل مافي دمًا وقال بهدوء وابتسامة ضعيفة:

- أتعلمون.. أنا لستُ نادمًا على ترك الجوف، ولستُ مستاءً مما يحدث، أتعلم لماذا؟!

زفر ضحكة دامية وأردف:

- لأن هذه المرة سأموت على يد من يكرهني وأنا أدافع عمّن يحبّني، صحيح! والآن... والآن أتركوني.. فربما إن عشت بعد الآن لن تأتي فرصة مناسبة للموت كهذه مرة أخرى

قال موريس وهو يضع يدًا على كتفه المصاب:

- لن تموت اليوم!.. سنعيدك إلى أطلس الآن...

وضع أوين ذراع مافي على عاتقه وفعل دكرور المثل مع الذراع الآخر، وحاولا رفعه لكن ذراع مافي وحده كان في حجم ساق أحدهم، كما أنه بدا كأنه يثقل نفسه متعمدًا، فكان من المستحيل حتى على أربعتهم أن يرفعوه عن الأرض.

فتركه دكرور وأمسك بتلابيبه يهزه بعنف، من دون أن يجد شيئًا ليخبره به، سوى أن نظر في عينيه في غضب وعتاب، فابتسم مافي بلا مبالاة وتحسس وجه دكرور بيدٍ دامية فخضبه بالأحمر وقال:

- آه يا دكرور! من قال أنك أبكم؟! إن عينيك يتحدثان أفضل من الألسنة

بدأ المستوقد يصدر أصوات انفجارات، وبدأت النار تزحف على السقف، رأى مافي ذلك فقال في تأكد وثبات:

- اذهبوا وسأوفّر لكم بعض الوقت، إن بقيتم هنا فستموتون وحينها سيكون كل ما حدث اليوم بلا جدوى، وسيكون موتي أنا بلا فائدة، أرجوكم يا رفاق! لا تحرموني من هذا.. لا تحرموني من الموت في سبيل من أحب

سقط باب الغرفة الأخرى فألقى عمار المصباح الثالث عليه ليشتعل مكانه، فبدا كأنه أحد أبواب الجحيم وقد انفتح، تراجع رجال هنري من شدة النار وامتنعوا عن الدخول، ومن منهم كان شجاعًا كفاية لكي يعبر خلال النار أرداه أوين.

نهض موريس وأردى آخَرًا كان يحاول عبور باب الجحيم، وهو يبكي بحرقة كلما نظر إلى مافي، كأنه لم يبكِ في حياته من قبل، وبكى عمار وأوين بين يديه وهو يربّت على ظهورهم كأنهم أطفاله، وقال:

- أخبروا أطلس والبقية كيف مات مافي ابن ماني.. أخبروهم أني مت من أجلهم لأني أحبهم

ثم نظر إلى دكرور وأعطاه بلطته وأضاف:

- والآن يجب أن تذهبوا!.. أنا أحبكم يا رفاق.

نهض دكرور وهو يجذب أوين بشدة إذ كان يتشبث بملابس مافي بقوة، وفعل موريس المثل مع عمار، وكسروا باب المتجر بسهولة وخرجوا ليجدوا أنفسهم في الشارع الكبير الذي جاءوا منه.

وقفوا في منتصف الطريق وشاهدوا مافي وهو يحمل برميل الزيت بين أحضانه ويدخل به وسط النيران، وأثناء ما كان منهم يشاهد مندهشًا أو وهو يبكي؛ باغتتهم رصاصات آتية من الزقاق المظلم بجانب المتجر مباشرةً، لكنها لم تكن إلا بضع رصاصات قبل أن ينفجر المتجر، ويتهشم زجاجه إلى شظايا مصوّبة نحوهم، ويتهدم الزقاق على من فيه.

انبطحوا جميعًا وأصابت شظية خد دكرور ففتحته، وفي حين تراجع الجميع وانبطحوا، وكما هي عادته؛ وقف عمار يشاهد النار في ذهول.



(3)

الشارع هـادئ وسـاكن علـى نحـو يثيـر الوحشـة، خاليًـا مـن أي بشـر أو حيوان، مما جعله مظلمًـا رغـم وجـود مصـابيح زيـت الحـوت علـى جـانبي الطريق، ورغم وجود حريق كبير على أحد جانبي الطريق.

نبحت الكلاب ونعقت الغربان وصهلت الأحصنة؛ على إثر الصـوت، ثـم بـدأت نوافذ البيـوت والمبـاني تضـيء وتنفـتح، ويخـرج مـن بعضـها نسـاء يصرخن، وسرعان ما بدأ الناس يأتون ليشاهدوا الحريق دون أن يتدخلوا.

كان الرجال يقفون في زقاق صـغير مظلـم ومتـواري عـن العيـون وعـن الحريق الذي بدأ ينتقل إلى ما حول المتجر من مبانٍ، أشار دكرور إلى جهة الميناء الذي كان قريبًا، لكنهم توقفوا وبقـوا متـوارين فـي مكـانهم حـين بـدأ هنري ورجاله يَخرُجون ويُخرِجون المصابين، وسـمعوه يصـيح فـي رجالـه ويصرخ بطريقة مخيفة، لم يميزوا إن كانت صرخات الألم أم الغضب.

وكلما كان الحريق يكبر وينتقل مـن مبنـى إلـى آخـر؛ كلمـا ازداد الحشـد الذي يشاهد، ولا زال لا أحد يتدخل، أراد موريس أن يستغل ذلك وأشار إلى رفاقه ليتبعوه، وقبل أن يخرجوا من الزقاق أخذ قبعة دكرور من على رأسه ووضـعها علـى رأس أويـن وقـاد الطريـق، فسـار أربعـتهم خـلال الحشـد ملتصـقين ببعضـهم بشـدة، ومطـأطئين رؤوسـهم علـي صـدورهم، فسـاروا كالعميان حتي وصلوا إلى دائرة فـي منتصـف الحشـد يلتـف حولهـا النـاس، ويستلقي وسطها الجرحى وفاقدي الوعي والقتلى ومعظمهم كانوا محروقين.

ومن بينهم كان كوفن يستلقي نائمًا، وبجانبه كان شادويك يضع كلتي يديه على جرحه ويتلوى وينازع في ألم، وحين لاحظ موريس والرجال الـواقفين بجانبه؛ رفع عن جرحه يدًا يقطر منها الدم، وأشار إليهم وهـو بالكـاد قـادرًا على رفع ذراعه، ربما كان يريد أن يصرخ ويطلب النجدة، لكن ما فعل هو أن بدأ يبكي، ويشد رجلًا واقفًا بجانبـه مـن سـاقه دون أن يـتكلم، فكـان ذلـك الرجل هنري، فعاد الرجال من حيث أتوا واندمجوا مع الحشد قبل أن يلتفت هنري إلى شادويك ثم إلى حيث يشير ولم يجد شيئًا.

ساروا وسط الحشد حتى خرجوا منه، وأسرعوا الخطى في عكس اتجاه البحر، حتى بدأت أصوات الاحتراق وأصوات الناس تختفي، ويعود الشارع إلى هدوءه وخلوّه، إلا من بعض الناس كانوا يركضون باتجاه الحريق.

ثم استوقفهم عمار حين قال وهو يشير إلى أحد الشوارع المظلمة:

- أوين! الماخور.. إنه في ذلك الشارع صحيح؟!
- آه ربما، لا أدري.. تبًا! ماذا تريد؟
- ربما ما زال سيجورد هناك
- هذا صحيح، وربما سنجد هنري ورجاله هناك أيضًا

قال موريس:

- تمهل! هذا خطر!

ولم يدع دكرور مجالًا للمناقشة أكثر حين أخذ عمار من ذراعه ورافقه إلى الشارع حيث أشار، وهمس:

- إذا لم نجده هناك فسنعود...

فما كان من موريس وأوين إلا أن تبعاهم على مضض.

ساروا في شوارع مظلمة وضيقة وبيوتها تبدو فقيرة، طرق عمار باب أحدها تأتي من وراءه أصوات موسيقى وغناء خافتة، ففتحت امرأة بدينة وقبيحة وصرخت بضحكة مجلجلة أول ما رأت عمار وأوين، ثم قرصت عمار من خده حتى بدت أنها تنزعه عن وجهه وهي تقول:

- كنت أعلم أنكم ستعودون!

ثم حين أمسكته من يده وأرادت أن تدخله؛ جذبه موريس من ذراعه الآخر وهو ينظر إلى داخل المكان بريبة وقال للسيدة البدينة:

- معذرةً يا سيدتي، نحن فقط نبحث عن صديقنا...

أضاف أوين يتساءل:

- إنه ذلك الأصهب الذي أتى معنا هذه الليلة؟!

بدت المرأة متعجبة وهي تقول:

- هل كان صديقكم؟! لقد أتى هؤلاء الأغبياء الصُلع يسألون عنه، لكنني طردتهم وأعدتهم خائبين

قال عمار:

- إذًا هل تعلمين أين هو؟
- ربما.. لكن فلتدخلوا أولًا، الشراب مجانًا لأنكم جلبتم أصدقاءكم

قالتها وهي تقبض على ذراع دكرور وتتفرس فيه، فأدخلتهم وأجلستهم على طاولة متوارية بجانب المدخل، فقال لها موريس:

- أرجو أن تسرعي يا سيدتي! فنحن على عجلة من أمرنا
- لمَ العجلة ونحن في الثانية صباحًا؟ حسنًا سأحضر لكم ميلدريد، أعتقد أنها من كانت بصحبة صديقكم

لم يكن المكان خاليًا مثلما ينبغي للعالم أن يكون في تلك الساعة، بل كان صاخبًا ليس فقط بالأغاني والموسيقى، بل أيضًا بضحكات الرجال السكارى مع عاهرات من شتى الأشكال والأحجام، واللاتي لم يكُنّ عرايا لكن ملابسهن بدت كأنها تأبى أن تؤدي وظيفتها في ستر وعفة صاحبها.

رأى دكرور كل ذلك واستوقفته رؤية إحداهن تجلس بين أحضان رجل وترفع عنه قبعته وتكشف عن صلعه الذي أصبح مألوفًا، فلفت انتباه موريس إليه، فقال موريس في تعب شديد دون أن ينظر إلى الرجل:

- لقد رأيته.. لا تعبأ به كأنه غير موجود

لاحظ دكرور شحوب وجه موريس، وبدا يتألم من مجرد رفع جفنيه، فأشار دكرور إلى كتفه المصاب وأراد أن يكشفه ليرى الجرح بنفسه، لكن أبعده موريس وقال:

- قلت لك إنها لا شيء، لقد توقف النزيف بالفعل، لا تقلق يا دكرور.. لقد رأيت أسوأ من ذلك

كان أوين يضع رأسه على الطاولة ولا يتحرك فبدا أنه قد نام، وعمار بجانبه يفعل المثل لكن جسده يهتز من البكاء الصامت.

★★★

مثل تلك الأماكن كانت بمثابة منزل دكرور في زمن سابق، ومن المفترض أن يسعده تواجده فيه، لكن ليس وصديقه قد مات منذ ساعة، فكر دكرور في ذلك فتذكر أنه لم يبكِ مافي حتى الآن، وتعجب أنه نسيَ أن يحزن حين وجب عليه أن يفعل، فربّت على ظهر عمار وبدأ يشاركه بكاءه في هدوء، وهو يضع قطعة قماش حمراء على خده المفتوح.

ثم جاءت فتاة جميلة تحمل أربعة أكواب من الجعة، قدمتها إليهم وقالت:

- على حساب المكان.. تحيةً من السيدة جولدي!

رفع عمار رأسه ومسح وجهه المبتل بالدموع وقال للفتاة:

- سيدة لوريتا؟!
- عماار!!!

قالتها كأنها تريد أن يسمعها كل من بالمكان، ثم جلست بجانبه وضمته إليها وقالت في حنان كأنه ابنها:

- ماذا حدث؟.. ماذا أصابك يا عزيزي؟! سيكون كل شيء على ما يرام.. تعالَ معي...

قالتها وجذبته برفق، لكنه امتنع واشتد بكاؤه أكثر وهو يقول:

- لا شيء! فقط.. إنه صديقي...

زجره دكرور فلم يكمل كلامه، فجلست الفتاة بجانبه تواسيه حتى أتتهم امرأة أخرى أكبر منها، وقالت بضجر وتعب كأنها تطردهم:

- ماذا تريدون؟

قال أوين:

- سيدة ميلدريد؟!
- مهلًا! ألا أعرفك؟
- أعتقد!.. لقد جئنا أمس مع صديقنا هل تذكرينه؟ اسمه سيجورد.. إنه ذلك الطويل أحمر الشعر...

ولم تدعه يكمل، أمسكت بطنها بيد وخصرها بالأخرى فبدت كالحامل التي ستضع طفلها الآن، وقالت في وهن شديد:

- آه! وكيف أنسى ذلك البغل، ماذا عنه؟ لقد غادر بالفعل

دفع لها أوين بعملة على الطاولة، وقال موريس بعد أن اعتدل في جلسته:

- متى كان ذلك؟
- ربما منذ ساعة
- ألا تعرفين أين ذهب؟
- انظر! لقد جاء في قرابة التاسعة، ولا أعلم كم المدة التي مكث فيها معي، تبًا! لقد كان كمن لم يرَ امرأة في حياته، ثم حين ذهب وظننت أن العذاب قد انتهى؛ سرعان ما وجدته عائدًا لجولة أخرى وهذه المرة كان كأنه يودع جميع النساء من حياته، بعدها تركته نائمًا ولم يكن ذلك منتصف الليل بعد، حتى عدت إليه منذ ساعة ولم يكن هناك

وأضافت لوريتا:

- مهلًا أظن أنه ذلك الرجل الذي ظل يسأل السيدة جولدي عن أصدقائه ومتى ذهبوا، وأنه يجب أن يلحق بهم، لقد كان عصبيًا جدًا، وبعد أن غادر جاء أحد الجند الحوّاتين يسأل عنه فطردته السيدة جولدي

- أتمنى أن يكون قد ذهب إلى الجحيم قبل أن يذهب إلى أصدقائه

قالت ميلدريد ذلك فبدا اليأس على الجميع، حتى قال موريس:

- حسنًا سنعود الآن! وإن أراد سيجورد العودة فإنه يعرف الطريق

همس دكرور:

- ربما قد سبقنا بالفعل

وشعر بسذاجة ما قال حين قال أوين:

- وماذا إن كان قد هرب؟

رَد موريس:

- فليذهب إلى الجحيم إذًا

وقال عمار:

- وماذا إن كان لا يزال يبحث عنا؟ ماذا إن كانوا قد وجدوه بالفعل؟

قال عمار ذلك فهمّ دكرور بالرحيل على كل حال، وحين أراد عمار أن يتبعه ودّعته لوريتا بقبلة طويلة وسألته بأسى:

- هل ستعود؟
- لن أفعل يا سيدتي.. فنحن لا ننتمي إلى هنا، نحن نعيش في المحيط ونغرق على اليابسة
- سأنتظرك حتى تعود
- الموت سيكون أقرب إليكِ من عودتي

وأثناء ذلك لاحظ دكرور غياب الرجل الأصلع وفكر أنه قد خرج، وأخبر موريس فأسرعوا للخروج، وفور أن فتح أوين الباب جاء صوت يصيح من وراءهم من داخل المكان:

- توقفوا عندكم!

★★★

تبعه طلقات نارية تقصدهم، فخرجوا بسرعة وكان عمار آخر من خرج وركضوا من حيث أتوا، وما كادوا يخرجون من الشوارع المظلمة إلى الشارع الكبير؛ حتى عادت الطلقات التي تقصدهم فردّ دكرور وأوين عليها، حتى عاودوا الفرار.

وجدوا الشارع الكبير مضطربًا على عكس ما كان حين أتوا، ففضلوا عدم اتخاذه طريقًا إلى البحر لا سيما أنه نفسه الطريق إلى الحريق، فخرجوا منه إلى شارع أصغر ومنه إلى شارع آخر وإلى زقاق ثم إلى شارع آخر حتى بدأوا يتوهون عن اتجاه البحر، وخرجوا أخيرًا من زقاق إلى أرض واسعة، بدت كأرضٍ زراعية كانت مظلمة جدًا، ولا تزال جهة البحر مجهولة لهم في تلك الساعة المتأخرة من الليل، وتوقفوا وراء أحد البيوت ليلتقطوا أنفاسهم.

قال موريس وهو يلهث ويبحث من حوله عن شيء:

- أيعلم أحد في أي اتجاه كان البحر؟

قال أوين:

- إنها جزيرة لعينة يا موريس**!** أي اتجاه سيصلك إلى البحر**!**

اقترب دكرور من موريس ونظر إلى السماء التي كان لها نصف أسطع من الآخر بقليل، فأشار إلى النصف الأسطع وهمس:

- الميناء**!**... جهة الشروق**!**

قال موريس:

- حسنًا سننتظر الشروق، أرجو ألا ننتظر طويلًا

رَدّ أوين:

- لا يمكننا أن ننتظر الشروق.. هؤلاء الأوغاد الحوّاتون في كل مكان يبحثون عنا

قال عمار وهو يلتقط أنفاسه:

- آه! يجب أن... اللعنة! يجب أن نستريح قليلًا.. آه اللعنة!
- هل تعبتَ بالفعل؟ هل تريد أن نحملك أيضًا؟!
- تبًا لكَ يا أوين! أنا لا أشعر بساقي!

دنا منه دكرور وسأله:

- ما بكَ؟
- لا أعلم.. لقد تخدّرت ساقي، لا أشعر أني بخير يا دكرور، آه! أشعر بالمغص في ظهري

ضحك عمار وأراد أن يجلس في مكانه فساعده دكرور، وأسند ظهره إلى الحائط، فوجد ظهره مبتلًا فبلل يده، وحين لم يكن هناك سبيل لرؤية حتى يده؛ قرّب دكرور يده من أنفه ليتأكد من شيء لا يريد أن يتأكد منه، شمّ رائحة يعرفها أكثر من رائحة البحر، رائحة عادةً ما تكون مختلطة برائحة البول، لكن هذه المرة كانت صافية لا يشوبها شيء، كانت رائحة الدماء.

وحين تيقن دكرور من أنها كذلك همس بعصبية جعلت صوته الحادّ مسموعًا لكل من حوله:

- إنه دم!! أنتَ تنزف!

تعجب الجميع خاصةً عمار نفسه وقال:

- حقًا!!! آه اللعنة! لقد زاد الألم حين قلتها

قال موريس بقلق وعصبية:

- يجب أن نتحرك فورًا!

ساعد عمارَ كلًا من دكرور وأوين وبسط ذراعيه على أكتافهم، ثم حملاه عن الأرض فبدا كالجالس على كرسي طائر، ومن وراءهم كان موريس يهرول ولا يلحق بهم ويسند ذراعه المصاب داخل قميصه، وأثناء ذلك كان عمار يقول في شرود:

- هل تشمّون ذلك؟.. أم أن رائحة الحريق لم تذهب من أنفي حتى الآن؟

كانت هناك رائحة حريق في الجو بالفعل، وزادت حين عادوا إلى الشوارع، ثم وجدوا عربة يد بعجلات فوضعوا عمار فيها رغم تذمره واعتراضه، وجرى به دكرور أسرع وهو يهمس دون أن يسمعه أحد:

- لن نخسرك أنت الآخر.. اصمد حتى نعود إلى الجوف!

انعطفوا من شارع إلى آخر دون أن يغيروا وجهتهم، وسلكوه بطوله حتى وصلوا أخيرًا إلى البحر، كان شاطئ صغير متواريًا خلف البيوت، عليه بضعة قوارب صغيرة مقلوبة، فأخذ أوين أحدها إلى البحر وبالكاد اتسع القارب لأربعتهم.

بدأ دكرور وأوين في التجديف بقوة دون أن يحددوا وجهة، فقط يريدون الابتعاد عن تلك اليابسة قدر الإمكان، جلس موريس وعمار بين ذراعيه يحاول أن يبقيه مستفيقًا، وابتعدوا بما فيه الكفاية لكي يخرجوا من المياه الضحلة دون أن يبتعدوا كثيرًا عن الشاطئ.

احتضن موريس عمار بين ذراعيه يكلمه ويربّت عليه ليبقيه في وعيه، ثم توقف عن ذلك فجأة ونظر وراء دكرور وأوين وقال:

- فلتحل بي اللعنة!!!

نهض عمار مشدوهًا كأنه قد برِء من علته فجأة، ووقف بسرعة حتى كاد أن يسقط من على القارب، وشَخَص ببصره فاغرًا فاه في ذهول، كان دكرور يظن أن الفجر قد انبلج بالفعل، قبل أن يتوقف أوين عن التجديف وينظر وراءه هو الآخر، فالتفت دكرور ولم يكن نور الفجر، بل كان نور مدينة تحترق.

المدينة بأكملها كانت تحترق، كأن الجحيم نفسها قد أهدت قطعة منها إلى الأرض، فاختارت الأرض أن تضعها في هذا المكان بالذات، ارتفعت ألسنة اللهب لأضعاف طول البيوت التي تلتهمها، وأخذت تتماوج كأمواج بحرٍ عاصف، وتتلوّى كما تتلوّى السياط في أيدي الجلادين، حتى المياه التي أمام الميناء كانت تشتعل على طبقة الزيت الذي انسكب عليها، وجميع السفن والقوارب تقف بعيدًا عن مرافئها تشاهد بوقار وهدوء ما قد أصاب المدينة.

قال عمار وهو يشاهد ذلك باستغراق:

- اه! انظروا كم أن هذا جميل! لا أمانع أن يكون هذا آخر يوم في حياتي!

واتكأ على حافة القارب يشاهد تلك القطعة من الجحيم وهي تستعر، فضربه موريس على وجهه برفق وهو يقول:

- لا تنَم.. ابقَ معي!
- أتمنى لو رأى مافي ذلك بنفسه، على أحدهم أن يخبره أن موته لم يكُن بلا جدوى.. ربما يجب أن أذهب لأخبره بنفسي!

قالها عمار وبقيَ يشاهد في سكون من دون أن يشيح أو يجفل حتى، فأخذه موريس بين ذراعيه يهدهده ويكلمه بحنان، وتلك المرة سبق دكرور الأمور وتذكر أن يبكي، بكى هو وأوين وهما يجدفان بكل قوتهما، وبكى موريس وهو يحتضن عمار بين ذراعيه.



بدأت السماء تضيء البحر ببطء وتلك المرة كان الفجر هو ما يضيئها، فتبين لهم فتحة الخليج التي دخلوا منها أول ما جاءوا وجدفوا نحوها حتى خرجوا منها.

ابتعدوا كثيرًا عن الشاطئ وبدأ يختفي وإن لم يختفِ الميناء والحريق، وعمار لا يزال يشاهد من دون أي تعبير على ملامحه، ثم نظر أوين من حوله وقال لدكرور:

- أظن أننا ابتعدنا بما فيه الكفاية، المفترض أن يأتي أطلس بحلول الآن!

أومأ له دكرور وتوقفا عن التجديف، ثم نزل في المياه لعل أطلس يشم رائحتهم أو أي شيء، وسبح ونصفه في الماء بجانب عمار، الذي لم يلحظه إلا عندما أمسك بيده، فابتسم له ابتسامة واهنة، وعاد إلى شروده في الأفق والحريق البعيد، وظلوا على هذا الحال إلى أن بدأت السماء الغائمة تمطر، وقبل أن يتعجب أحد من أنهم في يوليو، تبين أنه رماد.

كاد دكرور أن ينام على صوت موريس وهو يغني بالفرنسية، وجفل مفزوعًا عندما سمع صوت انفجار مدوي، تبعه صوت صفير خافت أخذ يشتد، التفت بعصبية نحو الصوت فكان من عند سفينة بعيدة، فزعق موريس:

- إنه مدفع!!!

لم يرَ دكرور أي شيء سوى السفينة، حتى سقطت كرة مدفع سوداء بجانبه مباشرةً في الماء أحدثت فيه اضطرابًا، فاعتلى القارب بسرعة وأخذ هو وأوين يجدفان بعيدًا عنها، وإذ لم يكن هناك رياح فقد تنفسوا الصعداء حين بدا أنهم يسبقونها، حتى لاحظوا القوارب تنزل منها.

وإذ كان هناك خمسة مجدّفين على الأقل على قوارب التحويت؛ فلم يكن أمامهم فرصة ليسبقوها، أخذت القوارب تقترب أسرع من أن يبتعدوا عنها، واتضح لهم أنها أربعة قوارب أحدها كان فيه شيئًا غريبًا، فقال أوين:

- موريس!!!! ما هذا؟! ما هذا الذي على القارب؟!!

لكن موريس كان مشغولًا بالغناء لعمار الذي نام بالفعل، حتى سمعوا صوت انفجار آخر يأتي من القارب، فكان مدفع قد أطلَق حربة كبيرة طارت تقصدهم ويتصل من وراءها حبلًا، فأصابت هدفها مباشرةً.

أصابت الحربة القارب في منتصفه، فسمعوا صيحات البحارة التي تشبه حينما يصيبون حوتًا، وأخذوا يشدون الحبل ويسحبونهم، ودكرور وأوين يجدفان بكل قوّتهما في الاتجاه المعاكس دون جدوى، فتوقف دكرور وحاول انتزاع الحربة الراشقة في القارب وأيضًا دون جدوى، وأخرج أوين مسدسه وأطلق عليهم وهو يصرخ فيهم بكل ما أوتيَ من صوت، ولم يضرب سوى طلقتين حتى فرغ مسدسه، فخفضه كأنه أصبح ثقيلًا.

وجد دكرور موريس يحتضن عمار النائم بين ذراعيه وهو شارد كأنه ليس معهم في هذا العالم، وأوين يلتفت من حوله ويرتعد كأنه تائه، فوضع يدًا على كتفه ونظر في عينه المشتتة واحتواه بين ذراعيه، كأن لم يكن يعبأ بأي شيء آخر سوى أن يطمئن صديقه ويشعره بالأمان لآخر مرة.

حينها رأى دكرور بلطة مافي بجانبه، فترك أوين وأخذها وأراد أن يقطع حبل الحربة الراشقة في القارب، وقبل أن يضرب بها استوقفه الصوت الذي نسيَ أنه كان ينتظر سماعه منذ أن عاد إلى المياه، وقبل حتى أن يلتفت إليه كان أطلس قد غاص في الماء من تحت قارب التحويت ليدفعه برأسه ويسقط مَن عليه، وإذ كان ذلك القارب لا يزال متصلًا بقاربهم فقد انقلبوا هم أيضًا، وطُرِح جميع الرجال في الماء.

الفصل الثالث عشر

"دِمَاء الحَيَاة"

(1)

لم يعلم أي مِن سُكان أطلس مِمّن في جوفه بأنه كان على شفا الموت، فكلهم كانوا مستيقظين ومنشغلين بالرجل الجديد ساكن كيانج الذي وجده أطلس فوق جثة كيانج، والذي لم يفعل سوى البكاء منذ أن دخل، مؤكد أنهم أيضًا قد أحسوا بالاختناق وضيق النَّفَس، بعد أن نفد الهواء من رئة أطلس ومن كل جسده.

كان أطلس قد خرج من الممر الضيق في الجليد إلى فضاء المحيط وهو بالكاد قادرًا على الحركة، فكان يشعر بالفتور والضعف الشديدين ليجد السطح أعلاه بعيدًا، لكنه السطح على كل حال، فجاهد لبذل آخر قطرتين من قوّته ليسبح لأعلى، وبما أنه كان قد زفر كل ما في رئتيه من هواء وهو تحت الماء؛ فقد سحب نفَسًا صغيرًا من الماء المالح البارد ليغمر رئتيه، قبل لحظة من وصوله للسطح.

نفث نفثة قصيرة ثخينة يختلط هواؤها بالماء، أتبعها بنَفَسٍ طويل أعاد إليه الحياة، دون أن يعيد إليه حيويته، فكان كمن أصاب الخدر كامل جسده لمدة، وهو في مكانه يشهق ويزفر باستمرار.

أول الأمر لم يعلم أين هو أو لأين يتجه، استعاد عقله ليدرك أنه لم يعد يشعر برجاله، وبدأ يسبح ببطء نحو الجزيرة حيث تركهم، والتي كان قد نسيَ مكانها، لكنه يعلم الشمال والجنوب، فتذكر أنه في الشَّمال وأن تلك الجزيرة في الجنوب، فتوجه ناحية الجنوب على كل حال.

كان أطلس يشعر بالإعياء والسقم طوال طريقه من بحر الجليد إلى الجزيرة التي عليها بقية رجاله، وذلك ما جعل سرعته أبطأ كثيرًا، ولم يسبح تحت السطح كثيرًا، فهو لا يزال يحتاج لأن يتنفس أكثر من المعتاد، كما أن نَفَسَه صار أقصر من المعتاد، واستغرق في السباحة طوال الليل وحتى بدأ الفجر يبزغ، إلى أن عاوده الشعور برجاله.

إضافةً إلى شعوره المعتاد برجاله عندما يكونون في المياه؛ شعر أطلس بالصداع، والذي لم يشعر به قويًا هكذا منذ أن وصل آخر الوافدين جوفه، بل كان أشد هذه المرة، والأغرب أنه أيضًا يأتي من عند رجاله، كأنه يشعر بهم لأول مرة يركبون البحر بعد أن ارتكبوا الإثم على البر.

كان شعوره بهم في المياه مرة أخرى مما سهل عليه إيجاد الجزيرة، فرجع إليها بسرعة بعد أن كان قد تخطاها بمسافة ويسبح مبتعدًا عنها، عازمًا على اللحاق بهم هذه المرة قبل أن يرجعوا إلى اليابسة.

وصل إلى الجزيرة أخيرًا، وظل يسبح بمحاذاة شاطئها ليصل إلى جهتها الأخرى التي كانت عندها رجاله، وجد سفينة تحويت قريبة فغاص وبدأ ينعطف عن الشاطئ إلى المياه العميقة، أنزلت السفينة قواربًا تجدّف نحو قارب آخر، أدرك أنه الذي عليه رجاله.

فكان ذلك، والصداع في رأسه؛ ما جعله يدرك أنهم في موقف حرج، فلم يعبأ بالسفينة أو بقواربها وعاد يسبح بسرعة إلى السطح متوجهًا إليهم، لكن كان أحد القوارب يقترب كثيرًا من القارب الوحيد، فظهر على السطح من وراء كل القوارب، ونفث بقوة، ومن ثمّ أراد أن يفتك بالقوارب الواحد تلو الآخر، لكنه لم امتنع رغمًا عنه لأنه لا يقتل بشريًّا، فنزل من تحته، وبدفعة بسيطة برأسه طار القارب بمن عليه، ولم يعلم كيف؛ لكن قارب رجاله انقلب هو الآخر.

سبح إليه إثنين منهم ودخلوا جوفه، وظل ينتظر البقية تحت السطح، ولما لم ينزلوا إليه؛ بادر هو بالتقام إثنين آخرَين، وظل ينتظر البقية لكنه لا يجدهم، ولم يقتنع بأن جميع رجاله قد عادوا، ربما لم يعلم الأعداد أو الحساب، لكنه بالتأكيد كان يعلم أنهم ليسوا أربعة فقط.

وظل يبحث عنهم بين البحارة الذين في الماء، فشكّ أنهم على القوارب الأخرى، فاخترق السطح بين قاربين بجانب بعضهما، فقلبهما بمن عليهما وأخذ يبحث بين الغرقى، وأيضًا دون جدوى، ثم لم يبقَ سوى قارب أخير قلَبَه هو الآخر، وهذا أيضًا لم يكن عليه رجاله.

يعلم أنهم ليسوا على السفينة أيضًا فلم يقربها، ثم فكر أنه لا شك في أنهم لا يزالون على اليابسة، فظل بالقرب منها يسبح تحت الماء، إلى أن لاحظ أن أحد رجاله العائدين مصابًا، وعلم بعدها أن الإثنين اللذان لم يعودا أحدهما مات، والآخر مفقود.

ربما لم يستوعب الأمر، فلم يُرِد أن يصدقه على الفور، فظل حول اليابسة، ثم لم يمكث كثيرًا حتى شعر بشيء يوخزه في ظهره، ولم يمكث كثيرًا حتى علم أنها حربة.



لم يكن سوى سامبار مستيقظًا حينما عادوا إلى الجوف، قال بسعادة فور أن رآهم:

- لقد عدتم سريعًا!

تلاشت سعادته بسرعة بعد أن عدّهم أربعة وليس ستة كما كانوا في آخر مرة يراهم، وشرع يبكي بعد أن رأى أحدهم فاقدًا لوعيه.

كان أطلس يئنّ بغنائه كأنه ينعي المفقودين أو يسأل عنهم، ووضع كلّا من أوين ودكرور عمار برفق، بينما قال موريس لسامبار بوهن:

- سامبار!.. أريدكَ أن تُخرج رصاصة من كتفي

لكن سامبار لم يكن قادرًا على الوقوف حتى، فتجاهل موريس وسار إلى عمار وهوى بجانبه يضع رأسه على صدره، واحتضنه وعلا بكاؤه قبل أن يسمع له نبضًا، وارتفعت أغنية أطلس فجأة، وتوالت صافراته غليظة شديدة، استيقظ النائمون على إثرها يصفقون في مرح وحماس، واستغرق منهم الأمر بعض الوقت حتى انطفأ حماسهم، بعد أن لاحظوا بكاء سامبار على صدر عمار، لكن لا يبدو أنهم لاحظوا أن هناك إثنين منهم غير موجودين، فقال رالف:

- اللعنة! ماذا حدث لكم؟!! كأنكم عدتم من حرب!

قال موريس وهو يتألم ويحاول إخراج رصاصته بنفسه:

- رالف! أرجوك! هناك رصاصة في كتفي...

وسرعان ما علَت صرخات مكتومة من موريس بينما كان رالف يعالج كتفه، وارتفع صوت أطلس واحتدّ، بينما قال أوساي:

- مهلًا أين مافي؟

وبدأ في النحيب، وأضاف دييجو وهو بجانب عمار:

- وأين سيجورد؟!!

وجهوا الكلام إلى دكرور وأوين اللذان كانا يقفان شاردين؛ فلم يجيبا، حتى اقترب منهما بوهاردي وقال بنبرة غاضبة كأنه يبصق عليهما:

- ستخبراني بما حدث.. الآن!!!

وكأن دكرور لم يكن يدرك أنه قد عاد إلى الجوف إلا الآن؛ نظر إلى بوهاردي نظرة خالية، وفي اللحظة التالية أمسكه من رداءه وألصقه هو وأوين بجدار الجوف القائم، ووضع أوين خنجر دييجو على رقبته وقال:

- لم لا تخبرنا أنتَ بما حدث؟! هه!! منذ خمس سنوات؟

تساءل بوهاردي وهو مندهش أكثر مما هو خائف:

- عمّ تتكلم؟

قال دكرور بانفعال شديد:

- ماذا حدث منذ خمس سنوات؟ قبل أن آتي إلى هنا بيومين.. عندما هرب هنري...

قال أوين:

- ألم تكن النائم الوحيد حينها؟ نريدكَ أن تذكرنا بما حدث

قال بوهاردي بسأم وتوتر:

- ما الذي تهذون به؟! لقد قلتُ لكم أن أطلس...

قاطعه دكرور بأن قبض على رداءه أكثر وقال بحِدة أكبر:

- لا لا!! لا نريد أن نسمع الهراء الذي أخبرتنا من قبل، هذه المرة ستقول الصدق، وإلا أقسم أن أقتلكَ وهذه المرة سأحرص على ألا يعيدكَ أحد

قال دييجو:

- ماذا تفعلون أيها الأغبياء؟! إنه بوهاردي!! أعطني خنجري يا أوين وسنتكلم بهدوء، فقط أخبرونا بما حدث هناك

رَد عليه موريس بعد أن هدأ وقد أخرج رالف الرصاصة منه:

- تريد أن تعرف ماذا حدث؟ حسنًا.. لقد قابلنا هنري على جزيرة نانتوكيت، وهو نفسه الذي قتل نون، وهو نفسه صاحب السفينة العاهرة، ورجاله هم من فعلوا ذلك بعمار، وقتلوا مافي، وسيجورد مفقود، هذا كل شيء تقريبًا.. هل نسيت شيئًا يا رفاق؟! أه! وهناك سفينة تبحث عن أطلس خاصةً لتقتله

ازداد نحيب أوساي، وظل الجميع يحدق في الجميع بعيون دامعة، إلى أن قال أوين:

- والآن دورك!

دفعه بوهاردي عنه وأبعد دكرور، وهو يقول:

- حسنًا!.. اللعنة! لم يكن ذلك في الحسبان...

وأضاف في توتر وحيرة:

- بالفعل لم أرَ هنري في ذاكَ الحلم، لم يكن هناك أحد في المياه، لكن كان هناك قارب وكنتُ أعلم أن عليه هنري، ثم اختفى القارب قبل أن

يصله أطلس، بعدها أخبرني أطلس أنه نزل على اليابسة، وأخبرته أنه لا يجب أن نخبركم لكي لا تشعرون بالضيق، أو حتى تحذون حذوه

كان دييجو قد استعاد خنجره، وعاد أوين يمسك بوهاردي من تلابيبه وكوّر قبضته أمام وجهه، لكنه لم يفعل أكثر من ذلك، فجلس بوهاردي يبكي في مكانه ويقول:

- أنا السبب! أنا آسف يا رفاق!

وتركه أوين وأخذ يسب ويلعن بعصبية، وسار حتى وقف في منتصف الجوف فرفع صوته وقال بحِدّة:

- أتعلم!.. لستَ أنتَ يا بوهاردي من يدين لنا بالاعتذار.. إنه من كذب علينا في المقام الأول

قالها في تحدٍ وهو ينظر حوله، فقال له رالف:

- أوين! لا تنسَ نفسك!

وقبل أن يبدأ في المشاحنة قاطعهم دييجو:

- انتظروا! اسكتوا واسمعوا.. اسمعوا!

سكت الجميع على الفور لما وجدوه يضع أذنه على صدر عمار، وقال بعد برهة:

- إنه حي!



قال موريس:

- ومن قال أنه مات!

ذهب دكرور وتأكد من الأمر بنفسه فوجده بالفعل يتنفس وسمع نبضًا واهنًا، فقال بحزم:

- حسنًا لابد أنه يحتاج لبعض الوقت، سنتركه ليُشفى وحده

قال سامبار وهو يبكي:

- لن يفعل الانتظار شيئًا، الجوف لن يشفيه، إنه فقط.. يؤخّر موته فقط
- إذًا يمكننا إعادته.. أعني إن كانت روحه لا تزال فيه

قال بوهاردي:

- دكرور**!** أرجوك**!** لا تفعل ذلك.. ما فائدة أن تعيده وتموت أنتَ؟**!** صدقني.. اعتراض الموت لن يجدي شيئًا
- كما أن اعتراضي لن يجدي شيئًا، ابتعد عني**!**..

قال سامبار:

- إذًا أنا من سيفعلها
- أنتَ بالذات لن أسمح لكَ

وقال أوين:

- أنا من سيفعلها، هذه فرصة لا بأس بها للموت، إنه أنا من كان يجب أن يموت وليس مافي أو عمار

وقال أوساي ووجهه مبتل بدموعه:

- لا عليكَ يا أوين، ربما هذا جسد قزم لكن...

قاطعه دكرور بانفعال:

- يا رفاق**!** أنا من فعل به ذلك، أنا من أخذته معنا إلى ذلك الجحيم، وأنا من سأمنحه جسدي، كما أنني آخر من أتى هنا ولن يحزن عليّ أحد

رَد أطلس بصافرة عالية، ورَد موريس:

- لا تقل ذلك يا دكرور، لا يهم كم بقيتَ معنا.. أنتَ أحدنا

ثم قال أوين لدكرور بهدوء:

- حسنًا جاءتني فكرة.. لم لا نقترع؟

ربما كانت فكرة ألمعية بالفعل، فلطالما كانت القرعة الطريقة المثلى للاختيار بينهم في الألعاب، لكن تلك المرة كانت للاختيار بين من منهم سيموت، وبالرغم من أنها طريقة عادلة إلا أنها ليست دائمًا طريقة حكيمة، فقط دكرور لم يُبدِ اعتراضه للفكرة وإن كان يعلم أن لا مفر منها.

أتى أوين بسبعة أعواد صغيرة بسبعة أسهم وميّز أحدها، وأمسكهم في يده بحيث لا يبدو العود المميز لمن يسحبه، شارك الجميع إلا بوهاردي بالطبع، فقد كان يجلس بينهم لكن في وجوم وانكسار.

وجلس أوين بينهم ومَدّ يده التي تحمل أسهم القرعة أمامه، ونظر في عين كل واحد منهم، وكل واحد منهم نظر في عين الآخر، ثم ثبتت أبصارهم على يد أوين، وظلوا يرمقونها لمدة قبل أن يسحب موريس سهمه، وبعده سحب الجميع أسهمهم بسرعة، لكن دون أن يتفقدوها بنفس السرعة.

ابتلع دكرور ريقه ونظر إلى سهمه فلم يكن هو، فعاد ينظر إلى الجميع ولم يتبين أيهم أيضًا، إذ لم يبدُ على أي منهم أي شيء، وعادوا ينظرون إلى بعضهم، وربما أراد من وقعت عليه القرعة أن يخبر بذلك لكنهم سمعوا أحدًا من خارج الحلقة التي يجلسون فيها يقول:

- أيها السادة! ليس على أحد منكم أن يضحي لأجل أحد منكم، لقد قررتُ أمري..

ظنه دكرور عمار وقد أفاق فكاد قلبه أن يتوقف من السعادة، لكنه كان شخصًا آخر لم يرَه من قبل، فكر على الفور أنه ساكن آخَر للجوف حتى قال:

- اسمحوا لي أن أمنح جسدي لهذا الفتى، آمَل ألا تمانع يا سيد بوهاردي

- لا يهمني! افعل ما تشاء

وقال موريس:

- من هذا؟

رَد رالف:

- إنه يوزي...

قاطعه أوين بتعجب:

- وافد جديد؟
- نعم.. لا! بل إنه... كان يسكن حوتًا آخر



(2)

يعلم دكرور أن يوزي يشبه ذلك الصنف من البشر ضيّقي العيون، الذين يعيشون على الجانب الآخر من العالم الذي يعرفه، فقد رأى منهم -وقتل منهم- كثيرًا على سفن التحويت.

كان يشمئز منهم بشكل خاص، ولم يجد أحدهم وسيمًا أو حسن الملامح، لكن هذا كان عكسهم بغض النظر عن عينيه الضيقتين المسحوبتين وشحوب بشرته، فكان طويل الوجه عريض الفك، جسده فيه نحول لكن يبدو شديدًا رغم ذلك.

قال يوزي كأنه يجاهد ألا ينهار:

- لقد مات كيانج منذ... ربما يومين، و... التقمني أطلس

نظر دكرور إلى أوين وقد ضيق عينيه كأنه يسأله شيئًا، فوجده يبادله النظر لكن بدهشه وخوف، رأى ذلك فتذكر بعد برهة أين سمع اسم كيانج من قبل، إنه الحوت الذي أخبرهم هنري أنه يبحث عنه في المحيط الهادي.

سأل موريس يوزي:

- هل يصادف أن كيانج كان حوت أزرق
- بلا!

تعجب الجميع ونظروا إلى موريس في ترقب، فطأطأ رأسه وقال بيأس:

- هل تذكرون عندما أخبرتكم أن هناك سفينة تبحث عن أطلس خصيصًا لتقتله؟! حسنًا لقد كنت مخطئًا، ربما هناك ثلاث سفن تبحث عنه الآن

قال دكرور:

- حسنًا يا سيد يوزي! نحن نشكرك على تضحيتك الثمينة...

وأضاف وهو يشير إلى عمار:

- حينما تكون مستعدًّا!

أومأ يوزي إليه في تأكد، فقام دييجو وقال:

- مهلًا يا دكرور انتظر!.. هل أنت متأكد يا يوزي؟ ليس عليك فعل ذلك من أجلنا

ابتسم يوزي ابتسامة حزينة وقال:

- من قال أني أفعل ذلك من أجلكم؟ ماذا أفعل هنا على كل حال؟ هل تحسبني راضيًا أني على قيد الحياة بينما إخوتي وكيانج... اللعنة! أنا حقًّا ممتن لكم يا رفاق ولأطلس أيضًا، لكنني فقط أريد أن ألحق بإخواني وبكيانج حتى وإن كانوا في الجحيم، ينبغي أن أكون معهم كما كنتُ طوال حياتي

ثم توجه إلى عمار وأشار إليه وهو يقول بنبرة باكية:

- انظروا إلى أنفسكم! لقد فقدتم صوابكم حين فقدتم أحدكم، فما بالكم بمن فقد جميع من لديه

غلبه البكاء مرة أخرى وأردف:

- مر يومين فقط على ما حدث ولا أطيق العيش بالفعل، فكيف يكون العيش هكذا إلى الأبد

ثم كفّ عن بكائه وقال بثبات:

- إن لم تريدوا أن أفعل الانتقال لهذا الفتى فسأقتل نفسي على كل حال

قال دكرور:

- لا داعي لأن تقتل نفسك ويذهب جسدك دون جدوى، فقط قم بعملك ولن يمنعك أحد

أومأ له يوزي في ثقة ثم جثا في مكانه وأخرج خنجره، فاستوقفه رالف بسرعة:

- انتظر يا يوزي! قبل أن تفعل.. هلا أخبرتنا عمّا حدث لكيانج

ثم أردف موضحًا:

- لقد أتى منذ بضع ساعات ولم يكف عن البكاء من حينها

قال يوزي كأنه قد تذكر شيئًا مهم:

- أه حسنًا! أعتقد أن من حقكم أن تعلموا...

وأضاف:

- كان يومًا عاديًا عندما خرجنا لنغرق سفينة تحويت عادية، حتى أنه كان هناك حوت قد اصطادوه معلقًا إلى جانب السفينة، وعندما صعدنا وجدناهم لا يزالون يعملون عليه، وقبل حتى أن يبدأ القتال.. سمعنا دوي المدافع تضرب كيانج في المياه، ثم في اللحظة التالية سمعنا دوي الرصاصات تضرب فينا، وقد ترك كل من كان يفعل شيئًا ما

كان يفعل، ودون أن يسألونا من نحن.. دوّروا القتل فينا حتى لم يبقَ منا سوى ثلاثة، أتعلمون أنا حقًا لا ألومهم.. فقد فعلنا فيهم أكثر من ذلك بكثير.. صحيح؟

ابتسم يوزي وسكت، ثم عاد موريس يسأله:

- ماذا عن كيانج؟
- ضربوه بمدافع تطلق حرابًا عادية وحرابًا متفجرة، كان كيانج عظيم الحجم أكبر من أطلس حتى، أخذ يضرب كل شيء من حوله حتى حطم تلك المدافع المثبتة على السفينة، وخلص نفسه منها وإن كانت الحراب لا تزال راشقة في جسمه، كل ذلك بينما كنا نشاهد مجبَرين، ثم ضرب كيانج السفينة بذيله ضربة كادت أن تقلبها بكل مَن عليها، لكن أنا فقط من انقلب مِن عليها، فالتقمني وابتعد وهو يجر وراءه حبال الحراب الغائرة في ظهره

سكت يبتلع ريقه ويمسح جبينه المتعرق وأردف:

- أخرجني كيانج من جوفه بعد يوم تقريبًا لأجد أطلس بجانبه، بعدها مات كيانج... كيانج العظيم مات متأثرًا بجراحه.. أعتقد أن هذا كل شيء، هل تريدون شيئًا آخر؟



لم يكف أوساي وسامبار عن البكاء، وبوهاردي واجمًا مكفهرًّا، ولم يكف أوين عن عصبيته التي تثير التوتر في من حوله، وموريس يبدو على وشك الانهيار رغم أنه واقفًا على قدميه، فقط دييجو ورالف ودكرور من كانوا يُبدون الثبات، لكن لم يُبدِ دكرور الألم الذي في بطنه من الخوف ومما آلت إليه الأمور، ولا الألم الذي في حلقه من دفع البكاء والسقم، ولا الألم الذي في قلبه من شدة الحزن على أصدقائه.

وحين لم يجِبه أحدًا قال يوزي:

- حسنًا.. ما اسم هذا الفتى؟
- عمار!

أجابه دييجو، فأومأ له يوزي واتجه نحو عمار حاملًا خنجره في يده وهو يبحث عن شيء في الأرض، فتوقف على مقربة من عمار، فاستوقفه دكرور وقال بتردّد وخوف:

- عذرًا يا سيد! لكن هل تعرف ما تفعل؟!

ابتسم له يوزي كأنه يهزأ من كلامه ورَد:

- لا تقلق.. نحن بارعون في الانتقال، فعلناه خمس مرات، حتى أننا فكرنا أن نفعلها مع كيانج نفسه

عاد إلى عمار ثم جثا بجانبه على ركبتيه، وغرس نصل خنجره في أحد الشقوق التي يجري فيها النور من تحته، وفتحه ليتسع أكثر وثبته هكذا، ثم وضع فيه أربعة أصابع يعترض بها طريق جريان السائل، وقال في شرود واستغراق وهو ينظر إلى ما يصنع:

- دماء الحياة! هل كنتم تعلمون أنه ما يجذب تلك الحيتان إلينا بعد أن نفِرّ إلى البحر؟ أو هذا ما نعتقد

صعد النور السائل من الشق وسار على كفه ببطء، فانحنى يوزي ووضع فمه على رسغه وشرب من دماء الحياة.

شرب شربة واحدة كأنه يتذوقه، ثم رفع رأسه عن يده وقال:

- ليس سيئًا كما يقولون!

بدا مخيفًا وهو يتكلم بشفتين يضيئان بالأصفر، لم يقطر السائل على ذقنه كما يحدث عند شرب أي شيء، بل كان يتقاطر في الهواء على شكل كرات صغيرة كالزئبق، ثم تجمع السائل في كفه وبدأ يصعد على ذراعه، فلعق ما كان منه على ساعده ورسغه وعاد يشرب من كفه، وتلك المرة أطال

الجرعة وبدا أنه يتلذذ به، ثم رفع رأسه فظنوا أنه قد انتهى، لكنه كان يلتقط أنفاسه ليعود مرة أخرى ليشرب.

ارتوى يوزي من دماء الحياة، فمسح فمه بظهر يده، ثم سحب خنجره من الشق وأسرع إلى عمار كأنه تذكره فجأة، ووضع رأسه على صدره وقال بعد برهة وقد بدا عليه الارتياح:

- هناك روح في ذلك الجسد، أتدرون كيف تعرفون؟.. تكون الروح في الجسد الذي فيه قلبًا ينبض

عاد يرفع رأسه فكانت عينيه بلون الذهب كشمسين، تشعان النور الأصفر من تحت جفونه الضيقة، ثم قال بعد أن اطمأن:

- حسنًا إذًا! لم يبقَ سوى آخر شيء، لكن يجب أن ننتظر قليلًا

وبقيَ جالسًا لمدة لا يفعل شيء، إلى أن قال أوين:

- معذرةً يا يوزي! هل تعرف أحدًا اسمه كال؟... كالتوكي؟!

تعجب يوزي وانتبه إليهم وقال:

- لا أعرف سوى كالتوكي واحد! هل قابلتموه عندما كنتم... أين كنتم؟
- قابلناه في نانتوكيت في أمريكا
- اللعنة! كانت آخر مرة أراه فيها منذ خمس وعشرين سنة، كنا عند ساحل تشيلي تقريبًا
- وكيف هرب؟
- مهلًا يا سيد! لا أريد أن أنشغل بتلك الأمور وأنا على وشك الموت، فقط أريد أن أموت وأنا مرتاح البال، ربما سيخبركم عمار بكل شيء عندما يستيقظ.. إنه يبدو فتًى طيبًا

ربّت على صدر عمار الراقد بجانبه وقال بابتسامة:

- ربما لن يعجبك ما سوف تراه يا سيد عمار.. لكن لا تحكم

ثم ضحك وأردف في شرود:

- أخبِروه ألا يحكم عليّ، أخبروا عمار أنــي كنـت صــال... اللعنـة! فقـط أخبروه أني لم أكن وغدًا بالكامل

وعاد إلى سكونه وسكوته، ثم قال بعد مدة وهو يقلب خنجره في يده:

- اللعنة! استغرق الأمر أكثر مما حسبت!

وأردف بحماس:

- هيـا يـا رفـاق! مـن مـنكم صــاحب ذلـك النـاي وتلـك الكمنجـة؟ لـم لا تسمِعونا شيئًا؟

كان سامبار قد كف عن البكاء وإن كان لا يزال شاردًا، فقام وجلب النـاي وبدأ يعزف لحن أغنية اسمها "نـداء المحـيط"، فشـرد الجميـع علـى الفـور، وقال يوزي:

- آآه! سيكون هذا جيدًا.

قالها واستلقى بجانب عمار وشبك ذراعه بذراعه، وأرخى يده التي تحمل خنجره على صدره، وسرعان ما بدأ أوساي في الغناء:

قِف عند حافة المياه الضحلة وانصت!

وسوف تسمع نداءه

ومتى ضربت العاصفة.. سيكون في انتظارك

لأنه العاصفة والهدوء الذي يسبقها

قِف عند حافة المياه الضحلة وانصت!

وسوف تسمع نداءه.. سوف تسمع نداءه

للمحيط ألف عين.. لن يغمض أي منها

لكي يتفقدك بها.. ولن تكون وحيدًا أبدًا

قِف عند حافة المياه الضحلة وانصت!

وسوف تسمع نداءه.. سوف تسمع نداءه

وأينما ضعتَ فيه.. لسوف يجدكَ من بين موجاته

فقط لا تعود إلى الشاطئ

قِف عند حافة المياه الضحلة وانصت!

وسوف تسمع نداءه.. سوف تسمع نداءه

قِف عند حافة المياه الضحلة وانصت!

وسوف تسمع نداءه

وقبل أن ينتهي أوساي من الغناء رفع يوزي خنجره وتحسس به صدر عمار حتى توقف بسنّه فوق منتصف صدره، حينها تردّد دكرور في الأمر برمته، فلم يعلم ما الذي يحدث وما نتيجته كأنه نسيَ، وأراد أن يذهب إليه ويوقفه، لكنه تراجع ووقف يشاهد مثل الجميع عندما بدأ يوزي يغرس الخنجر ببطء.

لم يبدُ على عمار التألم، فقط كان كأنه يرى حلمًا مزعجًا، سحب نفسًا أخيرًا فانتفخ صدره وارتفع ظهره عن الأرض فغار الخنجر فيه أكثر، فارتخت قبضة يوزي عليه وأسبل جفونه، من ثم عاد عمار يزفر بوهن وسكن تمامًا، ثم كف سامبار عن العزف ومن بعده كف أوساي عن الغناء.

سكت كل صوت، وسكنت كل حركة، وتوقف العالم كله لبرهة، قبل أن ينتفض يوزي بسرعة وهو يجحظ بعينيه الصفراء، ويتنفس بسرعة وبصوت حاد، ويضع يده على صدره، ثم قال بعصبية وهو يلهث:

- آه! يا رفاق! إن أطلس... لقد رأيت أطلس!... آآه! إنه مصاب بحربة!



(3)

قالها وهو يتألم كأنه هو المصاب بحربة، ثم ارتمى على جانبه يتألم ويتلوى في تشنّج، وبدأ يبكي من شدة الألم ويطلق صرخات مكتومة من بين أسنانه التي يجز عليها بشدة، وهو لا يزال ممسكًا بصدره ويشد رداءه فبدا أنه يريد انتزاع قلبه من داخل صدره، وأثناء ذلك تقيأ شيئًا من النور السائل فاعتدل بسرعة يجثو على ركبتيه يفرغ ما في معدته من دماء الحياة، فبدا عليه الارتياح وهو ينظر إلى ما قد خرج من بطنه وحدق فيه بتعجب واشمئزاز، ثم قال:

- ماذا! ما هذا؟ متى عدنا إلى الجوف؟

نظر من حوله وفرك جبهته وهو يغمض عينيه بقوة كأنه يعصر الأفكار منها، فجثا موريس إليه وقال:

- ما هو آخر ما تتذكر؟
- آه! كانت المدينة تحترق، وكنا على القارب و... لا مهلًا! بل كنتُ في المياه.. كان أطلس هناك، وكيانج أيضًا.. كيانج؟!!

وأضاف كأنه يكلم نفسه:

- ما هذا... متى حدث ذلك؟ أه! كأنه كان حلم أو... أه! لا أدري

قال موريس بحنان:

- نعم لقد كان حلمًا، فقط حاول ألا تفكر في أي شيء الآن

وقال بوهاردي بقلق:

- لقد قلتَ أن أطلس مصاب بحربة!

فانتبه له باهتمام وقال:

- نعم! هذا هو ما كنتُ أحلم به، لكن لا أدري...

قاطعه موريس بسرعة:

- حسنٌ لا بأس.. رالف، دييجو! اخرجا وانظرا في أمر تلك الحربة، لمَ لا ترافقهم يا بوهاردي؟

لكن بوهاردي أشاح عنه وهو يتمتم بالسباب، وأخذ أوساي ربما ليواسوا بعضهما، وابتعدا عنهم إلى آخر الجوف.

ثم أشار موريس إلى دييجو برأسه إلى جسد عمار الهامد فيما معناه أن خذوه معكم، فأسرع دكرور يساعده وتردّد وهو ينظر إلى الجثة، شعر بالأسى الشديد من ذلك رغم علمه أن عمار الذي يعرفه أصبح في جسد يوزي الآن، إلا أنه لم يعرف كيف يتعامل مع شيء كهذا.

رفع عمار رأسه فجأة بعد أن كان مطأطئها، والتفت وراءه إلى دكرور ودييجو قبل أن يحملا الجثة وقال:

- من هذا؟

واقترب أكثر ونظر إليها بِحِيرة، ثم بسط يديه أمامه ونظر إليهما كأنه يتأكد أنهما موجودتان، ثم تحولت نظرته إلى دهشة وهو ينظر إلى جسده كأنه يبحث فيه عن شيء، وظل ينقل بصره بين الجسد الذي تحت رأسه والجسد الممدد أمامه، ثم رفع رأسه إلى دكرور وعيناه تطقان بالشرر والضوء الأصفر، وقال بغضب لكن بهدوء:

- من هذا؟

ثم نهض والتفت إلى البقية يبحث عن أحدهم، وصرخ فيهم:

- من فعل ذلك؟! من فعلها منكم أيها الملاعين؟!!

قالها وعاد يتقيأ النور السائل مرة أخرى، فتراجع الجميع عنه، وقال رالف وهو يرفع يديه في خوف:

- اهدأ! إنه ليس أحدنا، إنه...
- ليس أحدكم؟!! من إذًا؟ لا تقل أنه أحد هؤلاء الحوّاتين الأوغاد!!
- لا بل إنه يوزي، كان يسكن حوتًا آخرًا، اسمه كيانج

طأطأ عمار رأسه وحركها في أسف وقال بيأس:

- أعرف ذلك!

ثم صرخ:

- أعرف ذلك!!!

فهوى يجلس في مكانه وراح ينشج.

ثم قال وهو لا يزال يبكي:

- كيف تركتهم يفعلون ذلك يا بوهاردي؟!

لم يجِبه بوهاردي، فصاح فيه دكرور:

- ماذا كنتَ تريدنا أن نفعل؟ هل كنت تريدنا أن نتركك نائمًا حتى تموت؟ هه! يجب أن تكون شاكرًا، لا أعلم.. لم لا تشكر يوزي؟، أم كنتَ تريد أن يفعلها أحدنا؟
- لم أرِد أن يفعلها أي أحد أيها الأحمق!

ضاق منه دكرور وكاد أن يضربه لكنه انتهى، وتركه لبكائه، وحمل الجثة أمام دييجو وخرجا وتبعهما رالف وأوين.



كانت السماء بيضاء شاحبة تبكي مطرًا بهدوء على البحر الرمادي المضطرب، وأطلس يطفو مائلًا على جانبه كأنه سفينة تغرق، يتمايل مع أهون الموج فكان ساكنًا على نحو غريب.

لم ينشغل دكرور سوى بجسد عمار وتثبيته على ظهر أطلس، أراد أن يربطه إلى جسده أو يصلبه عليه، لكنه يعلم أنه سيتركه للبحر ولم يرِد ذلك، فبكى دون أن يعلم السبب كأن البكاء واجبًا يجب أن يأخذ نصيبه منه، فتماهت قطرات دموعه مع قطرات المطر.

كان نصفه في الماء يسند ذراعيه على أطلس، ولم يلحظ الحربة الغائرة عند أسفل ظهره، ولا المياه الحمراء القاتمة التي يسبح فيها؛ إلى أن سمع دييجو يقول بصعوبة وهو يشد الحربة مع رالف من ظهر أطلس:

- اللعنة!! إنها غائرة جدًا...

رفع دكرور نفسه عن الماء ليساعدهم في انتزاع الحربة، فتحلق مع أوين ورالف ودييجو حولها، وأمسكها كلًا منهم بكلتي يديه، وشدّوها سويًا لكن دون جدوى، فأخذ أطلس يضرب بذيله وزعانفه وينفث بوهن، ثم أعادوا الكرّة عدة مرات وأيضًا دون جدوى، ذكره ذلك بمافي وأصيب بالحسرة الشديدة من مجرد التفكير في أنه كان ليفعلها وحده، فزاد بكاؤه حتى صار أكثر من أن يتماهى مع المطر، وخارت قواه ووهنَت قبضته على الحربة، لاحظ البقية ذلك فقال له رالف:

- دكرور! انظر إلي.. لا تبتأس.. نحن معكَ يا صديقي.. إن أطلس معكَ، لكنه لن يبقى طويلًا وتلك الحربة في ظهره حسنًا! والآن أيها الرجال استجمعوا كل ما فيكم من قوة في سحب ذلك الشيء اللعين، ألستم رجال أطلس أم ماذا؟! والآن عند العد ثلاثة...

استجمع دكرور شتاته وقوته، وتأهب أربعتهم وشدّدوا قبضاتهم على الحربة، فبدأ رالف العد:

- واحد.. اثنان...

قاطعه أوين:

- مهلًا! انتظر!!! ليس بإمكاننا إخراجها هكذا، بإمكان الحيتان أن تسحب قوارب بمن عليها إلى الأعماق دون أن تخرج منها تلك الحراب

قال دييجو وهو يبدو غير متأكد:

- اللعنة على ذلك! أعرف ما يجب فعله

كانت حِراب الحوّاتين ذات كُلّاب بحيث تزداد تمسكًا باللحم كلما شُدّت أكثر، أخرج دييجو خنجره وجثا أمام موضع الطعنة الغائرة، وقبل أن يضيف إليها طعنة أخرى؛ ربت على ظهر أطلس وقال:

- معذرةً يا أطلس! سيؤلمك هذا...

وبدأ يقطع ما حول الحربة مما تمسكت به من لحم ودهن ببراعة كأنه جرّاح، فتلوّى أطلس بعنف مما أسقطهم عن ظهره إلا دييجو الذي كان متشبثًا بالحربة.

سقط جسد عمار وغاصت في المياه، فهرع دكرور وراءها وسبح في العمق حتى أدركها وأعادها إلى حيث كانت، ثم بدأ الرجال ممن بقوا في الجوف يخرجون، وصاروا جميعًا في المياه وعلى ظهر أطلس يشاهدون دييجو يعالج الجرح، وحيث لم يتعامل دكرور مع عمار وهو في جسد آخر غير الذي يعرفه؛ فلم يتبين من شكله إن كان حزينًا أم ما زال غاضبًا أم أنه قد هدأ.

ثم بعد مدة ليست طويلة قال دييجو وهو لا يزال منهمكًا في عمله:

- أعتقد أني كدتُ... حسنًا اسحبوا الآن!

تسلق أوين ورالف وبدأوا في سحب الحربة، فانتُزعت دون جهد ونزَعت معها قطع بيضاء وحمراء من اللحم والدهن، أمسك أوين بالحربة ونظر إليها باشمئزاز وضيق وألقاها بعيدًا في المياه.



ظلت السماء تمطر بهدوء كأنها تخجل من رفع صوتها، وظل البحر مضطربًا لكن وقورًا، وظل أطلس يطفو في سكون عجيب، ينفث بين الحين والآخر كأنه يعلن عن أنه لا يزال حيًا، وظل الرجال فوق ظهره يجلسون في وجوم ولا يلتفت أحدهم إلى الآخر، حتى سمعوا صوتًا لا يألفوه يقول:

- هل ستتخلصون من ذلك الشيء اللعين أم ماذا؟

كان ذلك عمار قد قام يشير إلى جسده القديم بازدراء، فقام رالف بعد مدة يقف في مكانه وقال:

- حسنًا يا رفاق! لا بد أن ننتهي من ذلك...

ثم بدأ يقول بوقار شديد وهو ينظر إلى موضع قدمه في حياء:

- ربما لم نعرف يوزي حق المعرفة.. وربما لم يمكث يوزي معنا سوى يومًا، لكنه كان كافيًا لأن نعرف كم كان يوزي شجاعًا، وكم كان محبًّا لإخوانه ولكيانج الطيب الذي آواه في جوفه عندما لم يؤوِه البر أو حتى البحر.. في جوف كيانج عاش يوزي...

سكت فجأة كأنه نسيَ ما يقول، وظل صامتًا لمدة قبل أن يقول عمار باقتضاب وضيق كأنه يوشك أن يبكي:

- واحد وتسعين عامًا

أردف رالف بسرعة:

- في جوف كيانج عاش يوزي واحد وتسعين عامًا مرت كأنها يومًا، وفي جوف أطلس عاش يوزي يومًا واحدًا مر كأنه واحد وتسعون عامًا...

رفع رالف صوته وحافظ على وقاره الذي يجعل هذا الجو الجنائزي الكئيب أكثر كآبةً، وأردف:

- في ذلك اليوم ضحى يوزي من أجلنا وحرص ألا يذهب موته دون جدوى، كما حرص على ألا ننساه ما حيينا، يوزي لم يكن وحيدًا، نحن كنا مع يوزي، ونحن لن ننسى يوزي، شكرًا يا يوزي!

وأضاف إلى عمار الذي كان واقفًا مغمضًا عينيه في تأثر:

- لقد أراد يوزي أن تعلم أنه لم يكن سيئًا كما سيبدو لـك، ولـم يـرِدكَ أن تحكم عليه فيما ستعلم عنه

أومأ عمار في أسى سرعان ما تحول إلى بكاء وقال:

- هناك أيضًا من أراد أن تعلموا أنه مات من أجلكم...

ازداد نحيبه ولم يعد قادرًا على الكلام، فقال موريس بثبات ووقار:

- أراد مافي أن تعلموا أنه مات في سبيل من يحب، مـات مـافي شـجاعًا كما كان طوال حياته، مات مقاتلًا كما كان طـوال حياتـه، مـات محبًـا لإخوانه كما كان طوال حياته، لقد مـات مـافي ابـن مـاني مـن أجلنـا.. وهو سعيد لذلك، ونحن نريد أن نعلمه أن موته لن يكون سدًى

أثناء حديث موريس، كان بعض الرجال يبكـون بالفعـل، خاصـةً أوسـاي كان يبكي وهو يحتضـن خصـر بوهـاردي، ثـم اكتملـت الجنـازة عنـدما بـدأ البعض الآخر منهم في البكاء، وذلك عندما وضـع رالـف جثـة عمـار علـى الماء برفق، حينها أخذ دكرور بلطة مـافي مـن وراء ظهـره ووضـعها بـين يدي الجسد، وتركه يغوص في أعماق المحيط الذي اتخذوه مقبـرة لكـل مـن مات وقد سكن جوف أطلس.

عادوا إلى الجوف عندما بـدأت الـدنيا تظلـم، توجـه كـل واحـد مـنهم إلـى ركن، وحرصوا على أن يكونوا أبعد ما يمكن عن بعضـهم، وبـدوا جمـيعهم نائمين حتى وإن لم يكونوا كذلك.

ربما قد فكر دكرور في كل شيء حدث له فـي حياتـه؛ قبـل أن يفكـر فـي النوم، لم يشغله ما حدث بقدر ما شغله ما سوف يحدث وأن الأمور لن تعود كالسابق بعد الآن، تذكر وفكر في كل شـيء، لكـن نسـيَ أطلـس وأنـه علـى موعد معه في عالم الأحلام.



(4)

البحر واهن كأنه مجهد من كثرة ما بذل من موج، والسماء تشفق عليه وتربّت عليه بقطراتٍ تنزل بتؤدة من دون أن تحرفها الرياح الغاضبة، وبين هذا وذاك كانت السفينة بدون أشرعة أو حبال، تترنح بوهن مع كل هبة نسيم، في متنها فجوة كحفرة ليس لها قرار، مقدمتها مهشمة وبعضًا من خشبها المتكسر يطفو حولها، عامةً لم يكن الجو مضطربًا أو مظلمًا، كما لم يكن مطَمئنًا أو هادئًا، فقط كان كئيبًا رماديًا حالكًا.

وعلى متن السفينة كان هناك تسعة رجال مجهدين مثل البحر ومشفقين مثل المطر وغاضبين مثل الرياح وكئيبين مثل الجو، يشعرون بالوحشة والفقد والأسى والضياع، كان في داخل كل واحد منهم ما يريد أن يقول للآخر، بعضهم كان يريد أن يحكي عن بعض الأمور، وآخرون يريدون أن يتأسفوا لآخرين، وآخرون يريدون أن يشكروا آخرين، وربما أراد بعضهم أن يغني أو أن يلقي مزحة؛ لكنهم فقط لم ينبسوا بكلمة، إلا أطلس.

فور أن اشتدت الرياح وعلَت الأمواج وتكاثفت الأمطار واضطرب الجو؛ قال أطلس بصوت يبدو فيه الغضب:

- كيف مات مافي؟

أجاب موريس:

- مات وهو يقاتل وقد ضحى من أجلنا ومن أجلكَ، كما أرادكَ أن تعلم
- وماذا حدث لعمار؟

شعر دكرور أنه وحده من يعرف الإجابة لذلك السؤال، لكنه لم يعرف إن كان يجب عليه أن يجيب، كما أنه لم يرِد أن يفعل، فقال باقتضاب:

- أردنا أن نعيده قبل أن يغيب عن الوعي لكن...

قاطعه أطلس:

- وكيف تتركون سيجورد ليهرب؟

نظر دكرور إلى عمار فوجده يبادله النظر، لم يلحظ فيه أي تغير في شكله أو هيئته، لكنه يعلم أن هناك شيئًا فيه ليس صحيحًا، فأشاح عنه وقال:

- كان الخيار بين أن نعيد عمار أو نبحث عنه...

قاطعه أوين بعصبية:

- ألستَ تعلم كل ذلك بالفعل؟! هه! لمَ لا تخبرنا أنتَ كيف تترك هنري ليهرب؟

لم يجِب أطلس على الفور، وإن أصبح الجو أهدأ وعاد إلى قتامته، فعاد أوين يقول:

- لا تقل أنك لا تقتل البشر، لا تقل ذلك بعد ما فعلت بهؤلاء البحارة على القارب

لم يعبأ أطلس أن يصحح له كلامه، ربما ليبدي الصرامة والغضب فقال:

- وهل كنتَ لتفعلها أنتَ؟ لا! لم تكن لتفعلها، لا تخبرني أن أقتل أحد رجالي وإن رفع هو حربته ليقتلني
- لكن ماذا إن رفع حربته ليقتلنا؟!

وأضاف دكرور:

- حسنًا يا أطلس ربما كان هنري أحد رجالك منذ خمس سنوات، لكنه لم يعد كذلك، كما أنه جهّز ثلاث سفن لتبحث عنكَ وتقتلكَ كما فعل مع نون وكيانج

قال رالف:

- صحيح ما أمر تلك السفن؟ هل عاهرة نانتوكيت إحداهن؟

أجاب موريس:

- أخبر هنري الناس بأن هناك بشرًا يعيشون في بطون الحيتان فصدقوه، كما انضم إليه آخرون هم أيضًا كانوا يعيشون في بطون

الحيتان، وكوّنوا معًا طائفة وأطلقوا على أنفسهم الجند الحوّاتين، وحين أخبروا الناس أن هؤلاء البشر هم من يقتلون الحوّاتين ويغرقون السفن؛ صدقوا ذلك أيضًا، وساعدوهم في تجهيز تلك السفن لصيد تلك الحيتان وقتل سكانهم

قال بوهاردي:

- مهلًا! هل ينوون قتل كل حوت يسكن في داخله بشرًا؟!!
- بل ينوون قتل ثلاثة منهم فقط...

قال أوين بتهكم:

- كما تعلمون.. فقد نجحوا في قتل إثنين من هؤلاء الثلاثة، ولم يبقَ سوى واحد

عاد بوهاردي يقول:

- يجب أن نتصدى لهم، لا يجب أن يتكرر أمر نون وكيانج

قال عمار:

- لقد أحرقنا مدينتهم عن بكرة أبيها، ولم يمنعهم ذلك من اللحاق بنا في البحر

استدرك أوين على بوهاردي:

- بل ما يجب أن نفعله هو أن نخفض رؤوسنا تحت الماء، وندعو الله ألا نصادفهم مرة أخرى

رَد بوهاردي بانفعال وتهكم:

- آلآن تذكرت الله وتريد أن تدعوه.. بعد كل ما فعلنا؟!! بل يجب أن نتصدى لهم بأنفسنا أو نموت ونحن نحاول

أنهى أطلس كل نقاش:

- لن يموت أحد، ولن تقتلوا أحدًا آخَر، ولن يخرج أحد من هذا الجـوف، ولن تطأ أقدامكم اليابسة مرة أخرى.. أنتم هنا للعقاب، وقد حان الوقت لأن تؤدوا عقوبتكم كما ينبغي



أغلقت الكتاب بعد أن علّمته على الفصل الثاني عشر، فلمحت دكرور من نافذة الغرفة يجلس وحده عند آخر المرفأ الخشبي، فأخذت الكتاب ونزلت إليه، سِرْت نحوه فلم يلحظني إلا بعد أن جلست إليه، وما أن جلست استرهبتني رؤية حوت يخرج رأسه من الماء تحت قدم دكرور مباشرةً.

ضحك دكرور مني بعد أن عدت أجلس بحذر دون أن أدلّي ساقي، ثم جثا وانحنى ليمد ذراعه إلى الحوت الذي يبدو صغيرًا جدًا، وربّت على رأسه ثم لوّح بيده يمينًا ويسارًا فكان الحوت يحرك رأسه معها كأنه يتراقص.

أثار ذلك إعجابي بشدة، فتجرأت وجثوت مثل دكرور ومددت يدي، فأشار دكرور نحوي ليتحرك الحوت وتوقف أمامي، وربّتُّ على رأسه وأنا مذهول، فصفّق دكرور بيده يهنئني، وقال:

- أعتقد أنه يحبك!

عاد إليه الحوت، فقلت:

- إذًا ما المميّز في الحيتان الرمادية؟
- لا شيء حقًا، إلا أنهم يحبون صغارهم ويدافعون عنهم بشراسة، فلم تكن تخشى مهاجمة قوارب التحويت للدفاع عن صغارها
- مثل أم أطلس؟
- تقريبًا! فلذلك كان الحوّاتون يسمّونهم السمكة الشيطان
- إن كانوا كذلك فأطلس هو إبليس نفسه! لكن أين هو؟ ولِمَ لستم في جوفه؟

نظر دكرور إلى البحر أمامه، وقال بعد أن تركه الحوت وغاص:

- إنه قريب.. سأجعلك تراه عمّا قريب

انقبضت معدتي عندما فكّرت "اللعنة! سيجعلني أرى هيكله العظمي فعلًا!"، ثم قلت:

- أتمنى أن يجد أطلس الحيتان الرمادية وتنتهي القصة على ذلك
- وأنا أيضًا كنتُ أتمنى ذلك، أين وصلتَ على كل حال؟
- أنهيت الفصل الحادي عشر
- أنتَ قارئ بطيء جدًا!
- أوه! وقد عرفتُ من هو يوزي.. عرفتُ وحدي هذه المرة

ابتسم لي دكرور بطيبة، وقلت:

- لكن لا أعلم بمَ يجب أن أشعر حيال ذلك.. أعتقد أني كنت أتمنى أن أرى عمار الحقيقي، أو حتى أن يكون قد مات، لكان ذلك أفضل من حيث السرد القصصي والحبكة و...

قاطعني بحزم لكن بهدوء:

- تبًا للحبكة! قلت لك أنها ليست قصة خيالية، إنها مذكرات.. وما تقرأ هو ما حدث لنا نحن.. أطلس وسُكان جوفه، مفهوم؟!
- بالطبع ذلك ما حدث لكم! ولم لا؟!.. لكن لماذا لَمْ يخبرني ببساطة أن اسمه عمار؟
- أرأيت آسيويًّا اسمه عمار من قبل؟

فضحكت وأنا أقول:

- ربما!.. لكن أعتقد أني كنت أريد أن أرى عمار الحقيقي
- لك أن تتخيل أن ذلك الذي رأيتَ يشبه عمار الحقيقي أكثر من يوزي

ثم مدّ ذراعه لينظر إلى يده وهو يقلبها ويقبض كفّه ويبسطه، وأردف:

- تلك أجساد ما هي إلا قوالب فانية، ومهما تباينت الألوان واختلفت الأعراق فلن يهم في أي جسد تسكن روح من نحب، كل الآذان تسمع كلمات الحب، وكل الألسنة تقولها، لكن الأرواح فقط هي التي تصدقها

لم أحب أبدًا حين يشرع في كلامه الحكيم الذي يشبه الشِّعر، ويبدو دائما في غير محله، فحاولت تغيير الموضوع:

- لكن أين ذهب على كل حال؟ وأين يذهب البقية؟
- بعضهم لديه أعمال، وبعضهم لديه عائلات، انتظرهم أن يأتوا قريبًا، أظن أنه يجب عليك أن تنهي الرواية قبل ذلك

قال ذلك بمرح، ثم قام بعد أن نظر إلى الشمس كأنه يتفقد الوقت، فقمت معه وعدنا إلى المنزل، وضعت الكتاب على ساقي، وجلست أتكئ بكسل أقلب صفحاته بدون سبب، وظللت على هذا الحال حتى كدتُ أنام، فلم ألتفت إلى الباب عندما فُتِح ودخل أحدهم، ولم أنتبه إلى أن الداخل لم يلقِ سلامًا أو تحيةً، ثم جحظت وعاد انتباهي لكل شيء عندما شعرت بسكين على رقبتي.

- اترك الكتاب، وارفع يديك ببطء، وقُم بهدوء!

سمعت تلك الكلمات في أذني مباشرةً، فنفّذت الأمر كما قيل، وأنا أشعر بالخوف ولم أفكر في أي شيء سوى السكين الذي على رقبتي، فرفعت صوتي بذعر:

- دكروور!!! ساالم!!!

جاءني الرَد بضحكات مجلجلة، فتعجبت وقد فكرت أنها مزحة، لكن دون أن أجرؤ على الالتفات إليها، لكنني فعلت عندما رُفِع السكين من على رقبتي، فابتعدتُ بعصبية ورأيت سامبار يتلوى من الضحك ودكرور بجانبه، وإثنين آخرين، أحدهما كان يجلس على كرسي متحرك، والآخر قزم.

ولم أستغرق كثيرًا حتى علمت من هما، فقلت بدهشة للذي على الكرسي المتحرك:

- دييجو؟!!! لا بد أنك دييجو!!

والتفتُّ إلى القزم الذي كان لا يزال يحمل سكينه يصوبه نحوي؛ وقلت:

- وأنتَ أوساي؟! اللعنة! ظننتكَ أقصر من ذلك!

استعر أوساي غضبًا وزعق إلى دكرور وسامبار قائلًا:

- من هذا الحقير؟!! وكيف يعرفنا؟!!

قال دييجو باستغراب وهدوء شديدين:

- كيف يعرف دكرور؟!!

تقدم دكرور وربّت على ظهري وقال لهما:

- أيها الرفاق! أقدم لكما.. إدموند وينسلو!

قال أوساي:

- الاسم ليس غريبًا!

وقال دييجو بابتسامة:

- وينسلو.. مثل جيرترود وينسلو؟!

قالها فاختفت ابتسامته فجأة، وجحظ لي وفتح فمه بذهول هو وأوساي الذي قال:

- فلتحل بي اللعنة!!! كم عمركَ؟
- قرابة المائة وسبع وسبعين سنة

وقال أوساي لدكرور:

- وكيف عثرتَ عليه؟

أجابه سامبار وهو يضحك:

- أنا من عثرتُ عليه، وجدته على أحد المواقع يسأل لماذا قد يعيش المرء مائة وثلاثين سنة من دون أن يشيخ

قال دييجو بِحِيرة:

- أنا لا أفهم شيء.. إذًا هو لا يعرف...

قاطعه دكرور بسرعة:

- هو لا يعرف أي شيء، ولا يزال يقرأ رواية سكان أطلس ولم يُنهِها حتى الآن

قلتُ بمرح:

- كنت أراهن على موتك يا دييجو

رَد دييجو:

- لا أعلم بمَ أخبرك، لكن إن كنتَ أنتَ ابن جيرترود حقًا.. فأنا سعيد لرؤيتكَ حقًا
- وأنا أيضًا يا دييجو

قلتها بابتسامة متحمسة، ثم أنهى دكرور ذلك اللقاء بأن قال:

- حسنًا.. والآن عليكما أن تستريحا، وأنتَ عليكَ أن تكمل القراءة

حمل سامبار ودكرور كرسي دييجو وهو عليه، وصعدا به إلى أعلى وقال دكرور أثناء ذلك:

- أوساي**!** تعالَ أريدكَ معي

كان أوساي يرمقني بنظرة يغلب عليها الشك، فأعاد سكينه إلى جيبه، وبدا أنه يريد أن يخبرني بشيء لكنه لم يفعل وذهب هو الآخر، فبقيت وحدي وأنا أشعر بالسعادة لرؤية أوساي ودييجو، وأشعر بالقلق ممن سأقابل تاليًا، أو مَن لن أقابل أبدًا، وعدتُ أقرأ الرواية لأعرف بنفسي...

الفصل الرابع عشر
"الفِردَوس الضَّائِع"

(1)

ربما لم يشعر أطلس بألم أو ضعف من جراء جروحه، بقدر ما شعر بها من جراء فقده لكيانج ومن بعده إثنين من رجاله، فكان يشعر بالتأنيب والذنب وأنه السبب في كل ذلك، وذلك بغض النظر عن شعور الوحدة الذي صار أكثر من طاقته، بعد أن انقطع كلامه مع رجاله، وانقطع شعوره بالحيتان الرمادية تمامًا.

مكث أيام عديدة حول تلك الجزيرة التي لا يزال عليها رَجُله المفقود، حتى أدرك أنه حتى وإن كان لا يزال على قيد الحياة؛ فهو قد مكث على هذه الجزيرة لدرجه أنه لن يشعر به إن عاد إلى البحر، كما حدث من قبل مع رَجُله الهارب.

وكانت فكرة أن ذلك الهارب على هذه الجزيرة، وأنه مَن فعل كل ذلك بكيانج ونون ورجاله؛ تصيبه بالأسى والندم من أنه كان بإمكانه أن يوقفه أو يعيده إلى جوفه أو حتى يقتله حين تسنّت له الفرصة.

فقرر أطلس أخيرًا أن يبتعد عن هذه الجزيرة، وما يأتيه منها من أسى وذكريات يريد أن ينساها، أو ربما يريد أن يبتعد عن هذا المحيط برمّته، فتوجّه عائدًا إلى الشمال ليصل إلى المحيط الهادي حيث مات كيانج، وحيث رأى الحوت الرمادي.

وبغض النظر عن جراحه التي تبطئ من سرعته كثيرًا؛ فقد سبح على مهلٍ كأنه لا ينوي الوصول لأي مكان، فاستغرق دهرًا ليصل إلى الشمال، ودهرًا آخر ليعبر الطريق الطويل الذي يصله إلى المحيط الهادي، ودهورًا أخرى يبحث عن الحيتان الرمادية حيث فقدها، حتى ظن أنه أخطأ المكان وتاه عنه، حتى شكّ في أنه قد رأى ذلك الحوت أصلًا.

واتخذ من المحيط الهادي موطنًا له لمدة طويلة، وأخذ يجوبه شمالًا وجنوبًا يتردد إلى نفس المكان في الشمال، إلى أن عزف عنه وعن الشمال

بأكمله، وظل في هذا المحيط يتجنب البشر وسفنهم أينما صادفها أيًّا كان نوعها، هائمًا لا يشعر ولا يبالي بأي شيء.

وبينما هو قرب السطح يطفو على ظهره في كسل، وأبعد ما يكون عن أي كائن حي سوى الذين في جوفه؛ سمع صوت غناء من بعيد، لم يعبأ به أولًا، ثم انتبه واعتدل وأصغ إلى صوت الغناء عندما لاحظ فيه شيئًا غريبًا.

- سِدنا أسبح في المحيط.. سِدنا أرى البعيد.. حيتان.. حيتان كثيرة.. سِدنا أسمع الغناء.. رأسي.. رأسي يؤلم سِدنا.. سِدنا أتنفس من أعلى.. وأغوص بسرعة.. بسرعة.. سِدنا...

سمع أطلس الأغنية صادرة عن ذاك الحوت فأدرك من فوره أنه حوت ذو جوف، فقد كانت أغنية واضحة ومفهومة، إلا أنه لا يزال فيها شيء غريب، ثم بادر أطلس واقترب أكثر فتبين أنه حوت أزرق، ذكره ذلك بكيانج تلقائيًا، ثم تجرأ وردّ على الأغنية:

- حوت ذو جوف.. أخبرني من أنت.. حوت ذو جوف

فانتبه له الحوت وراح يقترب أكثر، بدا لعين أطلس حوت أزرق عادي، إلا أن حجمه كان أصغر كثيرًا من كيانج، ربما كان في حجم حوت أزرق عادي، لكن بالطبع ليس في حجم حوت أزرق ذو جوف، وآخر شيء لاحظه في ذلك الحوت هو نفسه آخر شيء كان يتوقعه، ذلك الحوت كان أنثى.

لم يقابل أطلس أنثى حوت ذا جوف من قبل، إلا أنه علم أن جوفها خالي من السكان، ولم يفكر في الأمر من قبل، فلم يعرف ماذا يقول حتى قالت هي:

- حوت يتكلم رأيت حيتانًا كثيرة مثلك لم أرَ منهم من يتكلم أنت بعيد عن أهلك

زادت دهشة أطلس وذهوله وتشتت عقله، فبعد أن كان قد نسيَ الحيتان ذات الأجواف فها هو الآن أمام حوت ذو جوف لم يرَ مثله من قبل، وبعد

أن كان يئس من إيجاد الحيتان الرمادية فها هي فرصة جديدة للبحث عنهم، ثم استجمع عقله ورتب أولوياته وسأل:

- هل رأيت الحيتان الرمادية أتعلمين أين هم
- حيتان رمادية.. إنهم يهاجرون في طريق.. طريق قريب، ألست منهم
- أنا منهم.. لكن لم أكن أعيش معهم.. أنا أبحث عنهم
- أحدهم كان يبحث عنهم أيضًا
- أتقصدين كيانج
- كيانج نعم.. هل رأيته.. أنا لم أرَه من زمن
- كيانج مات
- ماذا عن البشر في جوفه
- ماتوا معه.. صيدَ كيانج من سفينة وقُتِل كل من في جوفه

بدأت تغني أغنية حزينة كنوع من الرثاء، وهي ساكنة الحركة، لم يعبأ أطلس بأي شيء فهو ما يزال في حيرة من أمره ومن هذه الأنثى، فقال:

- من أنت
- سِدنا.. كيانج هو من أعطى سِدنا اسمًا.. كيانج رحل الآن
- أنا أطلس
- أطلس.. أعرف من أنت.. سأجد الحيتان الرمادية كما أخبرني كيانج أن أفعل

أخبرَتْه ذلك ثم بدأت تتحرك، فأراد أطلس أن يرافقها لكنها استوقفته:

- سأجدهم وحدي.. ستعلم عندما أجدهم

لم يعترض أطلس لكنه عزم على أن يتبعها على كل حال، فقد شعر بالألفة بعد أن كان وحيدًا في ذلك المحيط الموحش، ورغم أنه ما يزال مهتمًا بالحيتان الرمادية وبالبحث عنهم؛ لكن سِدنا قد أثارت اهتمامه.

ظل يتبعها على مسافة حتى وصل إلى الشمال قرب الجليد حيث مات كيانج، وحيث تتلون السماء بالليل، ذلك عندما شعر بالمغص في جوفه، حينها توقف أطلس وانتبه إلى رجاله بعد أن كاد أن ينساهم.

★★★

صار الجوف موحشًا باردًا كَلَيلٍ في صحراء، ضيّقًا مظلمًا كمقبرة، وصار سكانه كأشباح هائمة في بيت مهجور، وفي حين لم يكن من سبيل لتمييز الأيام؛ فقد صار الزمن كله كأنه يومًا واحدًا، أبديًا لا ينتهي، وحتى عالم الأحلام لم يذهبوا إليه كثيرًا، وحينما يفعلون ويصبحون على متن السفينة؛ سرعان ما يتحول الحلم إلى كابوس، كوابيس دكرور كانت دائمًا ما تنتهي عندما تحترق السفينة وهو عليها.

من حين لآخر كان أطلس يغني بصافرات طويلة غير مفهومة، لم يكن أحد يتفاعل معها بأي شكل، غير ذلك لم يكلم أحدٌ أحدًا لفترة طويلة، طويلة لدرجة جعلتهم يدركون أنه مرَّ من الزمن ما يكفي لأن يجعلهم يشتاقون لبعضهم، تخيل أن تتجنب الكلام مع إخوانك الذين يعيشون معك في نفس الجوف لدرجة أن تشتاق إليهم.

ظهر ذلك في نظراتهم الطويلة لبعضهم كأنهم يكلمون بعض دون تحريك شفاههم، وكثيرًا ما كانت تنتهي تلك النظرات بضحكات مكتومة غير معلومة السبب، وبعضها كانت تنتهي ببساطة عندما يشيح أحدهما عن الآخر، وبعضها لم تكن تنتهي حتى تذرف العين الدمع من شدة النظر، أو ربما من شدة الأسى.

ثم بعد دهر طويل بدأت الكوابيس تقل تدريجيًا حتى انعدمت، وبدأ عالم الأحلام يصبح أكثر استقرارًا، وعاد الخرق في السفينة يندمل وحطامها يلتئم، وعاد الرجال يلتقون عليها، ولم يلبثوا حتى عادوا يتكلمون، لكن كان ذلك فقط في عالم الأحلام على السفينة.

كانوا يتكلمون ويتشاورون ويتمازحون فقط في عالم الأحلام، لكن في الواقع بعد أن يستيقظوا يتعجبون من أنفسهم، ويُعرِضون عن بعضهم، بل وينسَون ما قيل وما أخبروا بعضهم، ربما هناك منهم من كان يُسِرّ الكَلِم مع آخرين، لكن لم يتعدّ الأمر أكثر من ذلك.

ظل الأمر كذلك لدهر آخر طويل، حتى كانت مرة كان أوين متواريًا يلعب الشطرنج مع نفسه كما أصبحت عادة كثير منهم، فتعرقل دييجو بلوح الشطرنج وبعثر القطع وأفسد عليه اللعبة، فقام أوين بعصبية ووكز دييجو وعنفه قائلًا:

- أيها المعتوه!! هل عميتَ؟!

دفعه دييجو بقوة ورَد:

- ممَّ تستاء؟! أنت أغبى من أن تلعب مع نفسك على كل حال...

وقبل أن يمسك كلًا منهما في الآخر؛ جاءهم موريس وحاول الفصل بينهما، فقال أوين وهو يدفعه عنه ليصل إلى دييجو:

- لا تتدخل أيها العجوز الخرف!

ربما توقف أوين لبرهة ليستوعب ما قال أو لمن قاله؛ قبل أن يمسك فيه موريس هو الآخر، ويتمكن دييجو من ضربه، فهرع إليهم سامبار ورالف لمحاولة الفصل بينهم، لكنهم بدلًا من ذلك انضموا إليهم في العراك، فأمسك رالف في موريس، وأمسك أوين وسامبار في دييجو.

تفادى دييجو ضربة من سامبار فتلقاها دكرور الذي كان يقف مع أوساي خارج حلقة القتال المشتعلة، يشاهد بلا مبالاة لا تخفي ذهولًا؛ فشبّ في سامبار هو الآخر فدفعه عنه وطرحه أرضًا ثم عاد يقوم ليستكمل نزاله، ثم تلقى دكرور ضربة أخرى من دييجو من دون أن يفعل له أي شيء، وانضم البقية منهم إلى النزال وأيضًا بدون سبب، وصار كل رجل يمسك في خناق الآخر، كانوا يرفعون قبضاتهم بعد أن يشحذوها باللكمات، ثم يصوبونها في الهواء لتستقر في أول وجه تقابله، دون أن ينظروا لصاحب الوجه.

انتهى دكرور وديبجو بعد أن تورمت ظهور أيديهم، فوجد بوهاردي أمامه ينظر إليه ويلتقط أنفاسه، فاقترب منه دكرور فأشار له بوهاردي أن ينتظر، ثم بعد برهة بصق بوهاردي دمًا واندفع نحوه وأسقطه، ودار بينهما نزال جديد، ربما لم يكن هناك خاسر أو فائز، لكن وجه دكرور تلقى هزيمة فادحة على يد بوهاردي.

كانت مثل تلك النزاعات عادةً ما تتحول إلى لعبة الصاري والمرساة من قبل حتى أن تبدأ، لكن هذه المرة كانت شيئًا آخر، كأنهم يحتاجون إلى ذلك، أو كأنهم يخبرون بعضهم ما عجزوا عن قوله في الأيام الماضية، فقد اتضح لهم أن كلام الأيدي أسهل وأبلغ من كلام الألسنة.

العجيب في كل ذلك أن أطلس لم يصدر أي صوت أو يبدِ أي رد فعل على ذلك، رغم أنه لم يكن يسمح ولا يسامح أن يؤذوا بعضهم بهذه الطريقة أبدًا، وإن تجرأوا وتمادوا فكان يزجرهم بأغنية واحدة، وفي حين لم يكن هناك ما يمنعهم عن التوقف؛ فقد استمروا في القتال حتى أرهِقوا، واستمروا حتى منعتهم وجوههم المتورمة وأنوفهم المعوجة وضلوعهم المكسورة.

استلقوا جميعًا على ظهورهم يتقلبون من شدة الألم، الذي كان سببًا في أرقهم لبعض الوقت، لكنه تحول بعد ذلك إلى السبب في نومهم.



وجد دكرور نفسه مع بقية الرجال على السفينة فور أن نام، لم يكن يشعر بأي شيء سوى بالراحة والاسترخاء، وكأن شيئًا لم يكن، بل وكأن العالم لم يكن، وهذه المرة لم يشغلوا بالهم بالكلام في أشياء سينسونها لاحقًا، فقط كانوا يستمتعون بصفاء الجو.

ربما استغل أوساي ذلك فسأل أطلس كأنه كان يحاوره منذ مدة دون أن يعرف إن كان سيجيبه أصلًا:

- هل تعرف كم مرّ؟

- لا أعرف كم مرّ، لكن مرّ الكثير

وبعد برهة أردف أطلس:

- لماذا؟ هل تريد أن تخرج؟
- لم يكن هذا قصدي، كما أنه لم يعد لنا حاجة في الخارج

وبعد برهة أردف أوساي:

- لماذا؟ هل تريدنا أن نخرج؟
- لم يكن هذا قصدي، أنا فقط أريدكم بأمان

وسأله سامبار:

- وماذا عنكَ أنت؟ هل أنتَ في أمان؟
- لا تقلق بشأني، أنا كما كنتُ دائمًا

وتدخل موريس:

- صحيح كيف هي الأمور في الخارج؟
- أفضل ممّا كانت دائمًا
- أقصد هل تصادف أي سفن أو أي بشر؟
- لا، وذلك ما يجعل الأمور أفضل

ثم أضاف:

- وماذا عن الأمور في الداخل؟ هل استمتعتم بقتال بعضكم؟

ترقب الجميع إن كان يتهكم أو إنه غاضب فعلًا، لكن بوهاردي قال بسعادة غريبة:

- لا أدري ماذا حدث يا أطلس! لكنه كان شيئًا رائعًا، صحيح يا رفاق؟!

قال دكرور بجديّة:

- أه بالفعل! أعتقد أن تهشيم وجهي شيء رائع بحق!
- لا ضغينة يا دكرور!

وقال سامبار:

- أه! يجب أن نفعل ذلك أكثر يا رفاق!

وقال رالف:

- اللعنة! ربما أصبحنا بحاجة إلى إلحاق الأذى بأي شيء حتى وإن كان بأنفسنا؛ بعد أن حرمتنا من الخروج وممارسة هوايتنا المفضلة على سفن التحويت.. هه!

قال أطلس بطيبة:

- أه! الفترة السابقة كانت صعبة

قال أوين:

- حدّث ولا حرج!
- لا أقصد هذا فقط يا أوين، أقصد أني قد فشلت في إيجاد تلك الحيتان الرمادية، ويئست من البحث عنها
- لا يهم يا أطلس.. فيمَ تحتاجهم على كل حال؟
- أخبرتك أننا لدينا القدرة على التحكم في الحيتان العادية الصغيرة
- أعني.. ماذا ستفعل إن كنت تتحكم ببعض الحيتان الأخرى البلهاء
- لا أعلم يا أوين، فقط أعلم أنهم موجودون في مكان ما، لكن لا أجدهم في أي مكان في المحيط

قال عمار:

- مهلًا! ألم يخبركَ كيانج بمكانهم؟
- لقد مات كيانج قبل أن يفعل، لكني أجزم أني رأيتُ أحدهم هناك حيث مات
- بالفعل.. أعتقد أنه أراد إخباركَ أنه وجد الحيتان الرمادية، أعتقد أنه مات حيث يعيشون أو بالقرب منهم

- لقد عدتُ إلى ذلك المكان وبحثت فيه كثيرًا، ولم أجد أي شيء، حتى صرت لا أصدق أني قد رأيتُ أحدهم بالفعل
- لا أدري يا أطلس.. أنا فقط أعرف ذلك
- حسنًا يا عمار! لا ضير من المحاولة مرة أخيرة، شكرًا على كل حال

وأضاف:

- أتعلمون؟! ربما سآخذكم في جولة الليلة، ما رأيكم؟

هتف الرجال في سعادة، وقال أوين بمرح:

- لا بأس، ما دام ليس هناك سفن تحويت

ورَد بوهاردي:

- لماذا هل صرت تخشاهم؟
- لا أخشاهم هم بالطبع، بل أخشى أن يحصل لي مثل يوزي، أخشى فقط أن أبقى أخيرًا، ألا تخشى ذلك يا هاردي؟!

ران الصمت على الحلم لمدة طويلة، قبل أن يسأل دكرور:

- هل من خبر عن سيجورد؟ أعني ألم تشعر به يركب البحر
- لا، ليس هناك شيء عن سيجورد، لقد مكث كثيرًا على البر على كل حال، فحتى وإن ركب البحر فلربما لن أشعر به

أصيب دكرور بالإحباط الشديد، إذ كان أمر سيجورد يؤرقه ويشغل باله أكثر شيء، فسواء إن كان قد هرب، أو انضم إلى هنري، أو احتجزه هنري لديه؛ فكل ذلك كان يشعر دكرور بالندم وتأنيب الضمير، أو ربما فقط إنه يشتاق إليه.



أغرب ما في الأحلام هو أنك لا تشعر إن كان هناك شيء خاطئ أو في غير محله، حتى وإن كان العالم كله في غير محله، فقط تعلم مدى غرابة وغباء الحلم بعد أن ينتهي وتستيقظ منه.

بالطبع اعتاد دكرور على أن يتمثل إليه حوت على شكل سفينة تكلمه ويكلمها، وأن يرى سماء بدون شمس، وأمطار بدون سحب، واعتاد أيضًا أن يرى بوهاردي بشكله الأصلي، ولم يكن يتعجب من أي من ذلك بعد أن يستيقظ، لكنه وإن لم يلحظ شيئًا غريبًا في عمار أثناء الحلم؛ فلم يعتَد رؤيته في هيئة أخرى غير التي رآها في الحلم، كان كل مرة بعد أن يستيقظ يتفقد عمار، وكل مرة يصاب بالحسرة بعد أن يجده ما يزال على حاله.

استيقظ الجميع في أماكنهم لا يتحركون، فجميعهم كان في حال يرثى له مثيرًا للشفقة والسخرية معًا، ومن كان منهم لا يزال به بعض القوة؛ نهض يجلس فقط، مثل دييجو الذي جاءه أوين ووضع أمامه لوح الشطرنج، ومعًا رتّبا القطع وبدءا مباراة صامتة.

كان دكرور يجلس على مقربة منهم يركز بإمعان في المباراة الدائرة، حتى جلس بجانبه أحد لم ينتبه له في أول الأمر، لكنه تعجب وشعر بعدم الراحة حين وجده عمار، جلس يشاهد المباراة في صمت هو الآخر كأنه لا يرى دكرور، الذي نظر إليه ولاحظ شيئين غريبين لا يجتمعان في أحد قد شارك في عراكٍ كهذا، فلم يرَ على وجهه أي خدش، لكن رؤوس قبضة يده اليمنى حمراء كأنما سلخ الجلد من عليها.

طالت المباراة وطال الصمت، فبادر دكرور وتشجع وقال لعمار أول كلمة منذ آخر مرة عادوا إلى الجوف:

- ما بال وجهك؟

نظر إليه عمار بعصبية، وتحسس وجهه كأنه يتأكد أنه لا يزال موجود وقال بتوتر شديد:

- ما به؟!!

استغل دكرور توتره وقال وهو يحدق فيه أكثر:

- فيه شيئًا غريبًا!

ولما تأكد أن الخوف تمكن منه، أردف:

- ليس فيه أي آثار ضرب؟!

قالها وضحك فعلم عمار أنه كان يسخر منه، فقال بعد أن هدأ روعه:

- تبًا لكَ! أنا فقط قد أبرحتهم ضربًا دون أن أدع أحد يلمسني، أنتَ محظوظ أنك لم تقع تحت يدي، اسأل أوين حتى

رفع أوين بصره إليه يرمقه بعين زرقاء وأخرى حمراء وشفة متورمة وأنف ينزل منه خط من الدماء الجافة؛ فلم يحتَج دكرور لسؤاله أي شيء، وعاد يقول لعمار باستهزاء:

- لا أصدق أنك من فعلتَ ذلك، أنتَ لستَ قادرًا على ضرب ذبابة حتى

حدجه عمار بعينه الصفراء الضيقة بنظرة أصابته بالقشعريرة، ثم ابتسم ولم يعبأ برد الإهانة وقال:

- بغض النظر عن أني كنتُ لأفتك بكم جميعًا على كل حال؛ إلا أنه كان يوزي! أتعلم.. كنتم لتحبونه لو عرفتموه أكثر

ومن أجل ألا ينتهي الكلام قال دكرور:

- حقًا؟! كيف ذلك؟
- لا أعلم، لكنه كان يشبهنا كثيرًا، بغض النظر عمّا كان سكان كيانج يفعلون وما كانوا يعتقدون في كيانج نفسه.. فقد كانوا يؤَلّهونه ويعبدونه

كان أوين وديبجو قد توقفا عن اللعب، ثم انضم إليهم موريس وسامبار، وربما رأى عمار نظرة الإثارة والترقب في وجوههم بعد ما قال، فأردف بحماس كأنه يحكي حكاية مثيرة:

- لم يتردّدوا عندما أخبرهم كيانج أن يخرجوا إلى سُفُن التحويت، فكان الأمر بالنسبة لهم كتقديم القرابين له، والقربان في هذه الحالة كان عبارة عن سفينة غارقة وبحارة مقتولين، وذلك ما جعل الأمر شعائريًّا جدًا لتلك الديانة الغريبة التي كانوا يدينون بها

سأل بوهاردي الذي كان يقف مع أوساي خارج الحلقة:

- وماذا عن فعلهم للانتقال؟
- أه! كانوا يفعلون ذلك منذ زمن بعيد، وكان ذلك حدثًا خاصًا، له طقوسًا خاصة غريبة، فكانوا يغنون بهستيرية ويرقصون بطرق همجيّة حول الإثنين موضع ذلك الحدث الكبير، ثم يتركون الجثة في الجوف ولا يخرجونها أبدًا، لديهم خمسة جثث يضعونها كمذبحٍ يتعبّدون أمامه

قال أوين باشمئزاز وضيق:

- اللعنة! لا تقل أنهم يشبهوننا ثانيًا
- لم أقل ذلك، بل قلت إن يوزي من يشبهنا، أتدرون أنه كان عليه الدّور في التضحية بجسده إذا أصيب أحدهم...

ثم أضاف بشرود:

- لا يمكنك أن تتخيل كيف هو العيش وحدك في جوف حوت ميت ولو لدقيقة، لكن يوزي كان على استعداد لأن يكمل أيامه القليلة المتبقية في جوف كيانج...

أنهى عمار كلامه والتأثر واضح عليه، وتعجب دكرور من طريقة كلامه ومن كلامه المنمّق، لكنه صبّر نفسه بأنه سيعتاده، بعدها باغتهم أطلس بأغنية الخروج ذات الصافرات الثلاث، التي لم يسمعوها منذ مدة طويلة حتى نسوها، فخرج بوهاردي أولًا دون أن ينبس بكلمة وتبعه البقية.

قبل أن يصعدوا إلى السطح بدا الوقت ليلًا والمياه ساكنة قارسة البرودة، وبعد أن ارتقوا ظهر أطلس تبين لهم أنهم بين بعض جبال جليدية واضحة وناصعة البياض، فرغم أن الجو لا يزال ليلًا، إلا أن السماء كانت تضيء.

كانت السماء تضيء بنور أخضر رائع، ليس ساطعًا أو خافتًا، وبالطبع ليس سُحبًا، بل كان أخف من السُّحب، أشبه بدخان أخضر رقيق يتماوج في خطوط عريضة، كوشاح من حرير متروك في السماء للرياح ترفرفه.

ظل الرجال يحدقون في السماء مذهولين حتى آلمتهم أعناقهم، ولم يشعروا أو لم يعبؤوا؛ بالبرودة التي تقضم أطرافهم أو بارتعاد أجسادهم، حتى أفاق دكرور من غشيته وقال بأنفاس متهدجة من شدة البرد:

- ما هذا؟! هل رأيتم شيئًا بهذا الجمال من قبل؟

رَد دييجو بنفس الطريقة:

- إنه الشفق يا دكرور.. رأيناه أكثر من مرة

ثم قال عمار بنبرة ثابتة كأن البرد لم يصِبه:

- هذا المكان.. إنه حيث مات كيانج، أليس كذلك يا أطلس؟!

نفث أطلس وبدأ السباحة بهدوء أولًا، ثم تشبث الرجال بظهره عندما بدأ يسرع، ومن حين لآخر يطير من المياه، وظل يسبح كثيرًا حتى ابتعد عن الجليد، لكن لا تذهب الأنوار الخضراء، ثم فجأة توقف وسكن في مكانه يطفو في وسط اللامكان، واعتدل الرجال جميعًا على ظهره، وما كادوا يجلسون حتى انتفضوا جميعًا عندما سمعوا نفثة حوت، لكن ليست لأطلس.

ظلوا ينظرون إلى الحوت مصدر النفث بذهول وترقب، حتى قال رالف:

- لا تقلقوا يا رفاق، لم يكن أطلس ليتركنا هكذا إن كان ذلك الحوت عدو، مؤكد أنه حوت مسالم

ثم قال عمار بسعادة:

- بالطبع إنه حوت مسالم! إنها سِدنا!

ثم التفت إلى رفاقه الذين يرمقونه جميعًا فأجابهم بنبرة آسية قبل أن يسألوه:

- كان كيانج يعرفها.. إنها أنثى حوت ذو جوف

تحرك أطلس وراء سِدنا، ثم لم يلبث أن توقفا في نفس الوقت، ثم دار على جانبه نصف دورة أسقطتهم من فوق ظهره، ثم فتح فمه ليعودوا إلى جوفه دون نقاش.



(2)

بعد أن كان أطلس لا يسمح بأن يمس أحد رجاله آخَر بسوء؛ لم يجد ضيرًا من أن يلحقوا بعض الأذى ببعضهم، فقد مرّ زمنًا منذ أن أخرجهم إلى سفينة لممارسة هوايتهم المفضلة، وكان ذلك مما أعاد علاقتهم المنقطعة ببعضهم، وأعاد إلى أطلس شعوره بالأُلفة والأنس بهم بعد أن كانوا لا يكلمونه أو يكلمهم، لا في عالم الأحلام أو في غيره، ولأجل ذلك قرر أن يأخذهم في جولة على ظهره ليريهم السماء الملوّنة.

كان رجاله لا يزالون على ظهره عندما عاد إليه غناء سِدنا بعيدًا:

- سِدنا وجدت الحيتان الرمادية.. سِدنا فعلت ما أخبرها كيانج.. كيانج رحل وترك سِدنا.. أطلس.. أطلس ذو جوف

سبح أطلس بسرعة تجاه صوت الغناء غير عابئًا بالرجال على ظهره، حتى وصل إلى مصدر الغناء، أخبرته سِدنا:

- أسرع.. إنهم قريبون..

تبعها أطلس دون نقاش، وسبحا حتى عاوده شعوره بالحيتان الرمادية.

كان ضعيفًا لم يراوده منذ زمن، والذي صاحبه شعور بالضيق والمقت، إذ ذكره ذلك بنون وكيانج وأنهما ماتا وهما يساعدانه في البحث عنهم، وماتا

قبل أن يجداهم، وأن أحد رجاله قد قُتِلَ وآخر فُقِدَ وهو يبحث عنهم أيضًا، تذكر ذلك فأعاد رجاله إلى جوفه، وبقيَ يسبح وراء سِدنا.

كانت سِدنا صامتة لا تغني، تسبح بثبات وتأنٍّ في طريق مستقيم لا تحيد عنه، وأطلس إلى جانبها لا يفعل إلا مجاراتها، ومن ثم أراد أن يكسر الصمت:

- أتعرفين كيانج منذ زمن
- أعرف كيانج منذ أن وُلدت.. أخبرني كيانج بكل شيء وعلمني كيانج كل شيء.. أخبرني عنك وعمّا يفعل البشر الذين في جوفك.. أخبرني عن السفن وعمّا تفعل بالحيتان.. كان دائمًا ما يمنعني من الاقتراب منهم
- ألذلك ليس في جوفك بشر
- ليس لذلك أنا لم أكن أشعر بهم أو بذلك الصداع طوال حياتي إلا منذ زمن قليل.. شعرت به خفيفًا وراح يشتد حتى اختفى.. لا أعلم إن كنت قادرة على ابتلاع بشري وحفظه في جوفي
- الأمر ليس سيئًا دائمًا.. البشر أشقياء هم أشقى الكائنات.. ذلك ما يجعلهم أكثر الكائنات إثارة لاهتمامي وشفقتي
- هم أشقى الكائنات.. ماذا عن الحيتان وما يفعل البشر بهم.. البشر لا يثيرون فيّ إلا الخوف والمقت
- نعم هم الأشقياء وليس نحن.. لا تعلمين شيئًا عن أولئك الذين في جوفي أو سكان الأجواف كلهم إنهم يختلفون كليًا عن سكان السفن والصيادين.. هؤلاء ارتكبوا الفظائع وخسروا كل شيء وعلموا أنهم مذنبون.. والآخرون مثلهم إلا أنهم ينكرون أنهم مذنبون

لم ينتبه أطلس عندما توقفت سِدنا عن السباحة بينما كان يحدثها، لاحظ ذلك فالتفت إليها ليجدها تنظر إلى جهة أخرى ،رأى قطيعًا صغيرًا لم يتبينه يغني أفراده أغنية لم يسمعها من قبل، أثناء رحلتهما مرا بقطعان حيتان من

مختلف الأنواع، اقترب حيث كانت سِدنا تنظر ليرى القطيع ويتبيّنه، فلم يكن إلا بضعة حيتان رمادية.

★★★

علم يقينًا أنها حيتان رمادية، إلا أنه لم يستوعب ذلك لبعض الوقت، فظل مذهولًا لا يتحرك، يشاهدهم يمرّون من أمامه الواحد تلو الآخر، شعر بهم لكن ليس بقوة كما توقع أن يكون شعوره عندما يجدهم، فهناك مرات كان شعوره أقوى كثيرًا من هذه المرة، وهو يراهم بعينه بذلك القرب.

استعاد رشده قبل أن يختفوا ثانيًا، وفكر أن يتحكم فيهم، ومجرد أن فكر في ذلك حتى توقفوا في أماكنهم، شعر أنه قد دخل في جسد كل واحد فيهم، رأى بعيونهم وغنى بأصواتهم، ثم فكر أن يذهب إليهم لكنه بدلًا من ذلك جعلهم يأتونه، كان معظمهم من الإناث معهن بعض الصغار.

ربما لأن أطلس لم يكن يعرف الأسماء فلم يعرف بمَ يجب أن يشعر، إلا أنه لو كان بشرًا حينها لبكى من شدة الفرح والإثارة، لكنه لم يفعل سوى أن اخترق السطح بقوة وجعل القطيع يفعلون مثله، وأخذ يسبح معهم بسرعة شديدة حتى شعر بهم قد أنهكوا، فتركهم وفك قبضته عنهم فعادوا يسبحون معًا في اتجاه واحد من تلقاء أنفسهم، وكلما أعادهم إليه كانوا يسبحون في نفس الاتجاه كل مرة بعد أن يتركهم، فتعجب من ذلك وتركهم لحالهم يسبحون أينما يريدون لكي يتتبعهم.

وظل يسبح وراءهم لمدة طويلة وسِدنا برفقته حتى مَلّ السباحة نفسها، فكان متأخرًا عنهم كثيرًا وإن لم يغيبوا عن بصره وإدراكه، حتى وجدهم يقتربون كثيرًا من يابسة، وقبل أن يدرك الأمر وجدهم قد اختفوا كأنهم دخلوا من باب خفي في قلب هذه اليابسة.

- إنهم وراء هذه اليابسة لا تفقدهم مرة أخرى.. سِدنا فعلت ما أخبرها كيانج.. سِدنا ستزور أطلس قريبًا

- تعلمين أين أنا.. أطلس سيفعل أي شيء تريده سِدنا

رحلت سِدنا فهرع أطلس إلى شاطئ تلك اليابسة يبحث عنهم، إلى أن وجد ذلك الباب الخفي الذي كان عبارة عن فتحة في الشاطئ كأنها واديًا تحت الماء، فسبح فيها بسرعة ليجد نفسه كأنه دخل بحرًا آخر.

وجد أطلس القطيع الذي كان يرافقه من الشمال ومعهم حيتان آخرين، فأدرك أن هذا هو المكان حيث تعيش الحيتان الرمادية منعزلة ومتوارية عن العالم وعن البشر وعن الحيتان، تمامًا كما أخبره نون من قبل.

ولم يخُض كثيرًا في ذلك البحر حتى وجد حوتًا رماديًّا آخر قد دخل وراءه من تلك الفتحة، يسبح مضطربًا بسرعة كأنه يهرب من شيء، فالتفت أطلس ليجد قطيعًا من الحيتان القاتلة كانت تطارد ذلك الحوت.



مرت الحيتان القاتلة من أمام أطلس كأنهم لا يرونه عازمين على الفتك بذلك الحوت، ثم شعر بكل الحيتان الرمادية التي في ذلك البحر تضطرب وتتشتّت، فلم يهتم بهم وهرع وراء الحيتان القاتلة، فأدرك أحدها وعضّ على ذيله وجزء من ظهره بقوة فهشّمه بين فكّيه فصُرِع الحوت من فوره.

ذُعرَت بقية الحيتان القاتلة وأرادت الهرب، فلم يسمح لها أطلس بذلك، وسبح وراءهم وأخذ يقَتّل فيهم كلما أدرك أحدهم، فلم يلحظ أن هناك حيتان قاتلة أخرى تحوم حول الحوت الرمادي، الذي كان يطفو على ظهره مسلّمًا أمره، شعر به وقد تمكن الخوف منه كليًا، تعجب أطلس من ذلك الاستسلام رغم أن بإمكانه الهرب أو المقاومة، ورغم أن الحيتان الرمادية ليست كبيرة كثيرًا إلا أنها أكبر بكثير من الحيتان القاتلة.

أراد أطلس أن يحرك ذلك الحوت ويجعله يهرب، لكن كانت الحيتان القاتلة قد تمكنت منه، فرآهم يقطّعونه ويخرجون من الماء وينقضّون على

بطنه، ورأى بعضهم يدخلون في فمه ويخرجون بقطع كبيرة من لسانه بين أسنانهم، ثم تكاثرت الحيتان القاتلة حول الجثة تأتي من كل مكان.

فعزم أطلس على أن يقتلهم بنفسه، لكن استوقفه صوت غناء يعرفه:

- كنتُ أظن أنك لن تجدهم أبدًا

خرج الأوركا ذو الجوف الخالي من بين قطيعه، وأضاف وهو يبتلع قطعة من اللحم:

- كيف هم رجالكَ.. صاروا أقل منذ آخر مرة رأيتكَ.. لا تخبرني أنك عفوتَ عنهم فلن أصدق ذلك
- كيف وجدتَ هذا المكان
- لم أصدق عندما أخبرتني أنكَ تشعر بهم.. لكني بحثت عنهم وأرسلت الصغار في كل المحيطات حتى وجدتهم.. لا تظن أني بحثت عنهم لمساعدتك.. بل لأني أذكر كم كانوا فرائس بلهاء وسهلة
- إذًا لمَ دللتني على ذلك الحوت الصائب
- تقصد الحوت الذي يعيش وحده في الشمال.. هل كان يعرف مكانهم فعلًا.. صدقني لم أكن أعلم ذلك.. لكنت ذهبت إليه أولًا ووفرت على الصغار عناء البحث

ثم أضاف:

- كنت أعرف فقط كم كان يكره الحيتان التي تبتلع أكثر من واحد.. وارتأيت أنه يجب أن تتقابلا لتصبحا أصدقاء.. أو ربما ليقتلكَ
- إنه لم يقتلني بل أنا من قتلته.. والآن إما أن تأخذ حيتانك وترحل عن هنا.. وإما أن تلقى نفس مصيره
- لا أظن أني سأرحل عن هنا.. كيف أرحل عن ذلك النعيم

لاحظ أطلس أن مئات من الحيتان القاتلة قد اجتمعت وراء الأوركا يكشّرون عن أسنانهم، دون أن يلاحظ مئات وربما آلاف من الحيتان

الرمادية في الأرجاء، فأمرهم أن يجتمعوا، فأذعنوا على الفور وانتظموا وراءه، فكانوا أضعاف الحيتان القاتلة.

ربما أدرك الأوركا ذلك وأنه في موقف حرج فتراجع قليلًا حتى دخل بين صفوف حيتانه، فقال أطلس وهو يتقدم:

- لا بد أنك نسيتَ أني حوتًا رماديًّا مثلهم
- ظننتُ أن اسمك...
- اسمي أطلس.. وأنا آخر حوت رمادي ذو جوف.. أريدكَ أن تعلم ذلك قبل أن أقتلكَ...

قال أطلس آخر كلمة فتقدمت نحوه الحيتان القاتلة واختفى الأوركا بينهم، تقدم أطلس بسرعة يقود وراءه حيتانه، ثم اخترق السطح وتبعه ألف حوت يفعلون مثله، لينقضوا على الحيتان القاتلة من فوق، وبينما كان أطلس يبحث عن الأوركا؛ كان يقاتل عن طريق آلاف الحيتان الرمادية في نفس الوقت.

كان يضرب بآلاف الذيول ويعض بآلاف الأسنان، كما شعر بكل ضربة يتلقونها وكل جرح يصيبهم، ثم وجد الأوركا يسبح مبتعدًا خارجًا من ذلك البحر عن طريق الفتحة المفضية إلى المحيط، فسدّ عليه طريقه بواسطة عشرات من حيتانه، فقاتلهم على طريق الخروج لكن لم يستطع النفاذ منهم، ومن ثمّ أدركه أطلس وكله غِلّ وغضب وفتح فمه على آخره وأطبقه على الأوركا، لم يكن فك أطلس قويًا لهذه الدرجة، لكنه شطره نصفين.



(3)

ربما انتهى ذلك اليوم الطويل عندما خرج سكان أطلس من جوفه لأول مرة منذ رحلتهم الأخيرة، وجاء بعده يومًا آخر يشبهه، لكن ليس طويلًا مثله، إذ تحسنت الأحوال في داخل الجوف كثيرًا حتى عادت كعهدها

السابق، فعاد الزمن يمر سريعًا مثلما كان دائمًا، وعادت الألعاب، وعادت تدريباتهم على القتال، كما تكررت النزالات بينهم كثيرًا، لكنها كانت منظمة وليست عشوائية مثل أول مرة، أما عن عالم الأحلام فلم تكن سفينة أطلس موجودة فيه طوال ذلك اليوم.

وأثناء ما كانوا لا يفعلون شيء على الإطلاق؛ باغتهم أطلس بصافراته الثلاث منهيًا يومًا آخر طويل، فقال بوهاردي فور أن انتهت الأغنية:

- من منكم كان نائمًا يخبرنا بمَا يريد؟

لم يتلقَّ رَدًّا، فهمس إلى نفسه بسباب، وأخذ حربته وخرج من الجوف دون أن ينبس بكلمة، وتبعه رجاله بعضهم بحربته، وبعضهم خالي الوفاض.

الوقت منتصف النهار، والشمس عمودية على كل شيء، الجو دافئ يكاد يكون حارًا، والبحر متماوج لكن ليس مضطربًا كثيرًا، وإن كان لونه غريبًا، لا يزال أزرق لكن فيه شيء من الحُمرة، غير ذلك كان كل شيء عاديًا على نحو يثير الملل والقلق، ربما أكثر ما يثير الاهتمام في هذا كله كان يابسة بعيدة تلوح في الأفق، فقال دكرور:

- هل يلاحظ أحد شيئًا غريبًا في المياه؟ أم أني صرت أرى الأشياء حمراء؟

فقال عمار بعصبية وهو يشير إلى البحر:

- إنه حوت قاتل!! تأهبوا!!!!

تأهبوا كلهم حتى من ليس معه حربته، إلى أن أدركوا أنها جثة حوت قاتل، ورأوا جثث حيتان في كل المكان، فعلم دكرور أنها سبب المياه الحمراء.

وقف الرجال على ظهر أطلس لمدة، حتى شعروا بالقلق وهم يترقبون شيئًا لا يعلمون ما هو، فقال أوين والقلق في صوته:

- حسنًا يا أطلس! ها نحن قد...

اضطربوا جميعًا وتراجعوا وانزلقت أقدام بعضهم في الماء؛ عندما خرج أكثر من عشرة حيتان تطير من المياه بشكل عمودي، فاضطربت المياه بشدة وتحولت إلى زبد بعد أن عادوا يهوون فيها، ثم ظلوا يسبحون حول أطلس في دائرة واسعة.

كانت حيتان تشبه أطلس إلى حد كبير، لكن من حيث الشكل فقط، وبغض النظر عن أنها تبدو كأسماك صغيرة بالنسبة له؛ لكنها أيضًا كانت أصغر من الحيتان العادية التي رأوها كثيرًا.

قال أوين باستغراب بعد أن ذهب عنه قليلًا من روعه:

- إنها حيتان رمادية!!!

وقال بوهاردي:

- هل وجدها أخيرًا؟!!

وقال موريس بإعجاب بيّن على وجهه:

- إنهم بالفعل لم ينقرضوا!!!

وقال أوساي بضحكة:

- هنيئًا لك يا أطلس!

ثم عاد موريس يقول:

- أعتقد أني أعرف ما حدث هنا.. هل أنتَ من قتلت هذه الحيتان القاتلة يا أطلس؟!

أجابه أطلس بأن نفث، وهتفوا جميعًا تحيةً مع تقافز الحيتان من حولهم ومن فوقهم، ثم قال رالف وقد رفع صوته:

- أهذا فقط ما يمكنك أن تفعل بهم؟

قالها فسكنت الحيتان عن حركتها فجأة كأنها تجمدت، ثم عادت بعد برهة تتقافز وتنفث في تناغم رائع، وتتلاعب مع بعضها، وهتف الرجال مرة

أخرى لذلك، ثم تشجعوا وركب كل واحد منهم على ظهر حوت وسبحوا بها وغاصوا وطاروا حتى أنهكوا، واستمروا في ذلك إلى أن غربت الشمس.

أخذهم أطلس على ظهره إلى شاطئ قريب من وراءه صحراء لا يبدو لها من آخر، فنزلوا عليه وظل هو يسبح على مقربة، وتركهم جالسين يستمتعون بالغروب ودفء الجو، فقال رالف بارتياح بعد أن سحب شهيقًا:

- يمكنك القول أنها فردوس لتلك الحيتان!

رَد دييجو:

- لا تبدو لي كفردوس

وقال أوين:

- أي مكان ليس في بشر هو الفردوس بعينه يا دييجو

ثم قال عمار بعد مدة من السكون والتأمل:

- إذًا سنعيش هنا إلى الأبد؟

أجاب بوهاردي:

- ولمَ لا؟!

وأضاف أوساي:

- لستُ أمانع ذلك

انتهى يوم آخر طويل كان أفضل من سابقه، وتوالت بعده الأيام كثيرة، فكانوا يخرجون من الجوف بشكل يومي تقريبًا، إما للجلوس على الشاطئ الذي دائمًا ما يكون قريبًا، وإما لمشاهدة إناث الحيتان الرمادية وهي تضع صغارها وترضعهم، وإما يخرجون لمجرد الخروج فحسب، من دون أن يحملوا أي هم لأي شيء سواء إن كان حدث أو يحدث أو سيحدث.



صار أطلس الملك الذي ينبغي أن يكونه، وسط حاشيته الكبيرة المخلصة من الحيتان الرمادية، في المملكة البعيدة التي سمّاها رجاله الفردوس.

وكانت من واجباته بصفته ملك أن يحافظ على رعيّته وسلامتهم، فبغض النظر عن الفردوس الآمن؛ كان يحرص على ألا يمسهم أذى أثناء رحلتهم من وإلى الشمال، فكان كثيرًا ما يبعد عنهم الحيتان القاتلة التي صارت أجبن بعد أن قتل زعيمها، وكثيرًا ما يبعدهم عن سفن صيد الحيتان التي تعترض طريقهم، وبعد أن تحكم في كل واحد فيهم صار يشعر بهم ولو كانوا في محيط آخر، إلا أنه لا يشعر بهم طوال الوقت.

كما أنهم اعتادوا عليه وعلى وجوده كثيرًا، وعرفوا أنه يدفع عنهم الأذى أينما وجد، وتعلموا أنه ما دام في الجوار فلن يصيبهم مكروه، فصاروا يغنون له في حال وجود خطر أو شعروا بالخوف كأنهم يستنجدون به.

وبالطبع من واجب الرعيّة تجاه راعيهم أن يفعلوا ما يأمر به، بغض النظر عن أنه يتحكم فيهم، فكانت إناث الحيتان الرمادية تأتيه طواعية دون تحكم منه وهي تغني أغاني التزاوج، إذ لم يكن لأطلس ذكر منافس على أي حال، فتزوج من شاء منهن حتى لم يعد يميز أي منهن تحمل بطفله.

لم يكن أطلس يتمنى أكثر من ذلك، ففي جوفه رجال سعداء، ومن حوله الحيتان الرمادية، ربما تلك هي كل الحيتان الرمادية التي في العالم، كما أنه في مكان ناءٍ بعيد عن البشر، فكان كل ذلك ما جعله راضيًا مطمئنًا لا يعبأ بأي شيء، ولا شيء يمكن أن يعكر صفوه.

لم تنقطع سِدنا عن زيارة أطلس في مملكته، فكانت تأتي وترحل من حين لآخر، كان مُرَحبًا بها دائمًا، كما أن أطلس ألِفَها وألِفَ وجودها، وفي بعض الأحيان يُخرج إليها رجاله لإلقاء التحية، وكانت إذا طالت غيبتها يرسل إليها الحيتان الرمادية للبحث عنها في المحيط الهادي، فبالنسبة لأطلس كانت سِدنا صديقه الوحيد من الحيتان بعد أن فقد صديقيه نون وكيانج، وبالنسبة لسِدنا كان أطلس لها بمثابة كيانج.

فكانت تحكي معه عمّا تلاقي من عجائب وكائنات، وتحكي عن الحيتان الزرقاء العادية وأنها صارت تتحكم فيهم لكن ليس بقوة، كما كانت تخبره عن عواصف عظيمة تصاحب شعورها بالصداع الذي صار يلازمها كثيرًا مؤخرًا، وما لاقت من سفن بعد أن صارت تتجرأ وتقترب منها، معظم تلك السفن تكون هي مصدر الصداع.

أتت سِدنا الفردوس فتم الترحيب بها من قبل الحيتان الرمادية الذين صاروا يألفونها بعد أن كانوا يفرون منها، ورآها أطلس بعيونهم فأتاها ورحب بها هو الآخر لتخبره:

- الصداع صار يفتك بي.. أتيت هنا لعله يرحل عن رأس سِدنا
- أنا أيضًا أشعر به.. لكنني لن أبرح هذا المكان
- في الأيام الماضية تتبعت سفينة كانت مصدر الصداع.. تابعت العاصفة وهي تحاول أن تسقطها لكنها عادت إلى اليابسة سالمة
- هذا يحدث وصار يحدث كثيرًا.. حتى العواصف لم تعد قادرة عليهم

بدا عليها الإعياء والألم وهي تقول:

- أهو دائمًا بهذا السوء
- بل أسوأ.. هذا لا شيء مقارنةً بما سببه أقل واحد في جوفي.. شدة الصداع علامة على شدة بؤس وشقاء البشري سبب الصداع
- ربما حان الوقت ليسكن جوفي البشر.

قالت ذلك في غضب، وسبحت مسرعة خارج الفردوس إلى المحيط، فأخبرها أطلس وهي راحلة:

- احذري وأنت تبتلعين ذلك البائس.. استقبليه بينما هو نائم.. كوني رفيقة به



لا يزال الزمن مجهولًا تمامًا من دون أي وسيلة لمعرفة السنين والأشهر، كانوا يعرفون التواريخ بالتحديد من سجلات السفن التي كانوا يصيدونها، أما الآن فهم يمكثون في الجوف لبضع ساعات أو بضعة أشهر، ثم يخرجون لأقل من ساعة، لكن رالف وموريس استنتجا بعبقرية أنه مرت ثلاث سنوات على مجيئهم إلى ذلك المكان الذي سمّوه فردوس الحيتان.

فقد لاحظا أن كثيرًا من الحيتان الرمادية تختفي من الفردوس لأشهر، حتى يصير المكان خاليًا منهم تقريبًا، فتوقعوا أنها تهاجر، وتأكدوا من ذلك عندما أخبرهم أطلس أنهم يغادرون إلى مياه أبرد في الشمال، وإن ما زالوا لا يعلمون أين هم على خريطة العالم، لكن معنى هذا أنها تهاجر من الفردوس إلى القطب الشمالي كل عام، وفي حين أن تلك هي ثالث مرة يهاجرون فيها منذ أن جاءهم أطلس؛ بذلك يكونون هنا منذ ثلاث سنوات، أكثر أو أقل ستة أشهر، حسب كلام موريس.

عادت قطعان الحيتان الرمادية من هجرتها، وعاد الفردوس يزدهر مرة أخرى، وعادت الإناث بأحمالها، وكان الرجال حريصين على مشاهدتها وهي تضع حملها، إذ إنهم شهِدوا الأمر مرة واحدة فقط، فقد كان شيئًا نادرًا أن يحدث بالقرب من السطح، وأثناء ما كانوا يشاهدون باستغراق بعضهم من على ظهر أطلس، وبعضهم في الماء لرؤية أفضل؛ قال أوساي الذي كان في الماء:

- مهلًا يا أطلس! هل هذا ابنك؟!!

ضربه دييجو على رأسه فلم يمنعه ذلك من أن يكمل:

- وهذه يجب أن تكون زوجتكَ!

وقال أوين وهو يضحك بشدة:

- السيدة أطلس!

وقال عمار:

- لديك زوجة رائعة القبح يا سيد أطلس! ألا يجب أن نقيم زفافًا أو أي شيء؟!

قال رالف:

- لدي الأغنية المناسبة لذلك الزفاف!

وضحكوا جميعًا فقاطعهم بوهاردي بعصبية:

- ششش! اصمتوا! ها هي ذي!

إذ كان يظهر من فرجها شيء أملس لامع لا يعلمون إن كان رأس الجنين أم ذنبه، وبعد برهة انزلق منها كله مرة واحدة، وظل لمدة قصيرة بلا حراك، وجسمه الذي في طول رَجُلين تقريبًا كان مقوسًا كأنه مولود بعاهة، ثم سرعان ما بدأ يتحرك بوهن أولًا ويعتدل جسمه، وفي دقائق كان يسبح بجوار أمه.

هتف الرجال بسعادة، وهنأوا أطلس باستهزاء فقال دكرور:

- مبارك لك يا أطلس! لا بد أنه ذكر قبيح مثلك

وقال دييجو:

- إنه لا يشبهه، يجب أن تراجع ولاء زوجتك يا أطلس، لا يجب أن تأمنهم أبدًا

قالها دييجو وقطع أطلس ضحكات الرجال فوق ظهره بأن دار فأسقطهم عنه، والتقمهم بسرعة الواحد تلو الآخر.

قال رالف بمرح فور أن عادوا:

- لابد وأنه استاء من مزحتك يا دييجو
- أنا فقط أنصحه!
- كما أنها لم تكن مزحة جيدة على كل حال
- ليس ذنبي أنه تزوج من عاهرة!

وقال عمار:

- هل تصدقون أن أطلس تزوج وأنجب فعلًا؟

رَد موريس:

- وما الذي يمنعه؟!

ثم استيقظ سامبار الذي كان نائمًا في الجوف بينما كان البقية في الخارج، وقال:

- يا رفاق!...

قال له أوساي:

- أه! سامبار! لن تصدق من أصبح أبًا!

لكن سامبار بدا أنه لا يسمعه وبدا مذهولًا، ويلتقط أنفاسه كأنه كان يجري، ثم قال:

- يا رفاق! هناك سفينة بالخارج! أعتقد أن أطلس يريدنا... يريدنا أن نخرج إليها



علم أطلس أن له أبناء كثيرون دون أن يعلم أيهم له، لكن هذه المرة كان متأكدًا أن هذه الأنثى تحمل بطفله، فأخرج رجاله ليشهدوا ذلك الحدث، وانشغل معهم بمشاهدة عملية الولادة دون أن يتدخل فيها بأي شكل، فقد كان يشعر بصداع شديد يصيبه بالإعياء لدرجة أنه فكر أن يذهب ويبتلع ذلك البشري مصدر الصداع، وتذكر سِدنا وأنها كان من المفترض عليها أن تتولى أمر ذلك الرجل.

ثم نزل الطفل بعد مدة من الترقب، ولم يعرف أطلس بمَ شعر حينها، بعد أن شعر بخوفٍ ينتاب الحيتان الرمادية من حوله، ثم رأى بعيونهم سفينة صيد حيتان كانت تقف خارج الفردوس، وعلم أنها أيضًا مصدر الصداع.

التقم رجاله بسرعة وأعادهم إلى جوفه، ثم أخبر رَجُله النائم عن الأمر:

- هناك سفينة يا سامبار
- اللعنة! سفينة صيد؟
- نعم
- إذًا سنخرج إليها، إنهم في الخارج أصلا
- إنهم ليسوا مستعدين.. لقد أعدتهم أخبرهم أنت

تذكر أطلس شيئًا كان يشغل باله دائمًا، شيء يريد أن يجرب فعله منذ أن أتى الفردوس ووجد الحيتان الرمادية، فأخبر سامبار:

- أتدري.. ربما ليس عليكم أن تخرجوا.. أريد أن أرى إن كانت الحيتان قادرة على فعل ما لا أقدر على فعله...

انتهى الحلم باستيقاظ سامبار، ثم خرج أطلس من مياه الفردوس إلى حيث كانت السفينة، وأعاد منهم كل من كان في مياه المحيط إلى مياه الفردوس، لكن أثناء تلك العملية ظهرت بعض الحيتان أعلى السطح دون قصد، وبعضهم كان قريبا جدًا من السفينة، رأى أطلس من خلالهم أن هناك حوتًا معلقًا إلى جانب السفينة فاطمأن إلى أنها مشغولة في هذا الحوت المسكين، والذي لم يكن حوتًا رماديًا، بل كان حوت أزرق لمحه أطلس فتجاوزه ولم يعبأ به.

صارت كل الحيتان الرمادية في الفردوس آمنة، فوقف أطلس على باب الفردوس للحراسة إذا اقتربت السفينة، دون أن يعلم ماذا سيفعل إن اقتربت، وبقي مكانه مترقبًا ولم ينتظر كثيرًا حتى أنزلت السفينة قواربها، التي توجهت مباشرةً إلى مياه الفردوس كأنها تعرف وجهتها.

نادى أطلس على رجاله ليخرجوا للقتال، وبينما يتجهزون اقترب أكثر من السفينة ومعه بضعة حيتان رمادية، اقترب كفاية ليرى الحوت الأزرق المعلق إلى جانب السفينة، واقترب أكثر ليدرك أن جثة ذلك الحوت هي جثة سِدنا.

ظل في مكانه ينظر مذهولًا لا يتحرك كالمشلول، لا يريد أن يصدق أنها هي، لا يريد أن يصدق ما يراه بأم عينيه، شعر بما يسميه البشر الحزن، وهو شعور مقيت يصيب كل كائن حي، لكن لا يتحمله أي كائن، أُضيف إليه شعور آخر يسميه البشر الندم، وذلك لا يشعر به إلا البشر من سائر الكائنات، فكان شديد القسوة أن يصيب حوتًا، فقد كان يشعر أنه السبب في موت كل حوت عرفه، وموت كل إنسان عرفه.

ربما أراد أطلس أن يجعل الحيتان الرمادية تضرب هذه السفينة وتغرقها لكنه لم يفعل، أراد أن يندفع بنفسه ليهشمها إلى قطع، لكنه لم يحرك ساكنًا منه أو من حيتانه، فلم يقدر أيضًا على فعلها حتى بواسطة الحيتان الرمادية، حتى وإن كان يتلبس أجسادهم فيصيرون امتدادًا له، يصيرون هو.

يعلم أن بإمكانه تدمير العالم لكنه لا يفعل، لم يعلم أبدًا ما الذي يمنعه من قتل البشر، يدرك أنه قادر تمامًا على ذلك لكنه فقط لا يفعل، لا يعلم أهي الفضيلة أم المبادئ أم الوازع الأخلاقي أم لأنه حرام وجريمة، مؤكد هذه أشياء لا تنطبق على حوت، لكن البشر يدّعون أن لديهم كل ذلك ومع ذلك يقتلون أكثر من أي كائن آخر، ربما هي فقط فطرة فُطِرت عليها الحيتان ذات الأجواف تمنعهم من قتل البشر، لكن في هذه الحالة كانت لعنة على أطلس.

أفاق أطلس من إغمائه حين أدرك أن القوارب قد دخلت إلى الفردوس، فعاد بسرعة ليجدهم يتوجهون نحو الأم التي وضعت حملها منذ ساعات، لم يجعلها تنزل تحت السطح وسبقهم إليها وفتح فمه تحتها ليخرج رجاله في نفس اللحظة التي وصلت القوارب إليها، فظهروا إليهم من فوق الأنثى فتمكنوا من البحارة واستولوا على قواربهم، وانشغل بهم كثيرًا وظل يسبح

بجانبهم لكي يعيدهم إذا أصيبوا، حتى شعر بألم شديد قد أصاب أحد حيتانه كان بالقرب من السفينة.

تأكد أنه أصيب بحربة فتلبّسه لكي يتلقى الألم بدلًا منه ويخفف عنه، ثم أعاده إلى رجاله ليتخلصوا من الحربة وذهب هو إلى السفينة، واقترب منها كفاية وظهر على السطح وتعمد أن ينفث نفثة عالية وراح يضرب بذيله، وهو يفكر أنه إن لم يقدر على تدمير تلك السفينة فعلى الأقل ستبتعد خائفة إن رأته، أراد أن تعلم أن لذلك المكان مَلِكًا.

وبالفعل لم يمكث كثيرًا حتى أنزلت السفينة حِملها العظيم من جثة سِدنا وسبحت مبتعدة وهو إلى جانب جثة سِدنا يشاهدها بحسرة، وبدأت سِدنا في الغوص ومكث معها أطلس مدة طويلة حتى غابت في الأعماق، ثم عاد إلى رجاله وأعادهم إلى جوفه.



وقعت الكلمة كالمطرقة على قلوبهم، رغم أنهم كانوا يتوقعونها كثيرًا، إلا أنها كانت آخر كلمة يتمنون سماعها في حياتهم، لم يكن دكرور خائفًا أو متوترًا كما توقع أن يكون عندما يسمع تلك الكلمات، بل كان حانقًا غاضبًا أكثر شيء، وفور أن سكت سامبار صاح أوين بعلو صوته وهو يضرب الهواء بقبضته:

- اللعنة على ذلك! تبًا لهم! الملاعين!!! الملاعين!!!!

ثم أتبعه أطلس بأغنية ليست صافرات نداء القتال، فقال سامبار:

- أعتقد أن أطلس يريد أن يستخدم الحيتان لإغراق السفينة

فقال رالف:

- كيف سيفعل ذلك؟ الحيتان الرمادية صغيرة جدًا ولن تقدر على إغراق سفينة

وقال موريس وهو يتناول حربته وقد رفع صوته:

- بالفعل يا أطلس، يجب أن يكون نحن من نفعلها، كما أنه إن كنتَ لا تقتل البشر فعلًا، فلا تفعلها بواسطة حوت آخر تتحكم فيه

وقاطعه بوهاردي:

- مهلًا يا موريس!.. أيها الرجال! إن لم تُريدوا الخروج فلا بأس، لكنني سأخرج إليهم، فهم إن تُرِكوا فسيحولون ذلك الفردوس إلى الجحيم

ثم تناول حربته هو الآخر وخرج دون أن ينبس بكلمة أخرى.

عندما خرج دكرور وجد بوهاردي والبقية لا يزالون تحت سطح الماء، ومن فوقهم أم مع رضيعها ولا سبيل للتمييز إن كان هذا هو الوليد الجديد أم آخَر، ولاحظ أيضًا حيتان كثيرة أخرى حولهم وجميعها تسبح تحت السطح، إلا تلك الأم ورضيعها.

ثم سمعوا صوت ضرب المجاديف على الماء فكان قاربان يتوجهان ناحية الأم، فهرع بوهاردي سابحًا إليها وتبعوه، وفي نفس اللحظة التي صارت الأم في مرمى تصويب القاربين؛ كان بوهاردي قد اعتلى ظهرها مع دييجو وأوساي، وبرزت رؤوس البقية فوق الماء بين القاربين.

وفي اللحظة التالية رمى بوهاردي بحربته رامي الحراب على أحد القوارب، وفعل دييجو المثل مع القارب الآخر، وتشبث البقية بالقاربين ودوّروا الطعن في المجدفين، فسحب أحدهم مجدافه وضرب به دكرور على رأسه فأدماها، قبل أن يمسك عمار بالمجداف بيسراه، وقتل الرجل بيمناه، وقُضيَ على البحارة في القاربين، ثم انشغلوا بإلقاء الجثث في الماء فظل بعضها يطفو حول القارب، وهم عليه يقفون في بِرْكَة من دماء البحارة، في منظر دموي كأن القارب يسبح في بحر من الدماء وقد أصابه خرق.

وأثناء ذلك أتاهم حوت في ظهره حربة فاستخرجها منه دييجو دون نقاش في الأمر وهو يقول:

- ماذا يفعل أطلس بحق الجحيم!.. لا يعجبني حين يفكر من نفسه

قال موريس:

- ربما ذهب ليغرقها.. اللعنة! إن لم يتسبب ذلك الأحمق في قتل نفسه فسيقتل تلك الحيتان

ظلوا على القارب لمدة طويلة، حتى أصيب رالف بالإعياء، وفقد دكرور صوته تمامًا، وفقد بوهاردي بصره تمامًا، وفقد دييجو قدرته على تحريك قدميه، وتلك أشياء لم تحدث منذ زمن طويل، ثم رأوا السفينة وهي تبحر مبتعدة، فقال أوساي:

- اللعنة! إنهم يهربون.. هل نلحق بهم؟

رَد بوهاردي:

- نعم، لقد رأونا، لكن أين أطلس على كل حال؟

ثم رجع أطلس أخيرًا، ثم خرقوا القوارب بسرعة لكي يعودوا إلى الجوف بسرعة، ووجدوا سامبار وحده في انتظارهم، فسألهم بتوتر:

- ماذا إذًا؟! هل اعتنيتم بالأمر؟!

رَد رالف:

- لا أدري، لمَ لا تخبرنا أنتَ؟ ألم تنَم؟
- ماذا تقصد؟! ألم تغرقوها؟!

حكوا له باختصار عمّا حدث، ومكثوا متأهبين بأسلحتهم في انتظار إشارة أطلس للخروج، ومكثوا كثيرًا حتى غشيهم النعاس في أماكنهم، وأول ما صاروا جميعًا على متن السفينة؛ قال أطلس:

- لقد أخذتُ بعضًا من الحيتان وتوجهت بهم إلى السفينة ولم أقدر على المساس بها.. أعذروني أيها الرجال لكنني فقط لم أقدر

قال عمار بطيبة:

- لا بأس يا أطلس، لكن لماذا لَمْ تعُد إلينا لنتولى أمرها نحن؟
- فكرت أنها خطر.. تلك السفينة قتلت سِدنا نفسها

لم يتكلم أحد لمدة إلى أن قال بوهاردي:

- لكن كيف رحلَت بعد أن رأتنا نقتل البحارة على القوارب؟
- لم ترحل لأنها رأتكم.. بل رحلَت لأنها رأتني

لم يتكلم أحد لمدة إلى أن قال أوين:

- حسنًا فقط أخبرنا في المرة القادمة حين يعودون

قال دكرور بدهشة:

- يعودون؟!!

رَد موريس:

- سيعودون، عاجلًا أو آجلًا سيعودون، لكن هذه المرة سنكون مستعدين



(4)

أكمل أطلس حياته في الفردوس وحيدًا بعد سِدنا، لا يعوّضه فقدها كل الحيتان الرمادية، بالكاد كان رجاله يخففون عنه وحدته، فكان يخرجهم كثيرًا بسبب وبدون، ثم مر من الزمن كفاية لأن يعود اعتياده بالحياة في الفردوس، ويعود إلى منصبه كملك وإلى شؤون رعيته.

لم يعلم أطلس كيف يؤول الأمر بالحيتان لكي تخرج من البحر وتعلق على الشاطئ، فهو لم يرَ ذلك وهو يحدث من قبل، فقط يعلم أن هناك حوتًا على الشاطئ بعد فوات الأوان، كما لم يعلم لماذا تموت ولديها على اليابسة كل ما تحتاج من هواء.

وعلم أن هناك حوتًا رماديًّا شاردًا على أحد شواطئ خلجان الفردوس، فقد كان للفردوس خلجان عديدة كانت صغيرة وواسعة الشواطئ والمياه الضحلة، التي من السهل أن تعلق فيها الحيتان، لكن أطلس كان غالبًا ما يحرص على عدم حدوث ذلك، إلا هذه المرة.

وفي تلك المرحلة لم يكن من سبيل لمساعدة ذلك الحوت سوى بمساعدة رجاله، كان أطلس كثيرًا ما يخرجهم لإنقاذ الحيتان الشاردة وإعادتها إلى الماء، وكانوا ينجحون في ذلك كل مرة، لكن كثيرًا ما يفشلون في إعادتها على قيد الحياة، إذ كانت الطريقة نفسها تودي بحياة كثير من الحيتان، فامتنع الرجال عن فعلها بعد عدة مرات فاشلة، لكن دائمًا ما عرف أطلس أن فرصة نجاتهم على يد رجاله وإن كانت ضئيلة؛ أفضل بكثير من حتمية موتهم على الشاطئ.

تذكر ذلك فلم يجد ضيرًا من إخبار رجاله فلم يتوانوا في الخروج، وربطوا فيه الحبال، وعند إشارة أوساي الذي يبقى على ظهره؛ استجمع أطلس كل قوته وشدّ الحبال، وعلم صغر حجم ذلك الحوت عندما أعاده إلى المياه من بضعة شدّات فقط.

تلبّس أطلس ذلك الحوت ربما ليبقيه على قيد الحياة إن كان ينوي غير ذلك، وشعر بما يعانيه من ألم وجروح سببتها الحبال والاحتكاك بالرمال، ثم جعله يسبح بعيدًا عن الشواطئ، وأثناء ذلك كان على ظهره أوساي الصغير فأخذ يلاعبه بأن يغوص به ويخترق السطح، ثم نزل وسبح إلى البقية، وما أن فعل حتى سمع أطلس الحيتان الرمادية تغني أغنية طلب النجدة وأن هناك خطرًا قريب، فتلبّسهم كلهم ونظر بأعينهم كلهم يبحث عن مصدر ذلك الخطر، إلى أن وجده.

رأى أكثر من سفينة بعيون أكثر من حوت تنتشر في الفردوس خارج الخليج الذي هو فيه، فعلم أن ذلك ربما يكون موعد هلاك الفردوس وكل من يسكنه من رجال أو حيتان.



توالت أيام كثيرة منها الطويل ومنها القصير، كانوا يخرجون في بعضها ويمكثون في الجوف أكثرها، وكلما كانت الأيام تمضي أكثر كلما زاد القلق من الخروج وملاقاة السفينة الهاربة، كأنها قد وعدتهم بالعودة للاقتصاص منهم، فأصبح بعضهم يجفل من مجرد سماع صافرة أطلس حين يغني، لكن حيث مرت أيام أكثر وأكثر، فقد بدأ روعهم يذهب، وإن لم ينسوا سببه.

منذ أيام عديدة ربما شهور، كانت الحيتان الرمادية قد غادرت الفردوس وقلّت أعدادها كثيرًا، وحسب نظرية موريس ورالف فهُم بذلك قد مكثوا سنة أخرى، كانت سنة هادئة تكاد تكون مملة، لكن الرجال يحبون الملل والروتين، راضون به وإن كان أبد الدهر.

كسر أطلس ذلك الملل عندما أخبر عن حوت شارد على الشاطئ، وفي حين أنهم لم يصيدوا سفينة تحويت منذ زمن بعيد؛ فقد كان ما يملكون من حبال قليل جدًا، بالكاد يكفي لجر بقرة مثلًا وليس حوت.

نبّه دكرور لذلك فقال بوهاردي:

- لا بأس، سنتصرف بما لدينا، هيّا بنا!

قالها بحماس وصفق بيديه تشجيعًا، ثم حملوا معهم كل قطعة من حبال في الجوف وخرجوا.

كان الجو ليلًا ولم يكن في السماء سوى قطع من سحب حمراء تواري قمرًا وراءها، لكن البحر والرياح ينبئان عن عاصفة آتية أو أنها قد مضت، كانوا فوق ظهر أطلس بعيدين عن الشاطئ بعض الشيء، إذ إن المياه الضحلة واسعة في شواطئ الفردوس خاصةً عند خلجانه الصغيرة، وهم كانوا في أحد تلك الخلجان العديدة.

بدأ رالف بربط الحبال في أطلس وإذ كانت قليلة فبدت واهية جدًا، ثم سبحوا بأطرافها إلى الشاطئ نحو الحوت، فوجدوه صغيرًا جدًا، ليس رضيعًا لكن فقط صغير الحجم، رأى دييجو ذلك فقال:

- أتمنى ألا يكون أحد أبناءك يا أطلس!

وقال دكرور:

- إنه صغير جدًا، ربما يمكننا دفعه بأيدينا

رَد بوهاردي:

- نعم إنه صغير.. سيكون الأمر أسهل

وشرع يربط الحوت بإحكام، وكان دكرور مع عمار ورالف يقفون في المياه استعدادًا لقطع الحبال، ثم لمّا انتهى بوهاردي أشار إلى أوساي الذي عند أطلس ملوّحًا إليه بيده، فبدأ أطلس يتراجع إلى الشاطئ وارتخت الحبال، ثم شُدَّت بسرعة وبعنف فانزاح الحوت نحو البحر، وما هي إلا ثلاث سحبات من أطلس حتى صار في الماء، فقطع دكرور وعمار الحبال المربوطة بأطلس، وقطع رالف الحبال المربوطة حول جسم الحوت بصعوبة، فذهب الحوت حرًّا إلى سبيله.

جلسوا على الشاطئ يشاهدون أطلس يتقافز في الماء وأوساي وحده على ظهره، ومن حين لآخر كان ضوء القمر يعمّ الفردوس ثم يعود لتحجبه السحب، مكثوا يتسامرون حتى نشب قتالًا سريعًا بين دكرور وعمار، والبقية يشاهدون ويشجعون بحماس، وخسر دكرور ذلك النزال، بعد أن استسلم بينما كان عمار يعصر رقبته تحت ذراعه، وتحدى عمار أي أحد لينازله، لكنهم دائمًا كانوا يمتنعون عن مواجهته.

عاد أوساي إليهم واستكملوا الأمسية يرقصون ويغنون، غنّوا كل أغاني الجوف حتى الحزين منها غنّوه بمرح وحماس، وتركوا أخيرًا آخر أغنية ألفها رالف وسمّاها "الزفاف في الفردوس" والتي كانت أحد أكثر الأغاني مرحًا:

هناك زفاف في الفردوس.. يسوده الملل والغم

عريس واحد وألف عروس.. فيا له من محظوظ

وإن كنت تنوي الحضور.. فيا لك من مجنون

ليس هنالك من ترحيب.. لكن ستكون سعيد

ولا تنسَ أنك غير مدعو.. إلا عندما تموت

فتعال واحصل على دعوتك.. إلى الزفاف في الفردوس

تعال واحصل على دعوتك.. إلى الزفاف في الفردوس

ابحث عنا عند الشاطئ.. فإيجادنا ليس سهلًا

ولا تخَف منّا فإنّا.. أصبحنا للثقة أهلًا

تعالَ وتأكد بنفسك.. فليس هنالك ما نخفيه

ولا تنسَ أنك غير مدعو.. إلا عندما تموت

فتعال واحصل على دعوتك.. إلى الزفاف في الفردوس

تعال واحصل على دعوتك.. إلى الزفاف في الفردوووس

رفعوا أصواتهم عاليًا بصوت جهوري حماسي عند آخر مقطع فقط من الأغنية، تزامنت آخر كلمة مع صوت أشبه بدويّ طلقة، فجفلوا جميعًا وتوقفوا عن الغناء فجأة وتراجعوا؛ عندما ارتفعت من الماء كرة برتقالية كانت مصدر الصوت.

كانت كرة برتقالية متوهجة خرجت من مكان ما في المياه ترتقي السماء بسرعة، ثم حين وصلت إلى نقطة معينة في السماء انفجرت تلك الكرة بدويّ آخر جعلها تتفرق إلى كرات أصغر، فاشتدّ سطوعها لتضيء ما تحتها والذي كان سفينة.

عادت تلك الكرات البرتقالية الوهّاجة تهوي مرة أخرى محدثة شكل كسَعف نخلة كبيرة، لكنها انطفأت قبل أن تصل إلى الماء، ثم خرجت كرة أخرى من السفينة إلى السماء، وأتبعتها كرات أخرى كثيرة خرجت من أكثر من مكان، أضاءت السماء وزينتها بأنوار خلابة تشبه اللهب،

فاتضحت لهم المياه من تحتها، ليجدوا أسطولًا من السفن وليس سفينة واحدة، فكان ذلك بمثابة إعلان عن موعد هلاك الفردوس وكل من يسكنه من رجال أو حيتان.

الفصل الأخير
"حَامِل السَّمَاوات"

(1)

كان أوساي لا يزال في المياه الضحلة عندما أخذ أطلس نفسًا كبيرًا وزفره تحت السطح حتى يكون أقوى وصوته أعلى، لكي ينبّه أوساي وباقي الرجال، ثم أخذ يضرب بذيله بعنف ويخترق السطح ويرتطم به بعنف أكبر، لكنهم لم ينتبهوا لأي من ذلك.

فكر أطلس أن وجودهم على اليابسة ربما يكون آمَن لهم من جوفه، فتركهم وأراد أن يُخرِج كل الحيتان الرمادية من ذلك الخليج الذي هو فيه، عندما دخلت عدة سفن إليه، واصطفت وراءها سفن أخرى عند فتحة الخليج المفضية إلى بحر الفردوس، وأثناء ذلك كانت الحيتان الرمادية تخرج إلى بحر الفردوس الواسع ومنه إلى المحيط، إلى أن أغلقت السفن فتحة الخليج بشِبَاكٍ عظيمة تصل إلى القاع.

اصطدمت بها بعض الحيتان فشعر أطلس بها تتألم من مجرد لمسها إذ كانت شباك من أشواك، أسدِلَت تلك الشباك من السفن المصطفَّة عند فتحة الخليج، لتسد الطريق فلم تدع منفذًا من تحت السفن أو حتى من عند المياه الضحلة، فجعل أطلس الحيتان تقفز من فوقها ومن بين السفن، ثم حين لم يبقَ الكثير منها سمع أصواتًا قوية من خارج المياه، كانت قوية لدرجة أنه سمعها أصلًا.

ثم سرعان ما شعر بكل رجاله في المياه، فرجع إليهم بسرعة والتقمهم كلهم مرة واحدة، وأثناء ذلك كانت الأصوات تعلو والسماء تنير كأن الصبح قد طلع، عاد إلى الشبكة وسبق حيتانه إليها فغاص حتى عمق ثم اخترق السطح بقوة جعلته يطير في الهواء لمدة سمحت له بأن يرى بعينه مصدر الأصوات والأنوار في السماء، ثم عاد إلى المياه ولم يدرك أن هناك أي شيء خاطئ إلا عندما أراد أن يسبح فلم يتحرك.

فقد كانت زعانفه ملتصقة بجسده وذيله صار محدود الحركة، فأدرك أنه سقط على شبكة أخرى كانت مبسوطة على سطح المياه، شعر بألم كأن ألف حربة تخترق كامل جسده، وفي اللحظة التالية شعر بحربة حقيقية تخترق

جانبه من عند ذيله، وفي اللحظة التي تليها انفجرت تلك الحربة صانعة فجوة بين ذيله وكامل جسده، شلّت حركته تمامًا.

اضطرب كل شيء في أطلس ولم يشعر سوى بالألم والعجز، كما كانت تلك أول مرة يشعر بالخوف، ثم قبل أن يشعر بشيء أخَر، ودون سابق إنذار؛ انفجر جانبي فمه، ومن شدة الألم في فمه وذيله وكامل جسده؛ لم يشعر بفمه وهو ينفتح، ولم يشعر بالعمدان التي نُصِبت في داخل فمه تبقيه مفتوحًا وتمنعه من أن ينغلق، لكنه شعر ببشرٍ غرباء يدخلون فمه عنوة، ومنه إلى جوفه.

حينها تمنى أطلس أن يكون قد مات، لكنه لم يفعل، وعلم أنها نهايته ونهاية سُكّانه، مثلما كانت نهاية نون وكيانج وسكانهما، شعر بكل معاني الخوف والحزن، لكنه لم يخَف أو يحزن على نفسه بقدر ما خاف وحزن على رجاله.



يعلم دكرور أنها ألعاب نارية، فقد رآها كثيرًا في حياته الغابرة، لكنها لم تكن بهذا السطوع أو هذا الشكل ولم تكن تدوم كل تلك المدة.

قال أوين وهو يهرع في الماء:

- ليس هذا جيدًا! ليس هذا جيدًا أبدًا!

وصاح موريس:

- بسرعة! فلنرجع بسرعة!!

وبينما كانوا يسبحون بعصبية كأنهم يتسابقون؛ كانت الألعاب النارية تطلَق بتتابع سريع وأكثر من واحدة في نفس الوقت، ومن أكثر من سفينة، جعلت السماء أسطع مما يجب أن تكون في ذلك الوقت من الليل.

عادوا إلى الجوف ليجدوا سامبار نائمًا، فقال موريس بصوت خفيض عصبي:

- أتركوه نائمًا!

وقال دييجو بتوتر وقلق شديدين:

- هل رأونا يا موريس؟! أخبرني أنهم لم يرونا
- لم أرَ أكثر مما رأيتم! لكن تلك الألعاب النارية ليست خيرًا أبدًا

ومكثوا دقائق قليلة صامتة مرّت كساعات في انتظار أن يستيقظ سامبار، حتى استيقظ فجأة لكنه لم يقم مفزوعًا، فنهض يجلس بهدوء وإن بدت عليه الحيرة، فسأله بوهاردي:

- ماذا رأيتَ يا سامبار؟! نعلم أنك رأيت شيئًا

استغرق سامبار برهة قبل أن يجيب:

- كانت هناك ثلاث سفن وبعض القوارب تسبح في السماء.. تعلمون كيف يبدو ذلك في الأحلام، لكن كانت هناك شبكة تنزل من تلك السفن كأنها ستارة، بدا أن سفينة أطلس لا يمكنها العبور

ثم أضاف وهو يهز رأسه في حيرة:

- لا أدري يا رفاق.. لكن ذلك لم يكن حلمًا جيدًا

ربما لم يعبأ بوهاردي بأن هناك أسطولًا من الحوّاتات في الخارج، فقام بهِمّة وأخذ حربته وضرب بها الأرض وقال بحزم:

- حسنًا أيها الرجال! فلنجهز حتى يستدعينا أطل...

وفي نفس اللحظة صاح أطلس بصافرة حادة عنيفة، فزُلزِل الجوف بأكمله وارتجّ فجأة فانقلب كل ما كان فيه رأسًا على عقب وتقلّب، واختَلّ كل شيء بسرعة وبعنف، وسُكِبَ النور السائل من عروقه، وتطايرت الأسلحة وحرابهم المرصوصة حتى كادت تصيبهم، وهم أنفسهم طاروا

وطُرِحوا عدة مرات، كأنهم بداخل برميل كبير يسقط من فوق جبل، فأي ما كان يجذبهم لأسفل من جميع الاتجاهات؛ يبدو أنه قد تعطل لبعض الوقت.

عاد كل شيء يسكن وإن لم يسكت أطلس عن الغناء الذي يصم الآذان، وأخذ الرجال بعض الوقت حتى يستوعبوا ما قد حدث وبعضهم يتألم من إثر الصدمات التي تعرضوا لها، والبعض الآخر يبحث عن أقرب رجل إليه ربما ليطمئن عليه، عندما قال بوهاردي بصوت متألم:

- هل الجميع بخير؟!

رَد موريس بهدوء من عند باب الجوف:

- أريدكم أن تهدأوا.. ولا يمس أحدكم حربته!

نظروا إليه فوجدوه يتشبث بذراعٍ يلتف حول رقبته، وهناك يدًا أخرى تخرج من وراء ظهره تصوب مسدسًا إلى رأسه، وأدركوا الأمر أخيرًا حين ظهرت رأس صلعاء من وراء رأس موريس، وقال صاحبها:

- اسمعوا كلام صديقكم ولن يتأذى!

عرف دكرور ذلك الرجل وعرف أين ومتى رآه من قبل، لكن بدا أنه قد تقدم في العمر أربعين سنة، فلم يُرِد عقله أن يتذكر اسمه، فقال أوين بدهشة:

- شادويك!!

فقال شادويك بابتسامة خبيثة:

- مرحبًا يا أيها القوم! أردنا أن نعاود زيارتكم الأخيرة



بدا التعجب على موريس وهو يحاول الالتفات وراءه، وجميعهم أمامه يترقبون بانتباه إلا أوساي كان يتربص بشادويك من الخلف، ومن وراءهم دخل رجلًا آخرًا يصوب بندقية أمام عينه، فترك أوساي شادويك واتجه

صوب الرجل الآخر، فدار من أعلاه حتى أتاه من خلفه وطعنه بحربته في ظهره، فأسقطه وحين أراد أن يلتقط البندقية نازعه عليها الرجل.

حينها اضطرب الرجال وتحرك موريس بعصبية يريد أن يفلت نفسه، بعد أن شجعهم أوساي والتقط دكرور وديبجو حربتيهما، لكن تراجعا عن فعل أي شيء عندما وجدوا إثنين آخرَين قد دخلا في نفس الوقت وأيضًا يصوبان البنادق أمامهم، فأطلق أحدهم النار على أوساي الذي كان يعتلي الرجل الذي طعنه، فطُرِحَ بجانبه بعد أن تلقّى الطلقة في ظهره من دون أن تقتله، كل ذلك وأطلس لا يكف عن الأنين والغناء الحزين الواهن.

ثم دخل الغرباء مثنى مثنى حتى ملأوا الجوف وجميعهم مسلح بالكامل ومعظمهم صلع بالكامل، وبغض النظر عن صلعهم الملحوظ فقد كان وجود شادويك معهم تأكيدًا على أنهم الجند الحوّاتون، لكن بحث دكرور بينهم عن قائدهم ولم يجِده.

وإذ كانوا قرابة الأربعين رجل أو يزيدون؛ فقد حاوطوهم في دائرة عبارة عن بنادق مصوّبة في وجوههم، فقال رالف بازدراء لشادويك:

- ماذا فعلتم بأطلس أيها الجبناء؟!

رَد أحد المصوبين عليه:

- لا تقلق، ستكونون أول من يعلم عندما نقتله
- لن ينتهي ذلك بخير لأي منا

ثم قال شادويك بنبرة قلقة:

- والآن ارفعوا أيديكم فوق رؤوسكم بهدوء

قالها وترك رقبة موريس ودفعه أمامه، وإن كان لا يزال يصوب مسدسه إلى رأسه، ولم يمتثل أي منهم للأمر، حتى قال بوهاردي وهو يرفع يده فوق رأسه:

- فقط افعلوا كما يقول!

فقال له أوين وهو يرمق الجند الحوّاتين بغضب وازدراء:

- هاردي! إن كنا سنموت فالآن لا بأس به
- لن يموت أحد يا أوين.. أطلس لا يزال حيًّا

وقال موريس بثبات وهو يرفع يديه ببطء:

- أيًا كان ما سيحدث يا رفاق فلا أريدكم خائفين، أريدكم شجعان كما كنتم منذ أن جئتم إلى هنا، فأنتم رجال أطلس وسكان جوفه، أنتم الذين أرعبتم كل حوّات قد وضع قدمًا في المحيط الأطلسي، وهؤلاء الأوغاد المثيري الشفقة على وجه الخصوص

تحوّلت نظرات الرجال إلى الحدة وملامحهم إلى الجمود، وقد بعثت كلمات موريس فيهم الثبات، وربما فكر دكرور أَخَرجوا من ذلك المأزق أم لم يخرجوا فلا داعي من أن يبدي الخوف، خوفه الوحيد كان أن يبقى حيًا أخيرًا، لكن أكثر ما كان يربط على قلوبهم هو غناء أطلس الخافت الذي لا ينقطع، والذي إذا انقطع فسيقطع معه كل أمل لديهم يربطهم بالحياة.

ثم حين رفعوا أيديهم فوق رؤوسهم بدأ الغرباء بتقييدها وراء ظهورهم، وبدأوا يهتفون في انتصار فور أن انتهوا وهم يدفعونهم لكي يجثون في صف، وطرحوا أمامهم أوساي الذي كان يمسك جانب ظهره ويئن في ألم.

ثم خرج بعضهم وعادوا مع آخرين وأحضروا ما بدا كمعدات أو أسلحة، فصار الجوف خانقًا وهو مكتظًا بالغرباء، وأصبح أكثر اختناقًا وظلمةً عندما ران الصمت على الأجواء فجأة، وسكتوا جميعًا وأفسحوا ما بدا كممر شرفي أوله عند باب الجوف وآخره عندهم، عندما دخل قائدهم متأنقًا كطاووس، صلعته أكثر نظافةً وعينيه أكثر زرقة وتلألأً، وأكثر ما ميّزه كانت ابتسامة خفيفة على وجهه لا تبيّن أهي انتصار أم سعادة أم شماتة.

سار هنري في الممر يتبختر بثبات ورجاله مطأطئين له رؤوسهم في احترام وتبجيل، ووقف أمام الرجال الذين عاش معهم نصف حياته ولم يرهم منذ سنوات؛ وسحب نفسًا عميقًا وقال بعد أن اتسعت ابتسامته أكثر:

- ما أحلى العودة للمنزل!



(2)

وبينما عاد القلق يستبد بهم مرة أخرى وقد عقد ألسنتهم عن الكلام؛ قال دكرور بتهكم وغضب:

- أه! بالطبع إنه الخائن!

بدا هنري يقاوم ألا تذهب ابتسامته من على وجهه، فقال وهو يجز على أسنانه:

- سيد أبكم! لم نتعرف بشكل لائق في المرة السابقة، كما أنه كان عليك أن تجتهد أكثر في محاولة قتلي

ثم التفت عنه إلى سامبار الجاثي بجانبه وقال والابتسامة ملء شدقيه:

- سامبار!! ربما أنت أكثر من اشتقت إليه.. حقًا!

حدجه سامبار بغضب وبعينين دامعتين ولم يتكلم، ثم ربّت على كتف دييجو بجانب سامبار وقال:

- وأنتَ أيضًا يا دييجو

قال دييجو:

- الشعور ليس متبادلًا يا هنري
- أه! لا أصدقك...

وقاطعه موريس:

- هنري! ماذا حدث لأطلس؟

- أوه! لطالما قلتُ أنه سمكة غبية! عَلِقَ في شباكنا ذات الأشواك الحديدية، ثم ضربناه بقنابل الحراب وهو الآن مقيّدًا من ذيله وزعانفه، ومربوط إلى سفينتين على جانبيه.. لا تقلق يا موريس أعتقد أنه لا يزال على قيد الحياة

إذ لم يكُف أطلس عن الغناء، وإن كان بصوت واهن يكاد لا يُسمع.

ثم استوقفته رؤية أوساي ممدّدًا يسند رأسه على فخذ موريس، فقال بجدية وهو يربّت على صدر أوساي:

- أوساي!! ما بكَ؟ ماذا حدث؟!

والتفت إلى رجاله وعنفهم:

- من منكم فعل ذلك؟! ألم آمركم...

رَد عليه من فعل ذلك:

- لقد قتل راي يا سيد بوتش!
- اذهب واجلب الطبيب، بسرعة!

فقال شادويك معاتبًا:

- بوتش!! هل جئنا لنعالجهم؟

التفت إليه هنري بحدّة وحدجه بنظرة جعلته يصمت، ثم قام هنري وقال للرجل الخارج:

- واحضِر الهديّة معكَ يا سيد لوكاس

ثم انتقل إلى أوين وحيّاه بإماءة، ثم إلى بوهاردي فتوقف أمامه قليلًا، وحينها اختفت التعابير كلها من ملامحه، ولم يقل سوى:

- بوهاردي!

ورَدّ بوهاردي:

- هنري!

كانتا كلمتين كافيتين لرفع حدّة الموقف بينهما، وربما نجحا في عدم إظهار ذلك لكن التوتّر كان على أشده، ثم انتقل هنري إلى عمار الذي كان شبه متواريًا، وقال بازدراء واستغراب:

- مهلًا! من أنتَ؟

رفع عمار بصره إليه، فرأى هنري عينيه الصفراء فبدا عليه الذهول لثانية قبل أن يقول:

- لا لا! دعني أخمن أنا!

ووضع يده على عينيه كأنه يحث الأفكار لكي تخرج من ورائهما، ثم قال بدهشة سعيدة:

- عمار؟!! لا بد أنك عمار!!

ثم بحث بينهم عن عمار الذي يذكره، وأردف بمرح:

- بالفعل إنك هو.. حدسي سليمًا، لكن من هذا؟

أجابه عمار:

- إنه يوزي، أحد سكان كيانج

بدا على هنري الاندهاش وأيضًا بمرح وسعادة، والتفت إلى أحد الرجال يبدو عليه الوقار وكان ملتحيًا ونصف أصلع ليس مثل الجنود الحوّاتين؛ وقال له:

- بالفعل!! لقد قلتَ أنه هرب بعد أن التقم أحدهم

أجاب الرجل:

- هذا ما حدث يا سيد بوتش.. ربما إنه هو، هذا يفسر كيف أننا لم نجد أحدًا في داخل بطنه عندما اصطدناه

قال عمار:

- هل اصطدتم كيانج؟

أجاب هنري بأسف مبتذل:

- وجدوا جثته تطفو على السطح بعد أن أفلت منهم، أعتقد أن كيانج كان أكبر حوت في العالم.. كيانج...

قال آخر كلمة كأنه يتغنى بها، ثم التفت إلى رالف وأردف:

- أترى يا رالف! هكذا يُسَمّون الحيتان ذات المائة وخمسين قدمًا طولًا، وليس أطلس!

ثم أردف إلى بقية الرجال:

- أتدرون أن أطلس هو حامِل السماوات في الأساطير الإغريقية؟ لكنه كان رجلًا وليس حوتًا!.. معذرةً يا رالف لكن هذا فقط مثير للسخرية

رَد رالف:

- بعض الجِنَان جحيمًا للخائنين أمثالك
- حسنًا، لقد مكثتُ في هذه الجنة إثنين وأربعين سنة قبل أن أدرك أنها الجحيم بعينه...

ثم قطع كلامه وأردف:

- أوه! بالحديث عن الجحيم.. أريد أن أحييكم على ما فعلتم في نانتوكيت، رغم أنكم قد تسببتم في كارثة.. إلا أني لا أنكر إعجابي بما فعلتم حقًا

حينها كان الرجل قد عاد ومعه آخَر ويجر من وراءه شيئًا يصدر صليلًا، وبدأ الطبيب عمله وانشغل الرجال بمشاهدته، فلم يلحظوا عندما ألقى لوكاس أمامهم ما كان يجره.

كان رجلًا مصفّدًا بالحديد، أصلع تمامًا وعلى وجهه كدمات وجروح لم تُخفِ بياضه المحمر، وبين ذلك كانت ابتسامة ضعيفة في غير محلها كأنها تسخر من حاله ومن كل شيء في العالم، وتلك ما عرفوه بها، إذ كانت أكثر شيء مألوف فيه، فكان ذلك هو سيجورد الذي قال وقد اتسعت ابتسامته:

- انظروا من عاد!



انفعل دكرور من مجرد رؤيته فبكى على الفور، ربما لم تكن شفقةً على حاله المثير للشفقة بالفعل، بقدر ما كانت شفقة على ما آلَ إليه حاله وما كان عليه في السابق، أو لأنه كان يتخيل ما قد يحدث له إذا أُسِر بعد أن تركوه، ويبدو من شكله أن ما تخيله قد حدث بالفعل، أو ربما هي سعادة أنه قد رآه فحسب، وأراد دكرور أن يذهب إليه لكن ضربه من كان يقف وراءه، فقال دكرور لسيجورد وهو يبكي:

- نحن آسفون يا سيجورد!.. آسفون أننا تركناك.. حقًا!
- أه لا عليك يا دكرور! أنا الذي تأخرت في أن أقرر أأهرب أم أرجع

ثم قال هنري وهو يملّس على صلعة سيجورد الجاثي بجانبه:

- إذًا ما رأيكم في هذه الهدية؟! شوهد أطلس أكثر من مرة حول الجزيرة بعد أن غادرتموها، فعلمتُ أنه لا يزال ينتظر سيجورد، ثم استغرقنا كثيرًا جدًا حتى وجدناه، فأعدناه إلى المياه كالطُعم لكي يأتي أطلس ويأخذه، لكنه لم يظهر

قال له سيجورد:

- إنهم سعيدون لهذه الهدية ويشكرونكَ يا هنري، إنهم فقط لا تأتيهم هدايا كل يوم، خاصةً إن كانت هدية مثير للشفقة مثل هذه

قال موريس:

- سيجورد! أنتَ لستَ مثيرًا للشفقة، لا تدعهم يعلمون ذلك، أنت أخونا الذي يعيش معنا، وأنتَ معنا الآن.. لا تعبأ بأي شيء آخر

قال هنري:

- لا تصدقه يا سيجورد، لطالما كنتَ وغدًا جبانًا وستظل كذلك

وربما كانت تلك أول مرة يبكي فيها سيجورد طوال حياته، بكى لثانيتين ثم قال:

- ربما أنا وغد حقًا.. لكنني الوغد الذي لا يخون أصدقاءه
- أه بحقك! كم مرة قلتَ ذلك بالفعل؟!
- لا أقولها لك أيها الأحمق! هذه المرة أقولها لهم

قال بوهاردي:

- نعم يا سيجورد! هذا فقط ما يهم، أنتَ الوغد الذي نحبه

ضحك سيجورد بطيبة، ثم قال الرجل الوقور بسأم وبنبرة آمرة:

- أظن أن هذا يكفي يا سيد بوتش، يجب أن ننتهي من ذلك الأمر

فقال هنري وهو يربت على ظهر ذلك الرجل ويشير إليه:

- أوه! لم أعرفكم!.. أيها الرفاق! هذا هو القبطان تشارلز سكامون، أحد أمهر قباطنة التحويت في العالم كله، ومكتشف الحيتان الرمادية، وهو أيضًا قبطان السفينة بوسطن التي قتلت كيانج منذ ثمانِ سنوات، وهو أيضًا من قتلتم أحد عشر بحارًا من رجاله منذ تسعة أشهر

تساءل عمار بحسرة بصوت خفيض لم يسمعه سوى من كان بجانبه:

- تلك السفينة الهاربة... كانت هي بوسطن؟!

ثم تساءل موريس بحسرة:

- مهلًا! ثمانِ سنوات؟!!

أومأ له هنري، وسأله رالف:

- إذًا هو من عاد ودلّكم على المكان؟
- بالرغم من أنه كان يدّعي أنه لا يصدقنا؛ إلا أنه كان يسلح سفينته على كل حال، واستأجر عليها من الجنود الحوّاتين، فقضوا على كيانج حين صادفوه، ووجد هناك الحيتان الرمادية التي من المفترض أنها قد انقرضت، فتتبع طريق هجرتها إلى ذلك الخليج، ثم عاد إلينا بذيل كيانج دون أن يخبرنا أو يخبر أحد عن ذلك الكنز الذي وجده...

وجه هنري ذلك الكلام إلى سكامون كأنه يعاتبه، وأردف إلى الرجال:

- ومن حينها وهو يأتي هنا كل موسم ويعود بمخازن ممتلئة، ثم فوّت عامين فقط ليعود مرة أخرى ويجدكم قد استوطنتم المكان، فعاد إلى الوطن أخِر مرة وقد قرر أخيرًا أن يخبرنا، فقررتُ أن آتي لزيارتكم، وتبعتنا حوّاتات من جميع موانئ نيو إنجلند وليس فقط نانتوكيت؛ ليلقوا التحية على الحيتان الرماديّة

كان سكامون يقف يرفع رأسه باستعلاء، يتلقى الكلام بفخر كأنه يتلقى وسامًا، ثم قال وهو يحدق في الرجال بغضب وعينين تطقان بالشرر:

- لا داعي للتعرف على هؤلاء الملاعين يا سيد بوتش**!** أريد فقط القصاص لرجالي كما وعدتني
- لا تقلق يا كابتن سكامون، سأتولى ذلك الأمر
- أتدري**!** لم أعد أتحمل المكوث في ذلك الجحيم، إن مخازن سفينتي ممتلئة بالزيت.. سأعود إلى الوطن
- كما تشاء**!** لكن أريدكَ أن تخبر الناس أنه لم يعد هناك ما يخشوه في أي من محيطات العالم، أخبرهم أن الجند الحوّاتون قد تولوا الأمر، أخبرهم بذلك وسنوافيكَ بذيل أطلس

وأردف إلى الرجال بتهكم:

- كما تعلمون يا رفاق أنه لدينا ذيل نون وذيل كيانج، ولا يبقى سوى ذيل أطلس لكي تكتمل المجموعة

ثم تصافحا بحرارة، والتفت سكامون إليهم أخيرًا وقال:

- أتمنى أن يكون لكم جوفًا مثل هذا في الجحيم!

رَد رالف:

- سيكون.. كما سيكون لكم سفينة تحويت هناك أيضًا!

ابتعد سكامون محتقن الوجه وتبعه كثير من الرجال، وما إن خرج عاد هنري إليهم وقال بجدية واهتمام وهو يفرك يديه معًا:

- إذًا كما هو معلوم فإن هناك ديونًا يجب أن تقضى ووعود يجب أن تنفذ وأمور يجب أن تعود إلى نصابها من منا سيموت أولًا؟



(3)

قالها بسرعة وأردف بتأثر وجدّيّة:

- هذا يفطر قلبي حقًا، لكن...

قاطعه دييجو بنبرة يبدو فيها الأمر أكثر من الاستعطاف:

- إن كان لديكَ قلب يا هنري.. إن كنتَ تذكر لنا أي شيء طيب؛ فلتتركنا وشأننا
- لن تنفع الدبلوماسية يا دييجو.. يجب أن ينتهي كل شيء

ثم وقف أمام دكرور وقال:

- ربما كانت محاولة قتل الأبكم أولًا مجلبةً لسوء الحظ، هذه المرة سأترككَ أخيرًا، ربما لأنك آخر من جاء

قال دكرور بلا مبالاة:

- ليس هناك فرق.
- تعجبني تلك الروح!

قالها بابتسامة حزينة أكثر منها ساخرة، ثم التفت إلى بوهاردي وازدرد ريقه وقال:

- هذا يعني...

وسار إلى بوهاردي ببطء ووقف أمامه لبرهة قبل أن يخرج خنجره، فبدأ الرجال يتلوّون بعصبية ويصيحون وأيديهم مربوطة وراء ظهورهم، فصاح فيهم موريس:

- اثبتوا! اثبتوا أيها الحمقى!!

ثم أمسك بهم الجند الحوّاتون وطرحوهم على بطونهم وثبتوهم هكذا حتى يكفوا عن الحركة، وإن لم يكفوا عن الصياح، إلا بوهاردي كان يجثو على ركبتيه رافعًا الرأس، فجثا هنري أمامه وقال بعينين دامعتين:

- اعذرني يا بوهاردي، لكنني بحاجة إلى فعلها بنفسي

أومأ بوهاردي ورَد بثبات:

- أتدري؟ رغم كل شيء... إلا أني لا أمانع أن تكون أنتَ من يفعلها...

سكت بوهاردي فجأة عندما طعنه هنري وعلى وجهه كان يرتسم العبوس والحزن والغضب معًا، نظر بوهاردي أسفله إلى الخنجر ثم عاد إلى عيني هنري الباكية، وقال بطيبة ورضى:

- لم يكن يهم أبدًا كيف أبدو، لكن لطالما كنتَ أخي الذي أحبه يا هنري، ربما تسمعها بلسان بيدرو، لكنني أقولها بقلب بوهاردي، تأكد من ذلك

قال هنري بصوت متهدّج باكٍ:

- أعرف كل ذلك يا هاردي، لكن يجب أن ينتهي كل شيء، بل أنا من يحتاج لأن ينتهي كل شيء

وبدا كأنه يحتضنه عندما قطع الحبال حول يديه، ثم حمله برفق وجعله يستلقي على ظهره وأمسك يده بيده، فقال بوهاردي:

- الق ِبجثتي في تلك المياه، حسنًا!.. لا بأس!

ثم رفع صوته لكي يسمعه البقية، حيث كان صوت بكائهم أعلى؛ وأردف:

- لا بأس يا رفاق! لا بأس بمائة وثلاثين عامًا في جوف حوت.

ثم ابتسم وأومأ بثقة وبادله هنري الإماءة، وطعنه أخرى في قلبه.

لم يمتنع أحد عن البكاء هذا اليوم، بكى كل من سكن جوف أطلس من قبل، فحتى هنري كان أكثرهم بكاءً، فقد كان موت بوهاردي تأكيدًا للجميع على أن الأمر جاد وألا مفر منه.

قال رالف بعد أن كف عن البكاء وهو يضع جبهته على الأرض:

- أتدري يا هنري؟! أتدري أنه أنا من أقنع بيدرو أن يعطي جسده إلى بوهاردي؟ بعد أن كاد يموت بسببه، كما أني من أخبرته عن الطريقة

ثم رفع رأسه عن الأرض ورمقه بتحدٍ كأنه يتعمد استفزازه، ثم رفعه الرجل المكلف به بعد أن أمره شادويك بذلك، وجعله يجثو فقال رالف بحدّة:

- هيّا افعلها أيها الجبان الخائن، ألستُ أنا ثاني من جاء هنا؟.

نظر هنري إليه نظرة طويلة خالية إلا من الدموع، وأشار برأسه فقط إلى الرجل الذي يقف وراءه، فأخرج الرجل مسدسه وأطلق على رأسه فارتمى رالف بجانب بوهاردي، الرجل الذي عاش معه مائة وثلاثين عامًا.

قال الرجل الذي أردى رالف وهو لا يزال حاملًا مسدسه:

- من التالي يا سيد بوتش؟

أجاب سامبار بسرعة:

- إنه أنا!

وقال أوين بسرعة:

- مهلًا! انتظروا!! بغض النظر عن الترتيب يا هنري.. هل يمكن أن أكون تاليًا؟

كان هنري شاردًا في الأرض ولا يبدو أنه يسمع أو يشعر بأي شيء، لكنه انتبه إلى أوين فقال:

- ماذا؟ لا لا، لن نموت هنا، سنخرج.. سنخرج من هنا وسنتفاهم حينها

ثم نهض وقطع الحبال التي تقيدهم الواحد تلو الآخر، فقال موريس بعد أن قام في مكانه:

- لم يعد هناك مجال للتفاهم يا هنري، افعل ما تشاء..

قال أوين بهدوء وثبات وسكينة لم يعهدوها فيه:

- هنري هل لي بطلب أخير؟
- بالطبع يا أوين! أي شيء.. حتى وإن أردتَ أن تذهب.. لن يمنعكَ أحد
- شكرًا يا هنري لكن ليس ذلك ما أريده.. أريد فقط أن تبقي خنجري معي، أعدك أني لن أستخدمه ضدك أو أي من رجالك
- لماذا يا أوين؟
- أريد فقط أن تبقى معي أي وسيلة تلحقني بهم إن سبقوني إلى الموت وبقيت أنا وحدي

ضحك هنري أثناء ما كان يبكي وقال بحزن:

- أعدك ألّن تصل الأمور إلى ذلك يا أوين

ثم أردف وهو يضحك بتعجب كأنه يسخر منهم:

- بحقكم أيها الرجال! القوارب في البحر واليابسة قريبة!.. لن يمنعكم أحد إن خرجتم وأخذتم أحد القوارب، وأطلس سيموت على كل حال...

قاطعه عمار:

- ليس هناك رجعة فيما فعلتَ يا هنري، إما أن تعيد بوهاردي ورالف وإما أن تُلحِقنا بهم

أومأ هنري وقال بيأس:

- حسنًا يا عمار! لكن فقط... ليس هنا

وقال إلى رجاله بعد أن عادت إليه جدّيته وجهامته:

- اخلوا هذا المكان، وقيّدوهم مرة أخرى

أعادوا تقييد أيديهم أمامهم، ثم رُفعَت جثتَي بوهاردي ورالف وأخرجوهما أولًا، ثم تبعهم دييجو مع أوساي يستند عليه ومعهم إثنين كانا يسوقونهما، وتبعهم سيجورد مع الرجل الذي أتى به، ثم بدأ سامبار بالصراخ والهلع عندما دفعوه للخروج وهو يقول:

- لا أرجوكم! أرجوك يا هنري! لا أريد أن أخرج، اقتلني هنا أرجوك!!

قال هنري بطيبة يريد أن يهدئه:

- ما الفرق يا سامبار، فقط اهدأ...

فأمسك به موريس:

- تماسك يا سامبار! سنكون معكَ!

قال سامبار وقد انهار من البكاء والصراخ:

- أنا فقط لم أخرج منذ قرن!!.. لم أخرج أبدًا! لا أريد أن أرى البحر!

وأسنده موريس مع هنري وخرجوا، ثم تبعهم أوين ومن كان يسوقه، ثم جاء دور دكرور والرجل الذي يصحبه أخيرًا، وأخذ يدفع دكرور ليتحرك حتى جعله يتعثر في جثة الرجل الذي قتله أوساي، فجاء إثنين كانا يحرسان باب الجوف وحملاه وخرجا به، ثم عاد الرجل يدفع دكرور بعنف فالتفت إليه بعصبية وغضب، وحينها لاحظ أنه لم يعد هناك في الجوف سواهما.



كان الرجل يصوب بندقيته أمامه ويوكز بها دكرور يحثه على التقدم، فعانَده دكرور ووقف في مكانه من دون أن يفكر في أي شيء أو أيّة عواقب أو أسباب؛ لأن يقتل ذلك الرجل، فأمسكَ بندقية الرجل أمامه ورفعاها معًا يتنازعان عليها حتى أطلِقت منها طلقة، وحينها لم يعبأ دكرور بما قد فكّر على أيّة حال.

فجّرَت الطلقة النور السائل وجعلته يتطاير في كرات صغيرة في كل مكان، فارتفع غناء أطلس بعد أن كان خافتًا، وركل دكرور الرجل في بطنة فأسقطه وأخذ منه المسدس، فأرداه دون تردّد، لا يعلم لمَ فعل ذلك لكنه يعلم أنه الصواب، ثم أخذ من الرجل خنجره وقطع الحبل حول رسغيه، وتوجه إلى الباب ليخرج.

وضع يدًا على جدار باب الجوف، ونظر نظرة أخيرة وراءه إلى المكان الخالي الذي لم يعهده كذلك، فقد كانت تلك أول مرة يكون فيها وحده في الجوف، لم يحزن لأي شيء بقدر ما أحزنه أنه كان يتمنى أن يعيش فيه أكثر من ذلك، عاد إلى الباب غير متأكد من الخروج، وعندما هَمّ أخيرًا ليخرج لاحظ قطرة من النور السائل كانت هائمة في الهواء حتى سقطت على ظهر يده، فاستوقفته فكرة.

فكرة ربما قد فكر فيها من قبل أو أنه حلم بها، لم تكن فكرة عمّا سيفعل عندما يخرج، بل كانت عمّا سيفعل إذا بقيَ في الجوف، فسواء أنجحت الفكرة أم لم تنجح فقد قرر أنه لن يخرج من الجوف حيًّا.

وتغلغلت الفكرة في عقله أكثر عندما فكر أنه بما أنه سيموت على كل حال إذا خرج، وأن إخوانه ربما قد ماتوا بالفعل، وأن أطلس يموت بالفعل، فكر أنه إذا كان ذلك هو الحال الآن؛ فلا بأس من محاولة شيء أخير.

تراجع عن الباب بظهره رويدًا، والتقط حربة كانت ملقاة على مقربة، ثم أسرع الخطى إلى الحفرة الصغيرة حيث أطلقت الرصاصة، فوجدها لا تزال تنضح بسائلها، جثا دكرور على ركبتيه وانحنى وسحب نفسًا، قبل أن يضع فمه في الحفرة الصغيرة ويشرب من نورها السائل، اشتدّ غناء أطلس واحتدّ وارتفع كأنه يزجره ويعنفه ليثنيه عمّا يفعل، لكن لم يعبأ به دكرور وظل يشرب.

كان لزجًا بعض الشيء، يبقى في سقف الحلق كالدهن، لم يكن له مذاق لكن به مرارة لا تشعر بها إلا بعد أن تبلعه، إجمالًا لم يبدُ كشرابٍ سيقتلك إن شربته، لكن وإن لم يقتله هذا الشراب، فقد نوى دكرور أن يكون الجوف هو آخر مكان يتواجد فيه في حياته، بطريقة أو بأخرى، وبسبب أو بدون.

شرب حتى أرتوى وشبع وشعر بالامتلاء، ثم استمر في الشرب حتى شعر بالغثيان ثم الدوّار، ورأى أشكالًا صفراء تطير أمامه كأنها تسبح في داخل عينيه، وسمِع طنينًا في أذنيه، وأخيرًا شعر بالتنميل في رأسه ثم سار الخدر إلى باقي جسده، حينها أدرك أن الوقت يداهمه وأن الأمر يسير أسرع مما توقع.

فاستجمع ما تبقى من عقله وقوته لكي يحمل الحربة، ومن دون أن ينهض وضع رأسها في الحفرة حيث كان يشرب، ودفع بها لأسفل فلم تنغرس كثيرًا، إذ كان أضعف من أن يحملها أصلًا، فرفع يديه بصعوبة وأمسك بالحربة من أولها وشدّها لأسفل كأنه يتسلق حبلًا فانغرست إلى نصفها، ثم أعاد الكرة بعد أن نهض وركّز ثقله كله فغارت حتى لم يظهر سوى قدمين من طولها.

هوى دكرور بجانبها واستلقى على ظهره، يشاهد قطرات النور السائل الهائمة حول رأسه، وهي تشع بضوء أصفر كأنها شموس صغيرة تجيء وتروح في مائة يوم وليلة، وأطلس يغني بهدوء وسكينة وثبات كأنه سأم من تعنيفه وبدأ يعاتبه.

لكن في تلك اللحظة كان دكرور متأكدًا مما فعل أكثر من أي شيء قد فعله في حياته، لطالما كان متأكدًا من أنه سيذعر عندما يأتي حتفه لكنه كان مطمئنًا مثلما يكون في عالم الأحلام، في تلك اللحظة كان يشعر بالبرد الشديد في جسده، لكن شعر بالدفء والسكينة في قلبه، شعر بقليل من الحزن أنه ليس معه إخوانه وأنه لم يوَدّعهم، لكنه اطمئن أكثر شيء بأنه مع أطلس في جوفه.

بدأ صوت أطلس يخفت فأحس دكرور أن سَمْعه هو ما يذهب، وكان آخر ما رأى في حياته قطرات النور وهي تسقط على وجهه، وعروق النور من فوقه تفرغ كل ما فيها، فانهال عليه النور السائل فغشيه ضوئه الباهر، كأن الشمس نفسها تسقط عليه، ربما كان ذلك آخر ما قد رآه دكرور بعينه، لكنه لم يكن آخر ذكرى له.



كانت السفينة تميل على جانبها بشدة وتصدر صريرًا مرعبًا، أسوارها مهشمة، وصواريها مكسورة، والأشرعة مُقطّعة، والحبال تحتويها بأكملها كأنها وقعت في شبكة، يخترق جانبها ثلاث حراب، والجانب الآخر حربتين، مربوطة بحبال غليظة تصعد إلى سفينتين كانتا تسبحان في السماء بين السحاب الغمام الممطر، كانتا كبيرتان جدًا كأنهما أقرب.

وعلى السفينة المصابة وقف دكرور وحيدًا كأنه يقف على طلل، لا يذكر أنه كان وحيدًا على هذا السفينة من قبل، لم يشعر بالوحدة أو الوحشة رغم كل شيء، لكنه شعر بالرضى أكثر شيء.

قال أطلس بعد مدة طويلة من وجود دكرور على المتن:

- ماذا فعلتَ أيها الأحمق؟ من أخبرك أن تفعل شيء كهذا؟
- لقد فعلتُ ما أستحق يا أطلس.. إنه أنا من يستحق الموت وليس أنتَ، لا أستحقه كعقاب بل كمكافأة

- كنتَ ستموت على أي حال
- بالضبط**!** أردتُ فقط أن أجعل موتي ذا جدوى
- وماذا بعد ذلك؟ ماذا كنتَ تظن أنه سيحدث؟ هل سأتحول إلى إنسان؟**!**
- ولمَ لا؟**!** فأنت أكثر إنسانية من معظم البشر يا أطلس، أليس كذلك؟**!**
- كيف تخيّلت أن ذلك ممكن حتى؟
- لم أتخيل.. أنا أعلم، وإن لم يكن ممكنًا فسنكمل طريقنا معًا نحو حتفنا.. لمَ أنتَ مستاء هكذا؟
- وهل تنتظر مني أن أشكرك؟**!**
- فقط أنتظر منك أن تعيش يا أطلس
- لكنه.. أنا لا يمكنني فعل ذلك، لا يمكنني العيش هكذا**!**
- لا أظن أن لديك الخيار

قالها دكرور كأنه يمازحه، وأردف:

- ماذا عن البقية؟ ألا يزالون على قيد الحياة؟
- لستُ متأكدًا.. ربما
- أتدري**!** ربما أنا لم أفعل ذلك من أجلكَ فقط.. بل من أجلهم أيضًا، فأنتَ إن مت فلن يكون هناك ما يعيشون لأجله، أما أنا... سيبقون أحياءً فقط ليموتوا معي

ثم قال أطلس بنبرة لم يسمعها دكرور منه من قبل:

- ماذا تريدني أن أفعل يا دكرور؟

لم تكن نبرة باكية لكنها كانت حزينة لدرجة تقترب من البكاء؛ فأجابه دكرور بثقة واطمئنان:

- فقط اجعل ذلك الأمر يستحق، واجعل حياتكَ في جسدي تستحق، اجعل هؤلاء الحوّاتين يدفعون الثمن، وحافظ على الرجال كما حافظتَ عليهم في جوفك كل تلك الأعوام، وأخبرهم أني أحبهم، وأني كنتُ

أتمنى أن أعيش معهم أكثر من ذلك، وأخبرهم بما فعلتُ، ولا تجعلهم ينسونني، أرجوكَ يا أطلس.. لا تجعلهم ينسونني

- لن أنساكَ يا دكرور ولن أجعلهم ينسوكَ، ربما أنتَ أقل من عاش في جوفي لكنكَ أكثر من ترك أثرًا فيهِ
- شكرًا يا أطلس.. شكرًا أنكَ أسكنتني ذلك الجوف، أنا أحبك يا أطلس.. أريدكَ أن تعلم ذلك قبل أن أذهب
- وأنا أيضًا أحبكَ يا دكرور

ظهر بجانب دكرور سُلّم يفضي إلى أسفل السفينة كأنه يفضي إلى كوثلة، كان مظلمًا ليس له قرار يفضي إلى الظلام فقط، كان يعلم بوجود ذلك السُّلم منذ أن وصل إلى عالم الأحلام وصعد إلى السفينة، كما أنه كان متأكدًا لأين يؤدي ذلك السُّلم، وأنه سُلّم للنزول فقط لا يمكن أن يصعده مرة أخرى، وقف دكرور على أوله ووضع قدمه على أول درجة فقط، فقال أطلس:

- وداعًا يا دكرور

رفع دكرور رأسه بفخر ورَدّ بابتسامة:

- وداعًا يا أطلس

وأكمل نزوله السلم المظلم.

حينها بدأت السفينة تغوص في الماء بسرعة وثبات وهدوء دون أن تحدث اضطرابًا حولها، كالحجر الصغير عندما تلقيه في بركة راكدة، وكان دكرور قد نزل السُّلم إلى آخره، فلم يعد إلى عالم اليقظة مرة أخرى، بل لم يعد إلى عالم الأحياء مرة أخرى.



اعتقدتُ أني كنتُ شاردًا بينما كنت أقرأ الصفحات القليلة الأخيرة لأول مرة، فعدت أقرأها مرة ثانية باهتمام أكبر، وهذه المرة أيضًا لم أفهمها،

فعدت أقرأها مرة ثالثة، وهذه المرة أدركت أني قد فهمت تلك الصفحات من أول مرة، لكنه عقلي بدا وكأنه يحجب عني الأمر، يأبى تصديق شيء كهذا.

لم تعد قراءة الكلمات كافية لاستيعاب المكتوب، فتوقفت عند آخر ما قرأت ولم أكمل، ثم تطوعتْ مُخيّلتي فشَرِدتُ في الأجزاء البيضاء من الورق، في محاولة لاستيعاب كل شيء.

أثناء ذلك سمعت صوت سعال آتيًا من جِواري، فجفلت وارتعدت فقمت بعصبية فأسقطت الكرسي الذي أجلس عليه، لم يرعبني ذلك الصوت بقدر ما أرعبني من أصدره، كان ينظر إليّ في استغراب ورأيت شفته تتحرك بكلمات لم أسمعها من شدة ذعري، لكنني سمعته عندما كررها:

- إدي!!! ما بكَ؟! هل أنتَ بخير؟!!

لم أجِبه وظللت أحدق فيه بذهول، ثم لاحَظ الأوراق على الطاولة بيني وبينه وأخذ منها آخر ورقة، وربما قرأ منها كلمة واحدة فقط، قبل أن يعود ويرفع رأسه إليّ ببطء يرمقني وعلى وجهه ابتسامة كادت أن توقف قلبي وقال:

- حسنًا...

ثم أعاد الورقة مكانها، ووضع سبابته وإبهامه في إحدى عينيه كأنه ينتزع منها مقلته، وهو يكمل بهدوء:

- أذكر أنكَ أردتَ أن ترى أطلس...

قالها وقد انتهى من نزع عدستين من عينيه، فنظر إليّ بعينين جديدتين، أو إنه أنا من كان ينظر إليه بعينين جديدتين، كانتا صفراء كشمسين أو كجذوتين أو كيراعتين؛ تمامًا مثلما وصفها في روايته ومثلما تخيّلتها، جحظ لي بهما وأردف:

- ها هو ذا!

تسارعت أنفاسي حتى أصبت بالدوار والغثيان وأردت أن أتقيأ، وارتعدت وذرفت الدمع، ليس حزنًا بل خوفًا، وظللت أتراجع عنه بهدوء وهو يرمقني بثبات وبابتسامة، حتى اصطدمت بسامبار وأمسكت فيه كأنني أطلب المساعدة، ولاحظت دييجو يجلس ويشاهد باهتمام، وأوساي بجانبه عاقدًا ذراعيه إلى صدره، فقال سامبار بجدية وبطيبة وهو يربّت عليّ:

- اهدأ يا إدي! أنا معك.. أنظر...

وأشار إلى ذلك الجالس يحدق فيّ أنا بالذات كأنه يتعمد إخافتي؛ وأردف:

- إنه لا يزال دكرور الذي نعرفه جميعًا.. كما أنه أطلس الذي نعرفه جميعًا، لكن لا تقلق إنه لن يبتلعكَ، إنه لم يعد يفعل ذلك

بالكاد أخفى سامبار ضحكته، وجلجلت ضحكة أوساي وقال:

- يبدو كمن رأى حوتًا!

فضحكوا جميعًا، وذهب شيئًا من روعي، وإن لم يذهب المغص في معدتي، وعدت أنظر إليه لأجده لا يزال يحدّق إليّ، ثم قال:

- لم أكن أعلم أنكَ تخشى الحيتان لهذه الدرجة!

استعدت عقلي ولممت شتاتي، فتذكرت عندما كان يتكلم عن نفسه بصيغة الغائب، وعندما كان ينعت نفسه بالإنسان، وعندما كان يكلمني عن البشر كأنه ليس أحدهم، وعندما قال صراحةً أنه ليس إنسان، وتذكرت عندما سألته أول مرة عن أطلس، فاستجمعت شجاعتي وقلت:

- عندما قلتَ أن أطلس هنا...

وأشرتُ إلى صدره:

- كنتَ تعني ذلك بالمعنى الحرفي؟
- نعم، أظن ذلك!
- ماذا عن دكرور؟ كيف يكون قد... أين هو؟

ازدرد أطلس ريقه بصعوبة وأشار بسبّابته إلى قلبه وقال في أسف:

- إنه هنا!

حينها أغلق عينه فسالت منها دمعة حين عاد يفتحها، وقال بصعوبة:

- هذه المرة أعنيها بالمعنى المجازي

فتجرأت أكثر ورفعت صوتي بعصبية:

- ولمَ يجب أن أصدقك؟!! لمَ يجب أن أصدق أي هراء تكتبه؟ إنك لا تبدو كحوت!!! أنت تبدو كدكرور أكثر.. أعني كإنسان

قال أطلس بحماس:

- أه! هذا صحيح، لماذا بظنك كتبتُ مذكرات دكرور بعد أن مات؟ كتبتُ ذكريات دكرور على الورق حتى لا أنساه، وجدتُ في الكتابة الوسيلة لإعادته إلى الحياة، ولا يمكنني الجزم بأن تلك المحاولة قد نجحت بشكل كامل، فقد مات دكرور بالمعنى الذي نعرفه كلنا، إلا أن ذكرياته لا تزال في ذلك العقل...

أشار بسبابته إلى رأسه، ثم أضاف دييجو:

- أتدري؟! كان بوهاردي حريصًا على أن يرحل بيدرو من عقله، وعمار لم يهتم بأن يتذكر يوزي فنسيَه إلى حد كبير، أما أطلس فقد تعمّد ألا ينسى أي لحظة عاشها دكرور، فلم يتغير دكرور كثيرًا، ناهيكَ عن أن حوتًا هو ما قد انتقل إلى جسده

جلستُ في مكاني وقلت في أسف وحيرة:

- لكن كيف يفعل دكرور شيء كهذا؟!

رَدّ أطلس:

- لا، لا تسأل هذا السؤال، فحتى أنا لا أعرف إجابته

ثم نهض وأخذ الكتاب، فقدمه إليّ وقال:

- هيّا! لم يبقَ الكثير يا إدي!

قالها بابتسامة، وأخذت الكتاب منه بعد تردّد، ثم تنحّيتُ عنهم دون كلام، وأكملت القراءة برهبة كأني أقرأ ما سيتسبب في قتلي...



(4)

منذ لحظة كان مقيدًا لا يقوى على الحركة، يطفو نصفه فوق سطح الماء، يشاهد السفن والقوارب تحوم من حوله، ورأى رجاله يتسلقون أحد السفن كما رآهم كثيرًا من قبل، لكن تلك المرة يعلم أنهم لن يعودوا إليه ثانيًا، لطالما كان يعلم ما يحدث بداخل جوفه لكن لم يملك أن يفعل شيء حيال أي ممّا يحدث، علم أن دكرور قتل رجلًا أطلق رصاصة في جوفه، وعلم أنه قد صار وحده، وعلم أنه يشرب النور السائل، وعلم متأخرًا سبب فعله ذلك عندما طعنه في جوفه بحربة.

ارتعد جسده وكادت رأسه أن تنفجر من الصداع، وشعر بالألم في جوفه كما لم يشعر من قبل، كما شعر بالبرد كما لم يشعر من قبل، أحس بالضعف الشديد وحينها أغلق عينيه، وعندما عاد يفتحها في اللحظة التالية استيقظ في مكان ضيّق كالقبر، لم يتبينه أول الأمر.

لم يكن أطلس ينام عندما يحلم برجاله، لكن الأمر بدا كأنه كان نائمًا منذ لحظة وقد استيقظ في مكان آخر، مكان لم يكن فيه من قبل، فقد استيقظ في جوفه، الذي شعر به ضيقًا مقارنةً بالمحيط.

فتح عينيه فانتفض لا إراديًا يشهق ويتنفس بقوة، وجد نفسه لا يزال مغمورًا إلى نصفه، لكن لم يكن في الماء بل في النور السائل كما يسميه رجاله، ولم يرَ فوقه سوى السواد، فكانت عروق النور قد انطفأت بعد أن سكبت ما فيها من سائل ليتجمع كله في جانب واحد من الجوف، بدا كنهر من الذهب الأصفر الخالص، وهو يجلس في وسطه، ثم بسط يدين صفراوين أمامه لا إراديًا وبقيَ يتأملهما بفتور كأنه سيصاب بالغثيان وهو يقبضها ويبسطها كأنه يجرّبها، فتذكر وصدّق كل ما أخبره دكرور في حلمه الأخير، كأنه لم يكن يعلم ما حدث سوى الآن.

تذكر آخر حلم رآه دكرور والطمأنينة التي كان يشعر بها عندما يحلم، ورأى جثة قريبة فتذكر آخر من قتل دكرور والنشوة التي كان يشعر بها عندما يقتل، أصدر صوتًا من شدة أنفاسه فتذكر آخر ما قال دكرور وكل

مرة شعر فيها بالألم في حلقه وعجزه عن الكلام حين كان يريد، شعر بدمعة تنزل من عينه فتذكر آخر ما أبكى دكرور والسقم الذي كان يشعر به عندما يفعل.

لكن كل تلك الذكريات التي كانت تخطر في باله كانت تتلاشى كلما فكر فيها أكثر، كما تتلاشى الأحلام بعد أن تستيقظ منها وتبدأ باستعادتها، لكنه في تلك الحالة كان يستعيد حلمًا مدته ثمانية وثلاثين سنة.

ولما علم أطلس أن تلك الذكريات لسوف تُنسى، وتذكر وصية دكرور ألا ينساه؛ ارتعب وهلع فنهض بعصبية لا إراديًا يقف على ساقين، فعاد يسقط كأن تلك الساقين يأبَيان أن يحملانه، فجثا على ركبتيه من شدة السقم، لم يكن يشعر بألم في جسده، لكنه شعر بأن كل شيء في العالم في غير محله، وقد تضاعف شعوره بكل شيء وإدراكه لكل شيء، بعد أن عرف كل الأسماء لكل تلك المشاعر، ولكل شيء في العالم.

عض على أسنانه حتى كاد أن يكسرها، أغمض جفنيه بقوة حتى كاد أن يفقأ العيون من تحتهما، قبض على يديه حتى كاد أن يجرح راحتيه بأظافره، شد كل عضلة في جسده حتى كاد أن يقطعه، سحب نفسًا كبيرًا حتى كادت ضلوعه أن تنكسر، ثم عاد يزفره بصرخة كاد حلقه أن يخرج معها.

شعر بالإعياء الشديد من كل ذلك، فمكث مدة يلتقط أنفاسه قبل أن يبدأ اعتياد ذلك الجسد العنيد، الذي كأنه يأبى أن يروّضه أحد سوى صاحبه الأصلي، ويعتاد ذلك العقل الغريب الذي يفكر في كل شيء أكثر من اللازم، ويفكر أسرع من أن يدرك فيما يفكر، لكن أكثر ما فكر فيه أطلس هو أن يوفي وعود دكرور، وعلم أن عليه الخروج من الجوف.

لم يرَ أطلس جوفه من قبل لكنه يعرفه جيدًا، نهض بخفة وتوازَن بصعوبة وسار ببطء نحو باب الجوف، لكنه حاد عن مساره وأمسك بالجثة القريبة وبدأ يجرّها وراءه، فدفعها في الباب وأخرجها أولًا، ثم تبعها دون أن يلتفت وراءه.

غسلت المياه ما عَلِق به من نور سائل مكوّنة حوله هالة صفراء سرعان ما ذابت واختفت، شعر بالمياه باردة جدًا، بالكاد كان قادرًا على فتح عينه تحت السطح، رأى فم حوت عظيم مفتوحًا ومثبتًا بداخله قضبان حديدية كأنها عِمدان تمنعه من أن ينهار، بل كانت تمنعه من أن ينغلق.

لم يستوعب أطلس ما يرى لأول وهلة، قبل أن يدرك أن ذلك الحوت هو جسده الميت، جسده القديم، وظل مدة ليست طويلة يطفو أمام الجثة الهائلة يتأملها، قبل أن يحس بالاختناق ويسعل ويصدر فقاعات من فمه، فعلم أنه يجب أن يصعد فوق السطح ليتنفس الهواء، إذ إن رئته أصبحت أصغر من أن تعينه على البقاء تحت المياه، لكن الهواء أصبح مميتًا كما لم يكن من قبل.

ثم بدأ يضرب المياه من حوله في حركات خرقاء، كانت محاكاة رديئة للسباحة كما كان يفعل طوال حياته، وجد نفسه أعلى فم الجثة فوقف عليه غير عابئًا بالأشواك التي انغرست في ساقيه، ورفع رأسه فوق السطح وولى وجهه السماء يستقبل قطرات المطر، فشهق شهقة سريعة وأخرج زفيره المحبوس من أنفه وفمه، وأيضًا في محاكاة رديئة للتنفس كما كان يفعل طوال حياته.

ترك نفسه يطفو على السطح فأوشك أن ينام، فسمح لنفسه بالشعور برجاله على السفينة المجاورة، كما شعر بحيتانه في المياه أسفله، وسواء هؤلاء أو هؤلاء فقد شعر بهم جميعًا يتألمون خائفين يائسين، وقد كان مِن الحيتان مَن يطارَد، ومنهم من قد صيدَ بالفعل، ومنهم من قد قتِل بالفعل.

ربما غفا لثانية قبل أن تنتشله يد إنسان آخر وتحمله وترفعه على قارب، وهو بين أيدي البحارة هزيلًا بالكاد يفتح جفنيه كالمغشي عليه، وسمع بوضوح صوت ذلك الإنسان وهو يتكلم:

- من الذي فكّ قيدك أيها اللعين؟!

بدأ القارب يرتفع برويّة فحمله اثنان من ذراعيه وطرحوه على المتن كجثة هامدة بجانب رجاله الجاثين، وشعر بأيديهم تربّت عليه وتتفقده وسمع صوت عمار الذي يعرفه يقول:

- انهض يا دكرور! كاد الأمر أن ينتهي...

وربما رأى عمار النور السائل يسيل من فمه كاللعاب فأردف:

- ما هذا؟!!! ما الذي فعلتَ؟!

ثم رفع جفنًا عن عينه والتفت إلى موريس بذهول، فأمسكَ موريس بوجهه ودوّره إليه يرمقه بدهشة كأنه يتأكد منه، وقال كأنه يسأل:

- دكرور!...

ثم تراجع عنه وأغلق جفنه بسرعة عندما قال هنري:

- كنا في انتظارك يا سيد أبكم!

وسمع أوين يقول:

- حسنًا أيها الرجال! إن لم تلحقوا بي فلا بأس، بل سيكون ذلك أفضل، لقد سَعِدتُ جدًا بالعيش معكم.. وأنا أحبكم.

مَدّ إليه أطلس ذراعًا بوهن كأنه يريد أن يخبره ألا يرحل، أو ربما أراد أن يعلمه أنه أطلس، وأنه أيضًا يحبه، أو أن دكرور أراد أن يخبره أنه أيضًا يحبه، يشعر بالكلام محبوس في حلقه لكنه لا يعرف كيف يخرجه، وقبل أن يصل بذراعه إليه سمع دويّ صمّ أذنه التي صارت تسمع أكثر من اللازم، وفي اللحظة التالية ارتمى أوين إلى جانبه.

زحف إليه على بطنه وأمسك به من رداءه عَلّه يشفي ما قد أصابه كما كان يفعل دائمًا لكنه لم يملك له سوى أن يبكيه، مقَتَ نفسه وكره البشرية

كلها عندما بدأ يبكي لأول مرة، ربما لم يكن حزن أو غضب بقدر ما كان قلة حيلة وشفقة، وخلال بكائه وبكاء الآخرين سمع صوت دييجو يقول:

- لماذا أطلس لا ينفث؟

ثم صاح أحد البحارة:

- انظروا!! هناك جثة في المياه!!!

كانت جثة الرجل الذي قتله دكرور وأخرجه أطلس من الجوف، فتوجه البحارة يشاهدونها وقال أحدهم:

- إنه بيل! لقد كان مع ذلك الأبكم! كانا آخر من خرجا

بعدها مباشرةً جذبت يد رأس أطلس من شعره وأجبرته على الوقوف بعنف، فكان ذلك هنري يقف وراءه ويضع شيئًا باردًا على رقبته، فقال في أذنه كأنه يصب فيها الغضب:

- حقًا لم أرِد تعذيب أحد، لكن...

وتفجّر النور السائل من فم أطلس يضخه ضخًّا، فتراجع عنه هنري بعدما أصابه شيئًا من قيئه، وتركه يسقط ويكمل تفريغ ما في بطنه وهو يجثو على أربع، ثم ران الصمت لبرهة بعد أن كفّ أطلس، وقال هنري بخوف ودهشة:

- ما هذا؟! من أنتَ؟!!

قال موريس بصوت خافت وهو يبكي:

- إنه أطلس!

مؤكد أن هنري قد سمعه فقد التفت إليه بعصبية وأحَدّ النظر فيه وفي قيئه، وقال بعد أن هز رأسه بعصبية كأنه ينفض عنها التفكير:

- أتعلم! لن أعذبكَ حتى... فقد سئمت منكَ أيها الأبكم

عاد يقف وراءه وشدّه من شعره ليرجع رأسه للخلف، فشعر أطلس بالخنجر باردًا على حلقه وسرعان ما بدأ يحرقه، فوضع يده تلقائيًا على رقبته ليجدها تضخ دمًا، وفي اللحظة التالية وجد نفسه يهوي إلى المياه.



في تلك اللحظة كانت الأفكار أكثر من أن يعيها والمشاعر أكثر من أن يتحملها، فلم يفكر بشيء ولم يشعر بشيء، ترك نفسه يغوص إلى الأعماق كأنه يعلم أنه سيموت قبل أن يصل إليها، فظن أنه لن يشعر أو يفكر بأي شيء آخر إلا الموت، إلى أن رأى أوين يتبعه ويغوص هو الآخر بسَكينة وهدوء، لكنه لم يشعر به كما كان يفعل دائمًا رغم أنه كان أكثر من يشعر به عندما يلمس المياه، فقد كان أوين الوحيد الذي ارتحل من الجوف إلى اليابسة ثلاث مرات، وكان يعود في كل مرة، وفي كل مرة يشعر به حتى ولو كان في آخر العالم.

ظل يتبعه بعينه التي كانت تذرف الدمع ليذوب في ماء البحر قبل أن يخرج منها، وشاهده حتى غاب في الظلمات، فلاحظ كل الحيتان الرمادية تطوف من حوله في حلقة عظيمة كطيور تحوم حول الجيفة، وشعر بهم كأنهم يعلمون من هو وينتظرون إشارته، أحس بوخزًا في ذراعه فمدّه تلقائيًا ليشير نحو أحدهم، شعر بأنه يمسك ذلك الحوت بقبضة يده الصغيرة وكأن ذراعه قد طال إلى مائة ذراع.

أذعن إليه الحوت فجاءه مسرعًا وبدا أنه يومئ لتحيته، ثم سبح من أسفله فصار أطلس فوقه وامتطي ظهره، وتمسك به بيدٍ وجعله يسبح إلى أعلى وارتفع هو بدوره نحو السطح، وباليد الأخرى الحرة كان يرفع معه بقية الحيتان الرمادية كأنه يسوقهم بحبال خفية، في مشهد بدا كالموكب المهيب، جعله كل ذلك يعزم أمره ويستجمع عقله المشتت ليفعل شيء.

سيفعل ما امتنع عن فعله وآل بهم إلى كل ذلك، سيفعل ما كانت القواعد تمنعه أن يفعل، إذ لم يعد هناك داعي للالتزام بالقواعد بعد كل ذلك، فهو لم يعد حوتًا، كأنه لم يكن يدرك ذلك سوى الآن، لم يدرك أنه أصبح إنسان، لقد أصبح ذلك الكائن الذي تسري عليه كل القواعد، وهو نفسه الكائن الذي لا يلتزم بأي منها.

ارتفع أطلس عن سطح الماء واقفًا على ظهر حوت رمادي؛ بين السفينتين وأمام جثته التي لا تزال في الشبكة، ثم نفث الحوت فنبّه كل من على السفينة، فهرع الجميع إلى سورها يشاهدون في ذهول، ومن موقفه هذا شاهد سامبار وهو يطأطئ رأسه ومن وراءه رجلًا يصوب إليه مسدس.

انحنى برويّة وغمر كلتي يديه في الماء في اتجاه السفينة فتجمعت الحيتان أسفلها، وحين عاد يرفع ذراعيه إلى السماء بسرعة؛ ارتفعت معها خمسة حيتان تضرب السفينة من أسفلها ضربة واحدة، فارتجّت فجأة كأنها تنفجر، وارتفع كل ما كان عليها من براميل وصناديق ورجال؛ في الهواء لهنيّة، قبل أن يسقطوا في غير موضعهم، فاضطرب كل شيء عليها بسرعة.

بدأ البحارة من السفن الأخرى يرمونه بالحراب، فكادت واحدة أن تصيب الحوت الذي يقف عليه، فأشار بكفه وعاد يغمر أصابعه ومررها في الماء، ودار حول نفسه يمسح على السطح كأنه يرسم عليه دائرة ليلتفت إلى السفينة الأخرى، فتبعت يده عشرات الحيتان، واندفعت مخترقةً السطح لتضرب السفينة من جانب واحد ضربةً واحدة في نفس الوقت، جعلتها تميل على جانبها الآخر فلم تستقِم بعدها.

كانت عشرات السفن من حوله بعيدة وقريبة، وأضعافها من القوارب تجوب الفردوس بحثًا عن الحيتان الرمادية، بعضها كان يقطر حيتان ميّتة وعائدين بها إلى سفينتهم، فنشر أطلس حيتانه في كل ركن في الفردوس بحثًا عن القوارب يسقطونها أينما وُجدَت، جعل أطلس بعضها يطير وينقضّ على القوارب بمن عليها، وجعل الكبير منها يطبق عليها بفكيه ويهشمها،

والصغير منها كان يصطدم بها أو يرفعها بذيله ليقلبها بمن عليها، ثم بعد أن انتهى من كل القوارب تحوّل إلى سفنها، كان يجمع الحيتان في مجموعات ويضرب بها السفن بقوة تجعلها تميل، وبعضها انقلب وغرق على الفور.

حرص أطلس على ألا يترك قاربًا يطفو أو سفينة معتدلة، لكن غِلّه لم يُشفَ ومقته لم يذهب، فحرص على ألا يترك ناجين، إذ كانت مياه الفردوس تعج بالبحارة الذين أفلتوا من الضربة الأولى، ومعظمهم كان يسبح نحو اليابسة لكن لم يدعهم أطلس يصلون إليها، فجعل الحيتان تفترسهم دون رحمة، حتى تلوّنت المياه بالأحمر.

وأثناء كل ذلك كان هناك اضطراب وصوت إطلاق النيران؛ على متن السفينة المائلة التي عليها الرجال، فسبح أطلس إليها وتسلقها كما رآهم يفعلون، ليجدهم يقاتلون الجند الحوّاتين وقد توارى الفريقين عن بعضهما، فالتقط حربة لينضم إلى المعركة، ربما لم يدرِ ما يفعل بها حقًا لكنه يعلم جيدًا كيف تستخدم.

وفي جانب بعيد عن القتال كان هنري يجلس وحيدًا بتواضع ينظر إليه في استغراق واهتمام، فترك أطلس الحربة من يده وسار إليه وجلس بجانبه يشاهدا القتال الدائر سويًّا.



(5)

لم يشُكّ أطلس في مقدرة رجاله على الفوز بذلك القتال، وربما لم يشُكّ هنري في الأمر أيضًا، على الرغم من أنهم كانوا أقل عددًا وعُدّة، ومنهم مصابًا وآخر مقيدًا بالسلاسل، وبعد مدة من الصمت أشار هنري برأسه إلى رقبة أطلس وقال كأنه يسامره:

- ستترك هذه ندبة

وضع أطلس يده تلقائيًا على رقبته وفركها فلم يشعر فيها بأي شيء، ثم قال هنري:

- هل الأبكم هو من فعل ذلك؟

التفت إليه أطلس بعصبية وقال بحدة:

- اسمه دكرور**!!**

تفاجأ كثيرًا، وتعجّب أشدّ العجب من صوت الكلام، ومن فكرة الكلمات نفسها، ثم عاد هنري يسأل بعد برهة:

- كيف كان إذًا؟
- كان أشجع مَن دخل جوف حوت، ربما أخذ وقتًا حتى أحبّنا لكننا أحببناه على الفور... كم مرَّ منذ أن رحلتَ؟
- ثلاث عشرة سنة تقريبًا
- مكث دكرور ثلاثة عشرة سنة فقط.. أقل مدة قضاها رجل في جوف حوت، أعتقد أنه كان يحسد الرجال على أنهم قضوا عقودًا
- ربما كنتُ كذلك لأربعة عقود، لكن كل ذلك القتل... آه**!** أعتقد أنه لم يعد يهم الآن..
- ألذلك قررت أن ترحل؟
- ماذا**!**.. لا بالطبع، لم أرحل بسبب القتل.. لم يهمني أن أَقتُل أو أُقتَل، القتل رياضة الرجال أمثالنا
- ماذا إذًا؟ لا تقل لي أنك تُبتَ
- بحقكَ**!** أنتَ تعلم أني لم أتُب، فما فعلتُ ليس له توبة، أنا فقط كنتُ...

ثم التفت إليه وأردف باهتمام:

- إن كنتَ أنتَ أطلس حقًا فأريدكَ أن تعلم أني لطالما كرهتكَ، ليس لأي شيء سوى أنه ليس من المفترض لرجل أن يحب حوت أو حتى يكرهه، ليس من المفترض أن يضحي الرجل بنفسه من أجل حوت،

لن أتعجب إذا فعل الرجل كل ذلك من أجل أخيه الرجل أو أي من البشر، لكننا كنا نفعل العكس من ذلك تمامًا...

لم يكن القتال قد انتهى حينما انضم إليهم سيجورد، مع صوت صليل أصفاده حول رسغيه، ثم ارتمى يجلس إليهم وقال في توجع:

- إذًا أنتَ أطلس بالفعل؟
- أعتقد ذلك!
- إذًا هل يمكنك أن تفعل شيئًا حيال ذلك...

وكشف عن صدره وعن فجوة فيه وأردف:

- اللعنة! كان ذلك قبل حتى أن يبدأ القتال

هرع أطلس يجثو بجانبه وهو حائر لا يدري ماذا يفعل، وقال:

- لا أدري يا سيجورد.. فقط تماسك

والتفت سيجورد إلى هنري وقال:

- أين ذلك الطبيب؟
- أعتقد أنه الذي هناك

وأشار باهتمام إلى إحدى الجثث أمامهم.

كان الرجال قد انتهوا بالكامل من البحارة على السفينة ومن قفز منها هربًا، ثم انضموا إليهم وجلسوا في وجوم يختلسون النظر إلى أطلس كل ثانيتين، إلى أن قال سامبار لهنري:

- ماذا عنكَ؟

رَد هنري بهدوء:

- لا تقلق بشأني.. سأرحل قريبًا.. لم أكن أنوي أن أظل حيًا بعد هذا اليوم أيًا كانت نتيجته

وقال عمار لأطلس وهو يدفع البكاء:

- وماذا عن دكرور؟
- أرادكم ألا تنسوه

وشرع عمار في البكاء، وقال دييجو وهو يمسح دمعه:

- وكيف ننسى ذلك الوغد؟!

وقال سيجورد بوهن بنبرة ساخرة:

- ألن يسأل أحد ماذا عن سيجورد؟! آه! تبًا لكم! أعتقد أني سأرحل على كل حال، أرجو ألا تمانعوا.. فأنا من يريد ذلك

قال أوساي الذي كان يجلس إلى سيجورد ويحتضنه بنصفه:

- لن نمانع يا سيجورد! فنحن أيضًا نريد ذلك..

ضحك سيجورد وضم إليه أوساي أكثر وقال:

- أحبكم يا رفاق.

وقال أوساي لهنري كأنه انتبه فجأة إلى شيء:

- هل وجدتَ جثة مافي بعد... بعد ما حدث في نانتوكيت؟
- نعم، وجدنا جثة متفحمة كانت أكبر من اللازم، فعلمتُ أنه هو.. لماذا؟
- أين دفنته؟
- لا تقلق يا أوساي! لقد دفنتُ مافي في المحيط الأطلسي، وليس في تلك الجزيرة الملعونة

ثم قام بنشاط وقال:

- اسمحوا لي! أنا أيضًا يجب أن أرحل...

وتنحّى من بينهم وسار قليلًا وهم يشاهدونه بترقب، ثم توقف أمامهم وهذب هندامه وعدل قبعته فوق رأسه، وبدا أنه سيخبرهم بشيء مهم، لكن استوقفته رؤية جثة ملقاة على مقربة منه فقال بتعجب مبتذل كأنه يكلمها:

- آه! إنه شادويك!

والتفت عنه وقال بلا مبالاة:

- لم أحب ذلك الأبله قط!

ثم عاد إلى الرجال ربما ليخبرهم الكلام المهم، فسحب نفسًا وقال:

- ليس لدي ما أقوله لكم حقًا سوى أني كنتُ أتمنى أن أقابلكم في مكان غير جوف حوت

ثم أخرج مسدسًا من رداءه وقدّمه إليهم وأردف:

- هلَّا يفعلها أحدكم؟

نهض موريس على الفور وأخذ منه المسدس وتفقد أولًا إن كان مذخرًا وصوبه إلى رأسه، فقال هنري:

- لا يهمني أين ستدفنونني، لكن إن أردتم.

وأرداه موريس دون أن ينتظر لثانية أخرى.



في تلك الأثناء كان أوساي يسبل جفون سيجورد، ثم حمله عمار وموريس وألقوه من سور السفينة الذي كان قريبًا جدًا من سطح الماء، إذ كانت السفينة مائلة لدرجة أن الصواري بدأت تتحطم ويسقط نصفها في الماء، فنزلوا معًا إلى المياه وأخذهم أحد الحيتان على ظهره، ثم سبح بهم إلى أقرب يابسة، وساعد دييجو كلًا من موريس وعمار وحملوه من الماء إلى الشاطئ، وجلسوا على الشاطئ الواسع في صمت ليغسلهم المطر من ماء البحر.

ثم بدأ أطلس يفرغ القليل ممّا تبقى في بطنه من نور سائل وهو يجثو، وعاد يجلس بين رجاله يلتقط أنفاسه ويشاهد المطر وهو يغسل الرمال من قيئه.

جلس موريس ظهره إلى ظهر أطلس، وعلى جانبيهما يتكئ سامبار وأوساي، وديجو مستلقيًا يضع رأسه على فخذ أطلس ويمد ساقيه الساكنتين أمامه نحو البحر، وعمار أمامهم مواجهًا له يشرد في عينيه بين الحين والآخر، وظلوا على هذا الحال مدة طويلة، وطال الصمت بينهم حتى كف المطر دون أن ينقشع السحاب، وحتى قال دييجو:

- ماذا الآن؟!

رَد أطلس بتنهيدة:

- اذهبوا إن أردتم.. لم يعد لدي جوف لآويكم فيه.. أنتم أحرار

رَد موريس من وراءه:

- لا تظن أن أحدًا سيذهب يا أطلس

وقال سامبار:

- سأبقى معكَ حتى أذهب، أنتم تعلمون أني سأرحل قريبًا صحيح؟!

فقال عمار:

- لن ترحل أيها الجبان! لا يمكننا تحمل خسارة أحد آخَر

وعاد موريس يقول بعد مدة:

- لكن كيف علم دكرور أن شيئًا كهذا ممكن؟

أجابه أطلس:

- لم يعلم فحسب.. لقد كان متأكدًا، كما كان متأكدًا من أن ذلك سيكون شيئًا تعيشون من أجله، لقد فعل ما فعل من أجلكم أنتم

وقال أوساي في شرود كأنه يغني:

- دكرور الأبكم!.. هل تذكرون آخر ما قال؟

أجاب عمار بابتسامة حزينة:

- "ليس هناك فرق"، اللعنة**!** سأشتاق إليه**!**

وبعد صمت طويل آخر، قال موريس:

- بمَ تشعر الآن يا سامبار؟
- أشعر بالجوع**!**

قالها سامبار بفتور وهو يسند رأسه على كتف أطلس وشبه نائم، فقال أوساي:

- اللعنة**!** وأنا أيضًا أشعر بالجوع**!**

وغمغم البقية بالموافقة، فقال أطلس باستغراب:

- ألا زلتم تذكرون الجوع؟
- لقد عدنا بشرًا مرة أخرى يا أطلس
- وماذا كنتم؟
- كنا حيتانًا**!**

وعاد موريس يسأل:

- أعني ألا تشعر بالمرض يا سامبار؟
- لا أظن ذلك، لا أعلم بماذا أشعر حقًا

قال عمار:

- أيعقل أن تكون قد شُفيتَ؟

رَد دييجو وهو ينظر إلى ساقيه:

- ولمَ لا**!** فهو لم يخرج من الجوف لقرن من الزمن

وقال سامبار:

- إن لم أمُت من المرض فسأموت من الجوع

نهض موريس يلقي بنظره في الصحراء أمامه وقال:

- لا يبدو أن هناك ما يؤكل في هذا المكان القفر

ثم أضاف وهو يلقي بنظره إلى المياه التي كانت خرابًا:

- لا تزال بعض السفن قائمة، وعليها من الطعام ما يكفينا لسنوات

فنهض أطلس وقال:

- انتظروا هنا!

فتوجه إلى المياه وخاضها إلى نصفه، وبدا للرجال أنه يتراقص لكنه كان يحرك يديه فقط ليحرك الحيتان الرمادية، فجعلها تدفع بسفينة إلى الشاطئ كانت الوحيدة التي تطفو معتدلة، حتى رَسَت على جانبها في المياه الضحلة، فقال أوساي بذهول وسعادة:

- حسنًا.. لقد أمّنا المأكل والمسكن!

وقال عمار بعد أن دقق النظر في السفينة:

- أه بحقك يا أطلس! ليس هذه! ليس تلك السفينة...

إذ كانت عاهرة نانتوكيت.

عاشوا فيها لسنوات يتغذون من مؤنها، قبل أن يفككوها للحصول على خشبها، فشيّدوا منه منزلًا متواضعًا على شاطئ الفردوس، ليتخذوه جوفًا بدلًا من الذي ضاع منهم، فبالنسبة لهم لم يهمّ إن عاشوا على جزيرة، أو في المحيط، أو على سفينة، أو في منزل، فأي مكان فيه أطلس كان لهم جوفًا.

بالنسبة لسكان أطلس لم يكن الجوف أبدًا مجرد بطن حوت.

النهاية

خاتمة

أغلقت الكتاب لآخر مرة دون أن أعلّم على آخر ما قرأت، ثم رقدتُ على السرير دون أن أنام، ولم أكن أفكر في أي شيء أو أحد سوى دكرور، بطل الرواية الذي مات في نهايتها مثل معظم الروايات.

كيف يموت صاحب السيرة الذاتية التي كتبها بنفسه في نهايتها؟ عشتُ معه لقرابة الأسبوع، ربما قد مات منذ مائة وسبعين عامًا؛ إلا أنه بالنسبة لي قد مات منذ ساعة فقط، فكان ذلك ممّا زادني حزنًا عليه، فبكيت حتى ابتلّت وسادتي، ربما كان من الانفعال بكل ما قد حدث لي في خلال الأسبوع الماضي، لكنني بكيتُ دكرور بالذات، وأنا أتذكر أنه الرجل الذي حملني بين يديه ليدخلني جوف حوت، وعبر بي أحد أبواب الجحيم كما أخبرني.

نمت واستيقظت قبل أن آخذ كفايتي من النوم على صوت طرق على الباب، لأجده سامبار فقال:

- نريدكَ بالأسفل.. هيّا!

جذبني من يدي ولم يدعني أفرك عيني من النعاس، فنزلت وبدا لي أن الوقت قبيل الشروق، لأجد أمامي يوزي، **"**لا، بل إنه عمّار**!** لا تنسَ ذلك أيها الأحمق**!"**، فكرت في ذلك قبل أن التفت إلى الرجل الواقف بجانبه، والذي عرفته على الفور.

بغض النظر عن أني أعرف بالفعل أنه لم يمُت؛ إلا أني كنت قد نسيت ذلك، وعرفت أنه موريس دون تفكير، عرفته من تلك الهيبة التي يبعثها في النفس، والتي ازدادت بعد أن تذكرت كل أحداث الرواية.

كان هو وعمار ينظران لي بثبات، فقال عمار:

- مهلًا**!** هذا من رأيتُ قبل أن أرحل**!** ما الذي لا يزال يفعله هنا؟

لم أتبين أطلس الذي كان يقف بينهما؛ إلا عندما قال:

- إدي! أظن أنك تعرف من هذان.. أيها الرفاق! أقدم لكما إدموند وينسلو!

وبينما كان عمار يلتفت بعصبية إليّ وإلى أطلس عدة مرات؛ كان موريس يثبّت عينه الرمادية عليّ، وقال عمار بعد أن استقرّت عينه عليّ:

- لابد أنك تمزح!!!

وقال موريس:

- هل أنتَ متأكد؟

رَد أطلس:

- متأكد مثلما أنتَ متأكد من أني أطلس

دوّر موريس وجهه عني أخيرًا والتفت إلى أطلس، وقال بسخرية:

- من قال أني متأكد من ذلك؟!

ضحك أطلس فقط، ثم عاد موريس إليّ واقترب مني وقال:

- لكن أين كنتَ طوال مائة وثمانين عام؟
- كنت في أمريكا معظمها.. كما كنتُ طفلًا معظمها، كما أني لم أكن أعلم أي شيء قبل أسبوع

قال أطلس:

- لقد انتهى إدي من رواية سُكّان أطلس

قالها لي بنبرة متسائلة، فأومأت له بالإيجاب، ثم نزع عمار عدساته اللاصقة من عينيه، وقال وهو يحدق فيّ بعينيه الصفراء:

- إن لم تخُنّي ذاكرتي.. فأنتَ بالفعل تشبه جيرترود

التفتُّ إلى سامبار الذي كان يسند رأسه بكسل؛ وقلت له:

- لقد أخبرتني أنكم ذهبتم للبحث عنها بعد أن انتهى كل شيء.. لم تخبرني ماذا حدث؟

قال سامبار يجاهد ألا ينام:

- بل أخبرتك أننا لم نجدها

أضاف عمار بانفعال:

- لكننا وجدناكَ أنتَ! إن كنتَ طفلًا معظم حياتك.. فهذا يعني...

وأضاف إلى موريس:

- مؤكد أنه كان ذاك الرضيع

وقبل أن أبدي تعجبي أجلسني موريس وجلس إليّ وقال:

- أنتَ تعلم كيف انتهى الأمر في عام 1854 صحيح؟

أومأت له فأردف:

- وكيف كنتَ حينها؟
- كنتُ لا أزال رضيعًا، وطوال القرن التاسع عشر كنتُ طفلًا أبدو أقل من خمس سنوات
- حسنًا.. بعد أن انتهى الجوف بعشر سنوات تقريبًا ذهبتُ أنا وعمار نبحث عن جيرترود و...
- لماذا؟

زفر ضحكة ورَد:

- ربما لأنني أخبرتها أني سأزورها من حين لآخر، كما أنني رجل أفي بوعودي، لكن لا تقلق! لم أبحث عنها لأقتلها، على كلٍ.. توجهنا إلى نانتوكيت أولًا بالطبع، وإذ كنا معزولين هنا في المكسيك لقرابة العشرين عام؛ فلم ندرِ أن هناك حربًا أهلية مندلعة في أمريكا، ولحسن

حظنا كانت في نهايتها، ثم لم نجدها في نانتوكيت أو ولاية ماساتشوستس كلها، وأخذَنا البحث أخيرًا إلى بنسلفانيا وهناك...

- أه! بالفعل أذكر أني كنت أعيش هناك في أول عمري، قبل أن أكمل بقية حياتي أتنقل بين ملاجئ الولايات المتحدة كلها حتى تغيّر اسمي
- نعم، وهناك وجدنا إدنا ابنة إدموند كوفن الصغرى، كانت أكبر بعشرين سنة، لكنني عرفتها على الفور، وأعتقد أنها أيضًا عرفتني على الفور، فأخرجت إلينا زوجها فطردنا شر طردة قبل حتى أن نلقي التحية، بعدها علمنا أنها جاءت مع زوجها ورضيع، وأختين أخرتين مات كلتاهما في الحرب الأهلية، أظن أني رأيت معها أطفالًا يمشون وبين ذراعيها رضيعًا ظننته لها، لكني الآن أعتقد أنه كان أنتَ

رغم أني لم أتوقع أكثر من ذلك إلا أني شعرت بالأسف عليها، وتأثرت بتلك القصة كثيرً، لكن لم أبدِ ذلك، فأومأت إلى موريس برضى وابتسامة آسفة، فقال أطلس بحماس:

- حسنًا يكفي كلام عن الماضي، والآن يجب أن نذهب لجلب السياح وأخذهم في الجولة

ثم صعد سامبار وعاد مع دييجو وأوساي، فحيّا موريس وعمار بحفاوة شديدة، كأنهم لم يروا بعضهم منذ مائة عام، فصعدتُ معهم على متن المركب المسمّى أطلس، وأبحروا به كلهم كأنهم طاقم سفينة، وساعدتهم قدر استطاعتي، ثم قلت بعد أن انتهينا من إعداد المركب وجعله يبحر:

- إذًا هذا هو الفردوس؟

أومأ بعضهم فأضفتُ:

- إذًا أطلس في مكانٍ ما هنا؟.. أعني الحوت!.. أعني الجسد.. جسدك!!!

رَد أطلس:

- لقد مشّطتُ قاع الفردوس عدة مرات ولم أجده، كأنه اختفى

أبحر المركب حتى خرجنا من مياه الفردوس إلى المحيط الهادي، وكانت الحيتان الرمادية تظهر وتزفر من حين لآخر، ثم عدت أسأل بعد مدة:

- ولَم ترتحل عن هنا منذ مائة وثمانين سنة؟
- لا، لم أرحل.. ثم إن بعض هذه الحيتان أبنائي البيولوجيين، بل أحفادي!
- هذا أكثر شيء مقزز سمعته في حياتي

ضحك أطلس وكل من سمعني، ثم قلت مرة أخرى:

- أليس منهم ذو جوف؟
- أعرف حوتًا رماديًا ذو جوف قد ولِدَ منذ عدة سنوات، إنه طيّب
- هل من أحد في جوفه؟

حدجني أطلس بنظرة متجهّمة ولم يُجِب، كما أبدى موريس السأم من كثرة أسئلتي بينما كان يلعب الشطرنج مع دييجو، فلم أسأل شيئًا بعدها، وبقينا نتسامر حتى دخلنا إلى خليج آخر أكبر من الفردوس، والذي عنده المرفأ الآخر فكان عليه السياح يقفون بترقب، كانوا عائلات معهم بعض الأطفال، فصعدوا ورحب بهم أطلس وسامبار وبعضهم كانوا يعرفونهما، ثم أبحرْت مع البقية بالمركب عائدين إلى الفردوس، وأثناء ذلك اجتمع السيّاح ووقف أطلس مع سامبار أمامهم، وبدأ الكلام كأنه على مسرح يقدم عرضًا:

- إلى مَن تلك هي أول مرة له، ومن عاود زيارتنا؛ أقول مرحبًا بكم على متن مركب أطلس! أنا اسمي أطلس!.. أنتم الآن تسبحون فوق موطن آلاف من الحيتان الرمادية، والتي في الأزمان الغابرة كان يدعوها صيّادو الحيتان بسمكة الشيطان، بالطبع لسلوكها العنيف تجاههم عند صيدها أو دفاعًا عن صغارها، لكن ذلك السلوك العنيف لم يُجْدِ أي شيء، فمنذ فجر صيد الحيتان حتى منتصف القرن السابع عشر؛ قد صيدت الحيتان الرمادية في المحيط الأطلسي حتى أبيدت منه.. أو هذا ما كان يظنه الحوّاتون، ففي منتصف القرن التاسع عشر، وبعد مئتي عام من آخِر مشاهدة للحوت الرمادي؛ عادت

الحيتان الرمادية إلى الحياة بعد أن كانت منقرضة، لكن هذه المرة في المحيط الهادي...

لم يقطع أطلس كلامه عندما صدر صوت نفث حوت قريب، لكنه فعل عندما صاح رجل من السيّاح بحماس شديد فور سماعه ذلك الصوت:

- ها هي تزفر!!!

وأخذ طفليه إلى سور المركب لمشاهدة أفضل وتبعه البقية، تاركين أطلس يشاهدهم بلا مبالاة، ثم حين عادت النفثات مرة أخرى؛ عاد الرجل يقول لأطفاله بحماس أكبر:

- هيّا أيها الحوّاتين! أنزلوا القوارب الطويلة!!

ثم التفت الجميع إلى أطلس الذي استغرق برهة قبل أن يقول بسأم بعد أن انطفأ حماسه:

- أه! ليس هناك قوارب انزلوا من الجهة الأخرى

هرع السياح ينزلون إلى المنصة التي كانت أعلى من السطح بقليل، والتفت أطلس إلى رجاله الذين كانوا يضحكون، وابتسم بسخرية لا تخفي غيظه الشديد قبل أن يتبع السياح، وبدأ يضع يده في الماء فبدأت الحيتان تجتمع حول المركب.

وأثناء ذلك كنت أقف مع موريس وعمار ودييجو وأوساي نشاهدهم من أعلى، وقال موريس في شرود:

- انظر كم صاروا حمقى!

وأضاف دييجو بمرح:

- كان أجدادهم ينتظرون هلاكهم عندما كانوا يسمعون تلك الصيحة

ردَدتُ على موريس:

- أعتقد أن هذا أفضل مما كانوا عليه في الماضي، صحيح؟!

- إن أطلس يعتقد ذلك أيضًا، لكنني لستُ متأكدًا بذلك الشأن، لكن لمَ لا؟
- ألذلك كففتم عن قتلهم؟
- من قال أننا كففنا؟
- ماذا؟!!!

جحظت له بذعر، فقال وعلى وجهه ابتسامة:

- أين تظن أننا نذهب كل حين؟

ربّت على ظهري وهو يضحك وتركنا وابتعد يجلس وحده.

ربما تعمّد أطلس أن يُنهي الرحلة سريعًا، إذ جعل كل الحيتان حولهم تختفي تحت السطح وتبتعد عن المركب، فلم يعبأ بإلحاح السياح لكي يبقوا أكثر لعلهم يجدون حوتًا آخر، وأعادهم إلى المركب ثم إلى المرفأ، وفي طريق العودة إلى مياه الفردوس قال أطلس:

- ألا تريد أن تركب على ظهر أحدهم يا إدي؟
- ماذا؟!!! لا لا شكرًا!...

وفي اللحظة التالية وجدتُ نفسي أنقلب من على المركب إلى المياه الباردة، فاعتدلت ورفعت رأسي فوق السطح، ونظرت إلى المركب لأجدهم جميعًا يضحكون فلم أعرف من منهم فعل ذلك.

ثم وجدتهم يقفزون معًا ويغوصون، وبعد برهة لاحظت حوتًا يقترب، فسبحت بعصبية أبتعد عنه لكنه أدركني ورفعني فوق ظهره، لأجد نفسي أمتطيه مثل الجياد، أنظر إليه بذهول وخوف، وسرعان ما وجدتُ البقية كلًا منهم على ظهر حوت، ويبدو أنهم معتادين ذلك ويعرفون ما يفعلون.

وبدأ الحوت يتحرك من تحتي فكدت أسقط من عليه، فتمسّكت تلقائيًا بالأصداف على ظهره، وبدأ يسبح بتناغم مع البقية، ثم أسرع وبدأ يغوص ويخترق السطح عدة مرات حتى أنهكتُ من شدة أنفاسي، ثم توقفت الحيتان بجانب بعضها فقلت وأنا بالكاد ألتقط أنفاسي:

- حسنًا.. هذا رائع حقًا!!... لكنه يكفي..

ثم عدتُ أسأل بحسن نية:

- سؤال أخير يا أطلس.. هل تستثار عندما تجد أنثى حوت في موسم التزاوج؟

آخر ما سمعته هو ضحكات، قبل أن ينقلب الحوت الذي أركبه ويسبح مبتعدًا، ثم وجدت أوساي ينتشلني وصعدت على ظهر حوته لأجده لا يزال يضحك، وقال أطلس بينما كان يضحك هو الآخر:

- اتركه يعود سابحًا يا أوساي، وسأجعل ذكر حوت يتزوجه

عدنا إلى المركب وعدنا به إلى المنزل، ثم أتى الليل واجتمعنا لأجد أن الجميع صاروا صُلعًا إلا أطلس، فلم أجد مانع من خلع شعري المستعار أنا أيضًا، وجلسنا جميعًا على الطاولة نتناول عشاءً، فقال أطلس أثناء ذلك:

- إدي! عليكَ أن تنتقل للعيش معنا هنا
- لا بأس.. لكن عليّ أن أذهب لأنهي بعض الأعمال، فأنا لم أعد إدوارد براون كما ترى

ثم قال سامبار:

- مهلًا! ألم تولد في فبراير؟
- نعم، على حسب قولكم، لكن لا أعلم في أي يوم
- لمَ لا يكون اليوم؟ 7 فبراير.. أيناسبك هذا؟

رفعت أكتافي بلا مبالاة فقال سامبار بحماس:

- إذًا اليوم هو يوم ميلاد إدموند وينسلو السابع والسبعين بعد المائة

هنّأني الجميع، وبقينا نتسامر ونضحك، وبدأ أوساي يغني أغاني الجوف والتي منها ما كنت قرأت في رواية سُكان أطلس، وقد شعرت بالسعادة والإعجاب الشديد من أني أسمعها بصوت مغنيها الأصلي، ومنها أغاني لم أعرفها، ثم استوقفت أوساي لأسأله:

- من أين كنتَ تأتي بتلك الأغاني؟
- لم أكن أنا، بل كان رالف هو من ألّف معظمها

قال سامبار بابتسامة آسية:

- كان رالف شاعرًا ومثقفًا كثيرًا.. لكان كتب رواية أفضل منك!

ألقى بآخر كلمة إلى أطلس، فركله في ساقه من تحت الطاولة ركلة اهتزت الطاولة من إثرها، فقلت:

- لكن أطلس كاتب لا بأس به بالنسبة لأنه... أنتَ تعلم!

زفر أطلس ضحكة، فعاد سامبار يقول:

- أولًا ليس أطلس وحده من كتب هذه الرواية، ثانيًا صار من السهل على أي أحمق أن يكتب أي هراء، حتى وإن كان ذلك الأحمق حوتًا

ضربه أطلس أخرى فلم يتكلم سامبار بعدها، ثم عاد أوساي يغني أغنية لم تمر بي من قبل، قال عنها أطلس عندما بدأها أوساي:

- "أصدقاء الجوف".. لم تُذكَر هذه الأغنية في الرواية، لكن دكرور كان يحبها كثيرًا

ما كنت وحدي أبدًا.. بل لم تكن أنتَ معي

سأبحث عنك يا صديقي.. مهما كنت في البحر القَصِي

لكن عليّ أن أفرّ إليكَ.. كي أعرفكَ وألتقيكَ

فلا يهم إن جُبتُ المحيط.. لن أجد خيرًا منكَ صديقًا

ولم أجد سوى يديكَ.. تنتشلني حين كنت غريقًا

وسأكون معكَ أبدًا.. أقاتل بجانبك ما حييتَ

بيدي وسلاحي وحربتي.. وبقلبي إن تريدَ

وإن لم أعد معكَ إلى الجوف.. لا تخرج للبحث عنّي

إياكَ أن أذهب عن بالكَ.. إذا فرقنا موتٌ أو مكان

فلا تحزن عليّ يا صديقي.. أنا لن أذهب بعيدًا

سأبقى معكَ في الأحلامِ.. وستسمعني فيها أغنّي

حينها لن تكون وحدكَ أبدًا.. بل لن أكون معكَ

فما كانت تلك النهاية.. بل إنها بداية أحلامكَ

انتهينا من العشاء، ثم صعدت إلى غرفتي التي اتضح أنها كانت لعمار في الأصل، ونام هو في الأسفل، وجمعت حاجياتي ثم أخذت قسطًا من النوم، واستيقظت في اليوم التالي لأرحل مبكرًا، ومكثت مع الرجال قليلًا قبل أن أحمل حقيبتي وأخبرتهم بتأثر:

- يجب أن أذهب أيها الرفاق!

وودّعت دييجو وموريس، وجئت عند سامبار فاحتضنني وهو يقول:

- عُد قبل أن نشتاق إليك!

ثم سلمت على أوساي فقال:

- لا تجعلنا ننتظر مائة وثمانين سنة أخرى!

ابتسمت له، ثم أردت أن أسلم على أطلس لكنه ضرب يدي وقال:

- لن أودّعكَ أيها الأحمق! ستعود كما يعود سكان أطلس إلى جوفه.. صحيح؟!

وربّت على كتفي بطيبة، وأومأت له بابتسامة راضية وقلت:

- شكرًا لاستضافتك يا أطلس.. هذا الأسبوع، وذاك الذي منذ مائة وسبع وسبعين سنة

خرجت من المنزل وأنا إنسان جديد بالمعني الحرفي، فقد خرجت باسم جديد، وعمر وتاريخ ميلاد جديدين، وأب وأم جديدين، ولي منزل جديد أعود إليه، وعائلة جديدة.

كان عمار قد أصرّ على أن يصحبني إلى المدينة، وأثناء الطريق قلت على سبيل الحوار:

- من أي بلد كان يوزي؟
- اليابان
- وأين كنتَ الأيام الماضية؟
- اليابان
- هل كان موريس معكَ
- نعم!

لم أرِد أن أسأل عمّا كان يفعلان هناك، فقلت لتغيير الموضوع:

- ظننتكَ في المغرب مثلًا!
- لا، لم تطأها قدمي منذ مائتين وعشر سنة

ثم تذكرت شيئًا آخر مهمًا كنت نسيت أن أسأله أطلس، فسألت عمار:

- لكن لا زلتُ لا أفهم كيف خرجتم من الجوف ولا تزالون على قيد الحياة إلى الآن
- ربما كان الجوف هو ما يشفينا، أو يبقِي شعرنا فوق رؤوسنا، أو هو ما يكُفّنا عن شهواتنا وكل ذلك، لكن وجود أطلس على قيد الحياة في حد ذاته؛ هو ما يجعلنا على قيد الحياة، أعتقد أن دكرور كان يعرف ذلك قبلنا جميعًا

تنهّد عمار ليكمل بابتسامة:

- الجوف حلم لم نستيقظ منه بعد، بل لا نريد أن نستيقظ منه أبدًا، أعتقد أن الجوف كان شيئًا مجازيًا أو رمزيًا أكثر، أعتقد أننا ما نزال في جوف أطلس بطريقة ما